سِيميائيَّةُ العَتَبات النَّصيَّة فِي المجْمُوعَة الْقَصَصِيَّة "أنا وَأنتِ " للقاص أحمد الْخَمِيْسي

THE SEMIOTICS OF TEXTUAL THRESHOLDS OF " ANA WA ANTE" COLLECTION BY AHMAD ELKHAME

إعداد

أستاذ دكتور / نجوان كمال السَّيد

أستاذُ الأدب والنَّقد في قِسْمِ اللغَةِ العَرَبيَّة وآدابِها، كلية الآدابِ

والعُلُوم الإنسَانيَّة جَامِعَة جَزَان ، المملكَة العَربيَّة السعودَّية

العدد الثالث عشر – يوليو 2023 م

المُلَخَّص .

تتغيَّا هذه الورقةُ البحثيَّة دراسة العَتبات النَّصيَّة في المجْمُوعَة القصصيَّة " **أنا وأنتِ** " للقاص الدكتور **/ أحمد الْخَمِيْسي.** فالعَتَبات النَّصيَّة مكوِن رئيس في فهم النَّص الأدبي ، وفك شفراته ، وتحديد مقاصده الدلالية ،وإضاءة جوانبه المبهمة.

ولحظتُ أنَّه كثيرًا ما كانَ يهتمُّ بتشكيلِ عُنْواناتِ مجموعتهِ القِصصيَّة " **أنا وأنتِ** " ، فلم تأتِ بطريقةٍ عبثيَّة دون جدوى، ولكنها ارتبطت بالنَّص ارتباطًا وثيقًا ، حتَّى صارَتْ جُزءًا رَئيسًا لا ينفصم عنه . ومن الملاحظ أنَّ العنونة الاسميَّة قد تفوقت عَلى العنْونة الفِعليَّة بشكل لافتٍ ؛ فقد وردت في **أربعِ عشرةَ قصةً** ، ولم تَرِد العَنْونةُ الفِعليَّةُ إلا في قصَّتهِ المعنونةِ باسم: " **سأفتحُ البابَ وأراكِ**".واهتمَّ الكاتبُ بالمتعالياتِ النَّصيَّة في مَجْمُوْعَته ،ولا سيما الإهداء ،والتَّجنيس ، و الْعُنْوانات الدَّاخلية.

الكلمات المِفتاحيَّة : المتعاليات النَّصيَّة ، الغِلاف ، العُنْوان ، التَّجنيس ، أحمد الْخَمِيْسي .

Abstract

This research paper aims to study the textual thresholds in the story collection " Ana wa Ante " by the writer Dr. / **Ahmed Al-Khamisi**. Textual thresholds are an essential component in understanding the specificity of the literary text, deciphering its mysteries, defining its semantic intentions, interpreting it, and illuminating its mysterious aspects

I noticed that he was often interested in forming the titles of his short story collection . It did not come in an absurd manner in vain, but it was closely associated with the text, until it became a major and inseparable part of it, It is noticeable that the nominal addressing has significantly outperformed the actual address. It was mentioned in fourteen stories, The actual address is only found in his story entitled: "I will open the door and see you." The writer was interested in textual transcendence in his collection, especially gifting, naturalization, and internal addresses.

مقدمة :

تتغيَّا هذه الورقة البحثيَّة ولوجَ عالم القِصَّة القَصِيْرَة المُثير الشَّائِق، وذلك مِنْ خلال اختراقِ العَتَباتِ النَّصيَّة في المَجْمُوعَة الْقَصَصِيَّة الثريَّة " **أنا وَأنتِ**"، للقاص المِصْري الدكتور **أحمد الْخَمِيْسي**. الصَّادرة عن دَار " **كيان**" للنَّشر، والحائزة على جائزة " **ساويرس**" في القِصَّةِ القَصيرةِ، فئة " كِبار الكُتَّاب " ، في عام **(2017)**م.

وهو أديبٌ مِصريٌّ متمرِّسٌ مُقْتدرٍ مُحنَّك في ميدانِ القِصَّة القصيرة، يَحِيكُ سَدَاه بشكلٍ متميزٍ، ويريدُ أنْ يترك بَصمةً في سيرورة القِصَّة القَصِيْرَة. فهو يمتلكُ ناصيةَ اللغةِ دونَ مِراءٍ، ولديه قُدرة فَائقةٌ عَلى صياغةِ مُنْجزات إبداعيَّة مُحْكمةَ البِناءِ متماسكة . هذا فضلاً عن قُدرتِه عَلى اقْتناصِ اللحَظاتِ المُؤثِّرة من واقعه المحيط به. فقد دخل غِمار هذا الجِنسِ الأدبي وَهو مُتمكِّن مِنْ تقاناته الفنِّيَّة وخَباياه الجَماليَّة ، لذا نجدُ منجزاته الإبداعيَّة تَعجُّ بالثَّراء، ويَجدُ النُّقَّاد والمتلقينَ على السَّواء مُتعةً كبيرةً كلمَا أبحروا في يمومها ،وغاصُوا في أعماقها.

وينتمي الكاتبُ إلى عَائلةٍ أدبيّةٍ ، فوالده الشّاعر الرَّاحل عبد الرحمن الْخَمِيْسي. ومن أعْمَالِهِ القَصَصيَّة : " **قطعة ليل كنزي**"، و"**رأس الديك الأحمر**"، وصدرت له مَجْموعَةُ " **أنا وَأنتِ**" عن دار نشر كيان ، **(2015)**م وقد نشرَ نَتاجَهُ في مجلاتِ " **صَبَاح الخير** " ، و" **القصَّة** "، و" **الكاتب** "وغيرها. وله في التَّرجمات: "معجم المصطلحات الأدبية عن الروسية"، و"نجيب محفوظ في مرايا الاستشراق"، و"المسألة اليهودية للأديب الروسي دوستويفسكي" [1]:

أسئلة الدراسة :

أجابتِ الدراسةُ عنِ الأسئلةِ الآتية :

- هل اهتمَّ القاصُّ بالعَتَبات النَّصيَّة في مجموعتِهِ القصصيةِ " **أنا وأنت** "؟
- هل حقق العنوانُ الرَّئيسُ الَّذي اختاره القاصُّ الوظائفَ التي ذكرها **جيرار جينيت** في كتابه الذي عنونه باسم العَتَبات ؟
- هل مال في عُنْواناتِ مجموعتِهِ إلى المركَّبات الاسميَّة أم الفعليَّة ؟
- هل مال في بعض عتبات مجموعتِهِ إلى التَّجديد والابتكارِ أم التَّقليد والتَّكرير؟

أهداف الدراسة :

تهدفُ هَذِه الورقةُ البحثيَّة إلى :

- الكشف عنْ تجلّيات النُّصوص الموازية في المجموعة القصصيَّة " **أنا وأنتِ**" لأحمد الْخَمِيْسي.
- استجلاء دور العَتَبات النَّصيَّة فِي فهم النَّصِّ وفكِّ شفراته.
- إظهار جماليات العَتَبات النَّصيَّة ، وما تثيرُه في هذه النُّصُوص الإبداعيَّة من تفاعلاتٍ وحواراتٍ و تساؤلات بينها وبين المتلقينَ.

الدراسات السَّابقة :

أهمل النَّقْد الغربي والعَربي النَّصَّ الموازي مدة طويلة ، واكتفى الباحثونَ والأكاديميونَ بالانكِبابِ على النُّصُوْصِ الإبداعيَّةِ الدَّاخِلية ، وتَجاهُلوا ما يحيطُ بهذه النَّصوص من عنوانات، وإهداءات ، وهوامش ، وفهارس . ولكنَّ النقد الحداثي الآن بدأ يسلِّطُ ضوءًا ساطعًا على هذه النُّصوص الموازية . وقد أعادت الشعرية **(Poétique) _** بنيوية كانت أم سيموطيقية– الاعتبار لهذا النص الموازي المُهمَّش، بل اعتبرته المدخل الرَّئيس إلى أعماقِ النَّصِّ الإبداعِي. وكل إقصاء لما هو خَارِجِي، يَجْعلُ منْ هذا العَمل نَاقصًا مُوَعًا بالثغرات المنهجيَّة والنَّواقص السَّلبيَة [2]

وثمَّة دراساتٌ عديدةٌ حاولتْ استجلاءَ العَتَبات النَّصيَّة في النُّصُوص الإبداعيَّة الشِّعريَّة والنَّثريَّة منها :

- قراءة سيميائية للعتبات النَّصيَّة في المجموعة القصصية **"الأرض الجريحة"** لـ: صورية إبراهيم مروشي، للباحثة سعيدة بشار، **2014** م.
- عتبات النَّص (في نماذج من الرواية في الجزيرة العربية **1990: 2009م**)، د. حصة بن زيد المفرح ، دار الانتشار العربي ، **2017** م
- العَتَبات النَّصيَّة في المجموعة القصصية **"غدًا يأتي"** للقاصة شريفة الشملان، فواز عبد العزيز اللعبون ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، المجلد **28** ، العدد **3**، **2020**م.
- سيميائية العَتَبات النصية في رواية **"هارب من الأيام"** لثروت أباظة . إيناس بسيوني إبراهيم النوحي ، و محمد السيد الدسوقي، وحامد محمد عبد اللطيف المقالة **9** ، العدد**40** م، المجلة العلمية ، بكلية الآداب ، جامعة طنطا ، **2020**م .

عينة الدراسة :

اعتمدت الدراسة على المجموعة القصصيَّة " **أنا وأنتِ** " للقاص المصري الدكتور **أحمد الْخَمِيْسي**. وقد تضمَّنتْ **خمسَ عشرةَ** قِصَّةً قصِيرةً ،وهي :

" أنا وَأنتِ ، وبالميرو ، ورُوْح الضَّباب ، وسأفتحُ البابَ وأراكِ ، ومِرآة ، ووجْه، وليلة بلا قمر، والنُّور ، وسَماء ضائعة ،وأليونا، وخطوبة ،والصَّبي الَّذِي يَأكل المَاءَ ، وبيْت جَدَّي، وقُرب البحر ، وطرح القلب".

منهج الدراسة :

اخترتُ **المنهج السيميائي** لدراسة العَتَبات النَّصيَّة في المجموعة القصصيَّة " **أنا وأنتِ** "؛ لأنه المنهج المناسب لفكِّ شفراتها ورموزها.

أسبابُ الدراسة:

ثمَّة دواعيُ رئيسةٍ دَفعتني إلى التَّصدِّي إلى دراسة العَتَبات النَّصيَّة في هذه المجْمُوعَة الْقَصَصِيَّة دُوْن غيرِهَا ؛ ومنها :

- أن العَتَبات النَّصيَّة شكَّلتِ ظاهرة سيميائيَّة ثريَّة في هذه المجموعة ، جديرة بالدراسة والتحليل ،وانعكست جمالياتها على فهم نصوص هذا العمل القصصي الشَّائق .
- أنَّ القاص لجأ إلى التَّجديد والابتكار في عتبات هذه المجموعة ، خاصَّة في عتبة الإهداء.
- أنَّ المجموعة تُعانقُ بعضَ قضايا المُجْتمع المِصْري ، وتتغلغل في النَّفس البشريّة وتناقضاتها.
- أنه لرتكن إلى تنويع ثيماتها ، وطرح موْضوعاتٍ مُتباينة ، ما بين اجتماعية وسياسية ودينيَّة.
- أنه مال في بعض قصص مجموعته إلى الفانتازيا ، وذلك في قِصص: " النُّور" ، و" سماء ضائعة " ، و" الصبي الذي يأكل الماء". وعمد في قصته الأخيرة إلى الفنتازيا،رغم واقعية هذه القصة المؤلمة؛رغبةً في كسر حدة الواقع المؤلم بهذه الفنتازيا.

أولًا : سيميائية العَتَبات النَّصيَّة تنظيرًا :

ظهرت السِّيمْيَائيَّة بوصفها علمًا في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين، ورغم عدم اتفاق النقاد حول موضوع هذا العلم إلَّا أننا نجُد الباحثين الغربيين يحاولون تحديد موضوع السِّيمْيَائيَّة ؛ حيث وضحت **الناقدة البلغارية جوليا كرستيفا** أن موضوع هذا العلم ينحصر في دراسة " الأنظمة الشفوية وغير الشفوية ومن ضمنهاّ اللغات، بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل الاختلافات، إن هذا هو ما يشكل موضوع السِّيمْيَائيَّة [3] وبناءً على ذلك جعلت **كرستيفا** موضوع السِّيمْيَائيَّة واسعًا ، إذ يشملُ مختلف الأنظمة، لتصبح العلامات اللغوية مجرد جزء من موضُوع السِّيمْيَائيَّة الواسع.

أما تعريف السِّيمْيَائيَّة عند العلماء العرب ، فنجد **مازن الوعر** يقول عنها– في مقدمة " علم الإشارة السيميولوجيا " لبيير جيرو – إنها : "علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها، وهذا يعني أنَّ النظام الكوني بكلِ ما فيه من إشاراتٍ ورُموز هُو نظامٌ ودلالةٌ وهكذا، فإن السيميولوجية هي العلم الذي يدرسُ بنيةَ الإشارات وعلائقها في هذا الكون، و من ثَم ، يدرس توزعها ووظائفها الدَّاخليَّة والخَارجيَّة" [4]

ولأنَّ النَّصَّ بنيةٌ انتاجيَّةٌ متناسقةٌ ومنْسجمةٌ حاولت السِّيمْيَائيَّة كشفَ كيفيَّات بناء النُّصوص الإبداعيَّة ، والوصُول إلى الدَّلالات العامَّة الَّتي ترمي إليها هذه النُّصوص ، و كيفيَّة تشكلاتها .

وقد أولت السيمياء اهتمامها بالنصوص الموازية أو العَتَبات النَّصية باعتبارها العلم الذي يهتم بدراسة أنظمة العلامات و الإشارات، سواء أكانت لغويَّةً أم غير لغوية . "وتتجَّلى العَتَبات بوصفها تلك العلامة التي تحيل إلى واقع، إذ نخطو عليها من الخارج إلى الدَّاخل" [5].

فالعَتَبات النَّصيَّة تسهُم إلى حدٍّ كبير في سبر أغوار النَّص ، وفك شفراته، واكتشاف معالمه. إنها نصوص محيطة بالنص الرَّئيس ، لا يمكن تجاهلها ؛ لأنها تدخل معه في علاقاتٍ جدلَّيةٍ تسهُم في خلقِ دلالاتٍ عديدة ، وتمكِّن المتلقينَ من الولوج إلى متاهات النص وفضاءاته المغلقة ، للكشفِ عن جمالياته ومخبوءاته ، وخباياه وخفاياه . وقد أفرد

جيرار جينيت **Gérard Génette** كتابًا كاملاً للعتبات النَّصيَّة عنونه باسم **(Seuils)** ، وقد جعلها خطابًا موازيًا للخطابِ الأصلي (وهو النَّص)، يحركه في ذلك فعل التأويل، وينشطه فعل القراءة شرحًا ومفسرًا شكل معناه" [6]

وعرَّفها الكاتبُ نفسه في كتابه "**palimpsests**" بأنها نمطٌ من أنماط التَّعالي النصي، ويتكون من علاقة هي عمومًا أقل وضوحًا ، وأكثر اتساعًا يُقيمُها النَّصُّ في الكل الذي يشكله العمل الأدبيُّ مع ما يمكن أن يسمى بالنَّص الموازي أو المُلحقاتِ النَّصيَّة : كالعُنوان الرَّئيس، والعُنوان الفرعي، والمقدمات ، والتَّنبيهَات، والتَّمهيد ، والهَوامش في أسفل الصفحة والمقتبسات، وعبارات الإهداء... .إلخ من العلامات الثانوية وإشارات الكتابة . أو قد يكون في بعض الأحيان شرحًا أو تعليقا رسميًّا أو شبه رسمي. [7]

وعرف **geune le philipe** العتبَة النَّصيَّة بقوله : "إنها عبارةٌ عن نصٍ هامشي يوجه القراءَة بصفةٍ عامَّةٍ ابتداء باسم الكاتب ، والعنوان الرئيس ، والعنوانات الفرعية،..وحتى المقدمة. [8]

فالعَتبات النَّصيَّة " أول لقاء مادي ومحسوس بين الكتاب والقارئ الذي تراهن استراتيجية الكتابة على حسه وحدسه الإبداعيين ، اللذين يشفان عن أفعال قرائية تتعامل إيجابيًّا مع هذه العَتبات، ، وذلك من خلال ما تقترحه تلك القراءات من اجتهادات وتأويلات وتنظيرات ، تزيد من غنى تلك العَتبات ، وتفتح آفاقا متعددة للحوار النَّقدي " [9].

ويمكننا تلخيص **مكوِّنات العَتبات النَّصيَّة** فِي المجموعة القصصية " أنا وأنت " في الآتي: **العنوان الرَّئيس ، وعنوانات قصص مجموعته ، والتَّجنيس، واسم الكاتب ، والإهداء ، واسم الناشر ، وصُورة الغِلاف الأمامي للمجْموعة ، والعنوانات الدَّاخليَّة ، وصُورة الغِلاف الخَلفي للمجْموعة .**

ثانيا : العَتبات النَّصيَّة تطبيقًا :

1. **الغِلاف الأمامي للمجْموعة القصصيَّة " أنا وأنتِ " :**

نال الغِلافُ الخَارجيُّ للمنجز الإبداعي أهمية كبرى من قبل النُّقاد والمبدعينَ والمتلقين عامَّة، خاصة بعد تطور الطباعة ، وسيطرة الصورة بكل أبعادها على المتلقين . فقد كان الغِلافُ في الأزمنة السالفة حافظا للمنجزات الإبداعية من التَّلف ، وكثرة الاستخدام ، ولكنه بدأ يأخذ حيزًا كبيرًا من الاهتمام والترتيب والتَّنسيق ؛ كي يتَّسق مع عنوان الكتاب ومدلولاته فالمبدعون حولوه من وسيلة معقدة لحفظ الحاملات الطباعيَّة إلى فضاء من المحفزات الخارجيَّة، والمواجهات الفنيَّة، المساعدة على تلقي المتون " [10].

وتقع المجموعة القصصية في **مئةٍ وإحدى وستين** صفحة من القطع المتوسط ، وصمَّمَ غِلافها الخارجيَّ المميز الفنانُ المصري **حاتم سُلَيمَان** . ويتواءمُ هذا التَّصميم المعبر وعنوان مجموعته القصصيَّة . فالغِلافُ الخَارِجي ليس شيئًا اعتباطيًّا يوضعُ بطريقةٍ عبثيةٍ ليؤطر المنتجَ الإبدَاعِي فَحسب دُون إضافةٍ تذكر، ولكنَّه جزءٌ ركينٌ من المنْجز الإبدَاعي ، يمنَحُ الْمُتَلِّقين رؤيةً بَصَريَّةً ؛ لأنَّه أول ما يحقق التواصُل مع القارئ قبل ولُوجه إلى فضاء النص ،وهو العَتبةُ الأولى التي

يرتطُم بها ٱلْمُتَلّقي قُبيل اختراقه النّصّ. لذلك كثيرًا ما نجدُ المُبدعينَ يلجأُون إلى الاستعانة بالصّور ، أو الرّسُوم الملوّنة ، أو الأشكال بشتّى أنواعِها ؛ ليزيّنوا بها الغُلفَ الخَارِجيَّةَ لمجمُوعاتهم ٱلْقصَصِيَّة ورواياتهم وكُتبهم .

ومن شروط تصميم الغِلاف الفعّال، أن يكون قادرًا على جذب الانتباه وإثارة الاهتمام، ولتحقيق هذه الغاية، "فإنّه يتطلب خاصيتيْ التناسب والمرونة البصريَّة، لتحقيق أفضل تمركز بصري ممكن، من شأنه أن يساعد على التحكم في حركة العين، التي تنجذب نحو الأشياء ذات الأحجام الكبيرة، والأشكال البارزة ، والصور المحوّرة ،والألوان المثيرة " [11]. وقد التزم القاص ذلك في مجموعته القصصيَّة " أنا وأنتِ ".

وهاكم نسخة من غِلاف المجموعة القصصيَّة التي نحن بصدد دراسة العَتَبات النصَّية فيها:

فمن خلال القراءةِ البصَريَّة لِغلاف المجْمُوعَة ٱلْقَصَصِيَّة– المذكور أعلاه – يتضح جليًّا أنّ عتبة الغِلاف تحمل دلالاتٍ وشفراتٍ رَقْمَيَّة عديدة ، فثَمّةَ تلازم بين العنوان ولوحة الغِلاف. فالعُنوان **"أنا وَأنتِ"** – كما أشرنا سالفًا – ولِيُؤازرَ

الغِلافُ هذا العنوان ويعضِده ، نجده يشتمل على صورةٍ لوجهَيْ رجلٍ وامرأةٍ ، وكلُ طرفٍ منهما يحدِّقُ إلى الآخر، وقد أغمضَ كلُ طرفٍ منهما عينيه . وللمتلقي حقُ التأويل والتحليل ، فربما فَعلا ذلك ؛ ليحلِّقا في عوالم الحُبِّ والطُّمأنينة والسَّكينة ،والبعد عن صخبِ الحياة وقسوتها. وربما لأنَّ كلَ طرفٍ منهما يَحمل عتابًا قاسيًا للطَّرف الآخر ،ولا يريد أن يراه .

وقد طَغَى اللونانِ **الأصفر والبرتقالي** على الغِلافِ . وقد توصَّل **العالم لانج** إلى أنَّ لكلِ لونٍ خصيصةً معينةً ، " فاللوْنُ الأصْفر لصلتِهِ بالبياض وضَوْء النَّهار ارتبط بالتحفُز والتهيؤ للنَّشاط، وأهم خصائصه اللمعان والإشعاع وإثارة الانشراح "[12]وهو أحد الألوان الساخنة، " فهو يمثل قمَةَ التَّوهُج والإشراق، ويعد أكثر الألوان إضاءةً ونورانيةً؛ لأنه لونُ الشَّمْس ومصدر الضَّوء، وأهمية الحرارة والحياة والنشاط والغبطة والسُرور "[13]لهذا كان مُقدَّسًا في الدِّيانات الوثنية، فقد كان الأصفر رمزًا للإله رع في مصر "[14]

وهذا اللون يحملُ دَلالةً مُهمَّة في التَّفكير الجَمْعِي، فهو دليلٌ على حرائق الحُبِّ التي تضطرُم في أجْنَانِ العشَّاق ولن تخمد ، تلك الأحاسيس التي تؤطرها الغَيْرة والرَّغبة في الاستئثار بالطَّرف الآخر. وقيل عن اللون الأصفر أيضًا إنَّهُ مركز نورانية شديدة في مجموعة ألوان الطيف، إنَّهُ محرِّكٌ للأعصاب يُستعمل أحيانًا في عِلاج بعض الأمراض العصبيَّة.

أما **اللون البرتقالي** فهو اللونُ الَّذي تردانُ الطَّبيعةُ به جمالاً في فصل الربيع؛ فلا يمكن للعَينِ البشريَّة غضُّ الطَّرف عن جاذبيته، فهو يرمُز إلى الدِّفءِ والانجذابِ والذَّوق والشَّوق والحرارة والإثارة [15]. كما أنَّهُ يعبر عن التَّوهج الاشتعالي ،وهو لونٌ محبَّبٌ إلى النَّفس.

وهذان اللونان – الأصفر والبرتقالي– ساعدا الْمُتَلِّقي على غير وعي منه ، على تخيل المحتوى الدَّاخلي الَّذِي رسمهُ هذا القاصُّ المبدع ، في هذه المجْمُوعَة الْقَصَصِيَّة الزَّاخرة، الَّتِي عَضَّدها العنوانُ الرَّئيس البارز.

ومن اللاّفت للخطابِ البَصَري هو توسّط العنوان صفحة الغِلاف الأمامي ، وقد خُطّ باللّون الأبيض الغليظ، وهو لونُ الجَاذبيَّة والإغواء والإغواء . ولم يكن اختياره أمرا اعتباطيّا، بل كان للتأكيد على أنَّهُ علامةٌ سيميائيّةٌ محيلة إلى مركزيّة العنوان ، ومدى تأثيره وتحكّمه في الفعل القرائي، وتأشيره على أهمّية هذا المنجز الإبداعي ، وهي تستمدُّ أهميتها من اسمِ مُبدِعها المتمرس.

2. العنوان الرَّئيس:

تعدُّ سيميائية العنْوان من القَضَايا النَّقديَّة المُهمَّة الَّتِي خَاضَ فيها النقاد الحداثيون، ومما لاشك فيه أنَّ العنوان يؤدّي دورًا رئيسًا في فهم المعانِي العَميقة المتعلقة بالنص. ومن هنا كان الاهتمامُ به أمرًا ضروريًّا ؛ لأنه أول عتبةٍ رئيسة للولوج إلى معالم النَّصّ واكتشاف كنهه ، وفك شفراته ، واكتشاف مكنوناته. ومن ثم تقديم رؤية حداثية نقدية مؤسسة على منهج ومنطلقات نظرية تسهم في كشف معالم النص الخفية، وتقديمه للمتلقي على شكل قراءة نقدية لهذا العمل الأدبي [16].

فالعنوان " يعد أخطر البؤر النّصيَّة التي تحيطُ بالنّصّ ، إذ يمثل – في الحقيقة – العتبة التي تشهُد عادة مفاوضات القبول والرفض بين القارئ والنص، فإما عشق ينبجس – وتقع لذة القراءة – وإما نكوص ، ليتسيَّد الجفاء مشهدية العلاقة ، فالعنوان هو الذي يتيح الولوج إلى عالم النص والتموقع في ردهاته ودهاليزه ؛ لاستكناه أسرار العملية الإبداعية وألغازها" [17].

وقد عرَّف لوي هويك **Loe Hoek** العنوان بأنه "مجموع العلامات اللسانيَّة، من كلماتٍ وجملٍ، وحتى نُصُوص، قد تظهر على رأس النّص لتدل عليه وتُعيّنه، تشير لمحتواه الكُلّي ولتجذب جمهوره المستهدف" [18].

وتشكيل العنوان في أي نصٍّ من النُصُوص لا يكون اعتباطيًّا عشوائيًّا ، ولكنه يرتبط بمتن النص أيما ارتباطٍ، بل إنه جزءٌ رئيس لا يتجزَّأ من المتن . وهو يمكننا من فك شفرات النص ورموزه، ومحاولة فهم الغامض منه .

وقد ذكر **جيرار جينيت** **Gérard Gnette** للعنوان وظائف عدة ، تميزه عن باقي أشكال الخطاب الأخرى منها :

- الوظيفة التّعنينيَّة **(La Fonction de désignation)** : تعرّف هذه الوظيفة القراء بالكتاب، وتقدمه لهم بدقة وتفصيل، وتسمى أيضًا وظيفة التّسمية؛ لأنها تتكّفل بتسمية العمل ومن ثم مباركته، وهي تشترك فيها الأسامي أجمع، وتصبح بمقتضاها مجرد ملفوظات تفرق بين المؤلفات والأعمال الفنَّية، بل هي رواسم تهدي إلى الكتاب أو المنحوتة أو الرسم".
- **الوظيفة الإيحائية (Fonction connotative)**: وتمتاز هذه الوظيفة بأسلوبها الخاص في الوجود، فهي ليست دائما قصدية، إذ إنها توحي بالمضمون الداخلي للكتاب، وإن لم تفصح عن ذلك بوضوح، فيتضمنها العنوان وإن لم يقصد الكاتب ذلك.
- الوظيفة **الإغوائية (Fonction séductive)** : وتسمى الوظيفة الإشهارية أو الترويجية ، فالعنوان قد يحدث تشويقًا لدى القارئ حول مضمون الكتاب، " فهو ذو قيمتين ، قيمة جمالية تتشرط بوظيفته الشعرية التي يبثها فيها الكاتب وقيمة تجارية سلعية، تنشطها الطاقة الإغوائية، التي تدفع بفضول القراء للكشف عن غموضه وغرابته". [19]

ومن يطالع عنوانَ هذه المجْمُوعَة الْقَصَصِيَّة ، الَّذِي يحمل اسم " **أنا وَأَنْتِ** " يجد أَنَّ القاصَّ استمَدَّهُ من عنوان إحدى القصص الدَّاخلية فيها ، وهي القِصَّة الأولى الَّتي استهلَّ المجْمُوعَة بها. فرغم تنوع القصص التي بلغت **خمس عشرة** ، نجده ينتقِ عُنْوانَ هذه القِصَّة ليجعله عُنْوانًا للمجمُوعةِ بِرُمَّتها ؛ وذلك لحمولاته الدلالَّية الإيحائيَّة . فَثَمَّةَ صراعٌ سَرمدي بين الرَّجل والمرأة منذ بدء الخليقةِ، يتجلَّى حينًا ويخبو في أحايين كثيرة . وربما لأَنَّ هذه القِصَّة – من وجهة نظري– هي أروعُ قِصَّة جادت بها قريحته القيَّاضة .

ومن ينعم النَّظر في هذا العنوان الرئيس يجد أنه قد حقق الوظائف التي أشار إليها **جيرار جينيت** آنفًا ، وخاصة **الوظيفة الإغوائية التَّرويجيَّة** ؛ فالإنسان دائمًا تستهويه تلك القصص والروايات التي تعبر عن جدليَّة العَلاقة بين الرجل

والمرأة ، فهما عالَم كاملٌ مثيٌر يشكل كل منهما شطره ، في ثنائيَّةٍ أزليَّةٍ سومديَّة تمثل الحياة بكلِ أبعادِها وتفاصيلها وتجلياتها ، ومن البدهي أن تنعكسَ هذه الثُنائيَّة المثيرة فِي النَتاج الأدبي شعرًا ونثرًا.

ولم يوضِّحْ لنا القاص ها هنا مقصديته من هذا العنوان ، وترك البابَ مفتوحًا على مصراعيه أمام المتلقين ؛ ليبحروا في يمومه ، ويغوصوا في أعماقه . فهل يومئ إلى فكرة الحبِّ الفيَّاض الجارف الَّذِي يجمع بين الرجل والمرأة، وسيهنأ المتلقي بِثُلَّةٍ من حكاياتِ العِشقِ المثيرةِ الأثيرة ، التي تهفو إليها الأجْنان ، وتتوق إليها الأبدان ، في كلِ زمانٍ ومكان ؟. أم أنه سيشير إلى جدليَّة الصِّراع على الأفضلية ، والمنافسة المحتدمة بينهما ، ورغبة كل طرف منهما في السيطرة على الطرف الآخر؛ إثباتًا لقدراته وإمكاناته ، وربَّما تقديم " **أنا** "ها هنا على " **أنتِ**" يشير إلىرغبة الرَّجل العَارمَة في إعلان سيطرته وإحكامه على الطَّرف الآخر . ويظلُّ المتلقي مَشدوهًا إلى النَّصِ، ولديهرغبةٌ عارمةٌ في فك رموزه ، والتَّعرُّف إلى مضامينه ، ولن يدرك ذلك إلا بعد تعمقِهِ في قراءة هذه القصص المتنوعة .

يقول حمد :" عندما نقرأ العنوانَ منفصلاً عن المتنِ بوصفه نصًّا مُستقلاً يُوحِي بعددٍ من القِراءاتِ والإحالاتِ الَّتي لا تخلو من شِعرية ، ولكن حين يتمربطه بالمَتن تتضح دلالته ويتكشف مغزاه ، لتصبح دلالته أقرب إلى سياق نصي محدد، كما تتكشف الدَّلالة المركزيَّة له وتصبح أكثر مباشرة وتقريرية " [20].

وأظنُّ أن ثَمَّةَ اصطدامًا سيحدث بين المتلقين وهذا المنجز الإبْدَاعِي ، بعد أن يتغلغلوا في نصوص المجموعة الأخرى؛ لأنه خُيِّل لهم أنهم سيبحرونَ في هذا العَالم المترعُ بالخبايا والخفايا، وسيستمتعون بقصص الحبِّ والعشق والغَيْرة والوَمق ، أو ربما قصص الصِّراع والمعاناة . ولكنهم سيقعون في آبار الدَّهشة حينما يعلمون أنها ليست مقصورةً على هذا العالم المترع بالحَراك، بل إنَّها مَجموعةٌ قصصيةٌ متنوعةٌ ، تشملُ أطيافًا متباينة، وتعبرُ عن إشكاليات متعددة ، و قضايا سياسيَّة واجتماعيَّة مستشرية في المجتمع المصري .

3. عنوانات قصص المجموعة :

أ. عُنْوانات المجمُوعة دلالِيًا :

أشرت في مقدَّمةِ هذه الورقة البحثيَّة أنَّ المجموعة القصصيَّة " **أنا وأنتِ**" قد تضمَّنتْ **خمسَ عشرةَ** قِصَّةً قصِيرةً ، وهي:

" أنا وَأنتِ ، وبالميرو ، ورؤح الضَّباب ، وسأفتحُ البابَ وأراكِ ، ومِرآة ، ووجْه ، وليلة بلا قمر، والنُّور ، وسَمَاء ضائعة ،وأليونا، وخطوبة ،والصَّبي الَّذِي يَأكل المَاء ، وبيْت جَدِّي، وقُرب البحر ، وطرح القلب".

وبإلقاء نظرة سريعة على بعض هذه القصص نجد أنه ارتكن إلى تنويع ثيماتها ، واختلاف قضاياها – كما ذكر آنفًا– وطرح موْضوعاتٍ مُتباينة ، ما بين اجتماعيَّة وسياسيَّة ودينيَّة . وقد حرص على انتقار عُنواناتٍ تتسقُ ومضامين هذه القِصَص.

فؤاه – في بعض الأحايين – يَسيُر في دُروبِ القلوب الملتَعجة من وهج الغرام ، ولوعَة الهيام ، وذلك من خلال قصصهِ المُعَنونة باسم: " **أنا وَأنتِ** " ، و"**سَأفتحُ البابَ وأراكِ**" و" **آليونا**" ، و"**طرح القلب**".

فحينما نتغلغل في أعماق القصَّة الأولى الرَّة " **أنا وأنتِ** " ستتكشف مقاصد الكاتب ودلالات النص . فالسَّارد يحكي ها هنا عن علاقته بزوجه الَّتي فارق جسدها الحياة ، ولكن لم تفارق روحها روحه ، فقد انصهرا في بُوتقةٍ واحدة، ولم يقو عليهما الموت بكل قوته وجبروته وقدراته وإمكاناته . وعاش الزَّوْجُ مأزومًا بين فكَّيْ الحضور والغياب . فهو عاشقٌ وامقٌ تائقٌ إلى لقياها، عيونه تأتلق من وهجِ الغرام وسحْر الهيام ، وقد أضناه الحِرْمان ، وأمضته الأحزان ، وليس في جعبته إلَّا الذكريات الَّتي يمتطيها ليلاً ونهارًا علها تبلغه غايته ، وتقربه إلى وصال معشوقته. فهذا هو الحب السَّرمديُّ الَّذي لا يعترفُ بحدود الأمكنةِ والأزمنةِ ، والبعد والقرب، واللقاء والانزواء .

ونجدُ أصداء عشقها تتردَّدُ في أكثر من قصة ، " بل يسري عبرها في داخله حتى يتحوّل إلى شجرةٍ كما في قصة "**طرح القلب** ". و ثمة مراوحة في النُصوص بين الرَّمزي والواقِعي، فيتقاطعان معًا كنوع من ردّ الدال إلى المدلول دون الحاجة إلى فك شفرات وتأويلات تذهب بالنص إلى غير ما هدف وابتغى السارد " [21].

وتتوهَّجُ قصةُ عشقٍ أخرى في حكايته المعنونة باسم " **أليونا** " ، وعُنوان القصة ها هنا مبهمٌ غامضٌ غير ذائع، لا يعرفه الكثيرون . وهو اسم روسي يطلق على الإناث، مأخوذ من اسم" **ألينا**" ويعني النور أو الضَّوْء . ويحمل هذا الاسم معنى جميلاً ومميزًا في علم النَّفس يؤثر في صاحبة الاسم بشكلٍ إيجابي للغاية، حيث يدلُّ اسم أليونا في علم النَّفس عَلى كل ما هو مُشْرق ومضيء، ومن ثم فهو اسمٌ يبعثُ على التَّفاؤل والاشراقة.

وهذا الاسم يتماهى وبطلة هذه القصة ذات المَلامح المثيرة ، فكانت فتاة صغيرة لم يبزغ فجر شبابها ، ولم تتفتَّق معالمُ أنوثتها ، ترفرف عليها فراشات البراءة والنَّضارة . وجمالها الأخَّاذ هذا هو الَّذي فجَّر ينابيعَ العشق والوله في جَنَانِ بطلِ القِصَّة ، وجعله يَصبُو إلى وصالها ، ويهفو إلى جِنانها ، وأخذه إلى عالم آخر متناسيًا زوجه وأبناءه وحياته . ولكن حال الفراق بينهما ورحل عنها لمدة عشر سنواتٍ ، حتَّى صار شيخًا مُسنًّا. فقد قذف الفِرَاقُ الغاشمُ الآثمُ في جَنَانه حَزَنًا وألمًا وَهمًّا وغمًّا ، وكأنَّ عمرَهُ مرَّ في بعدها على قُضبانٍ من الجمر، وفي حالة ترقُّبٍ لرؤية فتاته الحَسناء التي شقَّتْ رُوحُها فؤاده ، وأشعلت نيرانَ سُهاده . فبعد كلِّ هذا العشق المشوب بالانتظار والقَرَق ، شاءَ القدرُ أنْ يهنأ بلقائها مُصادفةً في أحَد شوارع موسكو، بعد أن صارت شابةً يافعةً في الخامسة والعشرين من عمرها ، واستعادا شريطًا من الذِّكريات ، وكل واحدٍ منهما رآه بطريقته الخاصَّة. والغريبُ أنه وجد مشاعره نحوها قد تبدَّلت وتبلَّدت ، وأشواقه تغيرت وخمدتْ جذوةُ نيرانِهِ الَّتي كانتْ متقدةً في الجَنان ، وكأنه لم يعانق يومًا الوله والحرمان . ربَّما لأن الوجوه قد تغيرت ، وربما لأنه أحبَّ براءة هذه الفتاة حينما كانت في مرحلة بزوغ فجر المراهقة . فهو أراد أن يطوفَ معها حول ضفاف نهر البراءة والصَّفاء ، ويستعيد عمره الذي رحل . فهو لم يحبها، ولكنهُ أحبَّ أنْ يستردَّ عمرَه الَّذي تفلَّت من بين يديه .

وحينما نتغلغل في قصته " **بالميرو**" نجد أنَّ عنوانها يومئ إلى محتوى النص/ المتن، فهو من العنوانات المكانيَّة التي سَعى الكاتبُ فيها إلى ضخِّ أكبر حزمة دلالية قصدية . فهذا العنوان أثار فضُولَ الْمُتَلِّقي ، وجعله في نَهمٍ شديد لمعرفة هُوِيَّتِه . ومن يطالع أحداثَ هذه القصة يعلم أنه اسمُ مقهى في محج قلعة عاصمة داغستان . وفي رحم هذا الفضاء الضيّق مسَاحةً ، تخلَّقت أحداثُ هذه القِصَّة التي اُخْتُتِمَتْ بلمْحةٍ فكاهيَّة ، وكل أحداثِ هذه القِصَّة ظلّت تُراوحُ هذا الفضاء ولا تبرحُه. ونجد احتفاءَهُ بالمكانِ من خِلالِ قصَّة " **بيت جدي**" ، وكان **بيت الجدِّ** التَّليد هو المَكان الرَّئيس الَّذِي دارتْ فيه مُعْظم أحداث هذه القِصَّة.

وفي قِصَّة " **خطوبة**" نجد أنَّ العنوان يوحي بالحُبور والسُّرور ؛ لأنَّ حدث الخطبة حدثٌ جلل ينتظرُهُ الأبوان منذ اللحظة الأولى التي يعانق فيها مولودُهما أحضان الحياة، بعد أشهر معدودات من السَّجن في رحم الأم . ولكن حينما يتردد المتلقي إلى النَّص سيدرك أن هذه السعادة كانت مشوبةً بالحَزن والأسى والشَّجا ؛ لأنَّ الأبَ استقبل هذا الحَدثَ بمفرده، وفارقته زوجُه شقيقة روحه التي كانت تلهثُ مثله نحو احتضانه والانتشاء به . وصار وحيدًا ممزقًا بين الفرح والتَّرح.

وفي بعض الأحايينَ نجد القاص يشيرُ إلى بعضِ القضَايا السياسيَّة ، وذلك فِي قِصَّة " **ليلة بلا قمر**" . والعنوان ها هنا يوحي بالغموض ، وله دلالات شتَّى . وربما يعتقد المتلقون – أول وهلة – أنه سيتحدث عن قِصَّةِ عشق جديدة، بين معشوقين آخرين . وسيرتطم المتلقي بجدار الدَّهشة حينما يدرك أنها قصة تتطرَّق إلى قَضيَّة الحُكم المُتدثِّر بالدِّين ، وهي نُشِرتْ خلال مدة حكمِ الإخوانِ المُسلمينَ في مِصرَ ، وقد أومأتْ إلى قسوةِ أنظمة الحُكمِ الَّتي تتدثَّر بالدِّين؛ لِتصل إلى مآربها .

ولحظت أنه لجأ في عُنْوانات بعضِ قصص مجموعتِه إلى الانزياح الدَّلالي **Deviation** ذلك الذي يعتمد على " خروجُ التَّعبير على السَّائد أو المتعارفِ عليه قياسًا في الاستعمال ، رؤيةً وصياغةً " [22] ويعرفُه بعضهم بأنه "استعمال المبدع للغة مفردات وتراكيب وصُورًا استعمالًا يخرج بها على المعتاد والمألوف ، بحيث يؤدّي ما ينبغيْ له أن يتصفَ به من تفرُّدٍ وإبداعٍ وقُوَّة جذبٍ [23] فالانزياح إذن يدلُّ على خروج الشُّعَراء في كتاباتهم على المألوف أو القياس.

ففي قصَّته المعنونة باسم "**طرح القلب**" ، حدثَ امتشاجٌ في العُنْوان بين الدَّال الحسي وهو قوله "طرح" ، والدَّال المعنوي" القلب". فالدَّالُّ (طرح) هنا قد خرج على السِّياق المتعارف؛ فحينما نقرأ هذا الدَّال – أول وهلةٍ – تهرع إلى أخلادنا ، دَلالة الحصاد وجمع الثِّمار والخَضْرَاوات، ولكنَّ الدال انزاحَ ها هنا عن مدلوله اللغوي الذائع ؛ ليأخذ مدلولًا جديدًا آخر، حيث يطرح القلبُ في قصَّته الحبَّ، بعد أن غُرست بذورُه فيه .

وظهر الانزياح واضحًا في قصَّته الَّتي تعنونت باسم " **سماء ضائعة** " ؛ لأنه مَنَحَ السَّماءَ صفة الضَّياع. وقد انزاحتِ الجملةُ عنْ معناها الحقيقي إلي معني مجازي ؛ لأنَّ الضَياعَ ليس من خِلالِ السَّماءِ المَعْروفةِ العَالقة في ألبابَنا، بل هو من صفات عالمي الكائنات الحيَّة والجَمادات. فالفعل **ضاعَ** لغةً يدورُ في فلك الهلاك والتَّلف. وقد أرادَ الشَّاعرُ أنْ

يَهَبَ السَّماءَ خصلةً جديدةً عليها، توحي بالغرابة والدهشة، وتكسرُ أفقَ التَّوقع لدى الْمُتَلِّقي؛ كي تتولَّد لديه المُتعةُ الَّتي يتغيَّاها، ويتوقُ إلى لُقياها .

وطغى أيضًا هذا الانزياح الاستعاري في قصَّته الَّتي تعنونت باسم" **الصَّبي الَّذِي يأكل المَاءَ**" فقد وضع القاص " الماء" والفعل "يؤكل" في كِفَّة المماثلة ؛ إذ جعل الماءَ طعامًا يؤكل، وهذا الإسناد ولَّد غرابةً ودهشةً في أذهان الْمُتَلِّقين، وجعلهم يُقبلونَ على قراءةِ هذه القصَّة الرَّوْة التي يشي عنوانُها بأنها تحمل قدرًا من الدَّهش والغرابة .

ب. عُنوانات المجموعة تركيبيًّا :

من يطالع عُنْوَانات هذه المجْمُوعَة الْقصَصِيَّة يتضح له أنَّ العَنْونة الاسميَّة _ سواء بالعنوانات المفردة أم المركبة_ قد تفوقت على العنْونةِ الفِعْليَّة بشكل لافتٍ يستوعي النَّظر، فقد وردت في **أربع عشرة قصةً** ، أما الجمل الفعليَّة فم ترد إلا في قِصتهِ المعنونة باسم : " **سأفتحُ البابَ وأراكِ**".

كما أنَّ العنوانات الاسميَّة المركبةُ كانت هي المتفوقَةُ من حيث الكمِّ على (المفردة)، فقد تجلَّتْ العنوانات الاسميَّةُ المركَّبةُ في ثَماني قِصَصٍ وهي: " **أنا وَأنتِ، و ليلة بلا قمر ، والصبي الَّذِي يأكل الماء ، وروح الضباب ، وسماء ضائعة، وبيت جدي ، وقرب البحر، وطرح القلب** ". وورد المركَّبُ الإضافي في أربع قصص منها وهي : " **بيتُ جَدِّي ، روحُ الضَّباب، وقُربُ البحر، وطَرحُ القلب**". أما المركَّبُ الإسناديُّ فقد ورد في قصَّتين هما :" **ليلة بلا قمر**"، **والصَّبي الَّذِي يأكل الماء** ". بينما ورد المركَّبُ العَطفي في قوله: " **أنا وَأنتِ**".ولاح المركَّب الوصفي في قوله :" **سماءٌ ضائعة**".

أمَّا العنوانات المفردةُ فقد هيمنت على ستِ قِصصٍ وهي : " **مرآة ، وخطوبة، والنور، وبالميرو ، ووجه ، وأليونا،** ". هذا فضلاً عن أن الْمُفْرَدات النكراتُ قد غلبت الْمُفْرَدات المعرفة بأنواعها : فالنكرات كقوله: " **وجه ، وخطوبة، ومرآة**". بينما المعرف بأل فقد ورد في قصته "**النور**"، أما المعرف بكونه علمًا فنجده في قصتيه " **أليونا**" و" **بالميرو** " .

ومن الملاحظ أنَّ العنوانات ذات المركب الإضَافي هي الأكثر استثناءً في هذه المجْمُوعَة القصصية ، مما أضفى على النُصُوص قوةً وسيطرةً على هيكليَّة القص ؛ فقد أثقل المضاف إليه دلالة المضاف، مما أعطاه خصوصية التَّعريف والإيضاح الإشاري.

غير أن ما يلفت الانتباه في البنية النحوية لعُنْوَانات هذه المجْمُوعَة ، هو اشتغالها – في بعض الأحايين – على آلية الْحَذْف النَّحْوي ، فكثيرًا ما عَمَدَ القَاصّ إلى بنية حذف المُسند إليه " المبتدأ " في عنوانات قصصه الآتية: " **النور، ووجه، و مرآة ، وخطوبة**" . كما حذف المبتدأ في قصته " **ليلة بلا قمر**" ، فالعنوان مركب اسمي مكون من خبر لمبتدأ محذوف، تقديره (هذه) .

وهذا النَّمَط من الْحَذْف يترك ثغرةً في العُنْوانات تثيرُ أذهانَ الْمُتَلِّقِينَ ، وتحثُّهم على ردمِ الثَّغرة التي سببها الْحَذْف، وهذا النَّقص الدَّلالي الَّذِي يحدث ، من شأنه أن يحقق الوظيفة الاستراتيجية للعنوان ، باستقطاب اهتمام الْمُتَلِّقي وإثارته وإغوائه وإغوائه ؛ ليبحَر في يموم هذه القصص .

4. التَّجْنيس:

يعُدُّ التّجنيس عنصُرًا جوهريًا يمكِّنُ الْمُتَلّقِي من عملية الولوج إلى نصٍ ما، ويهيّئه لتقبل أفق النصّ. وإن كان هذا التّجنيس يفيد عمليّة التّلقي بتحديده استراتيجيّات آليات التّلقي ، وربط هذا النصّ المجنّس بالنُصُوص الأخرى الّتي من نوعه في ذاكرتنا النّصيَّة ، لأننا نتلّقى النصَّ من خلال هذا التّجنيس ، ونعقد معه عقد قراءة ' مثلما بيّن ذلك "**جيرار جنيت**" وإنّ تلّقي أيّ جنس أدبي– قصصيّا كان أو غير قصصي– يتألّف من اتّفاق معقود بين المؤلّف والقارئ، الّذي يرتبط بنوعيّة هذا الجنس على وجه التّحديد". [24]

فالكاتب **أحمد الْخَمِيْسي** اهتم مع الناشر بهذه الجزئيَّة أيما اهتمام ، ووضع المؤشر الجنسي– قِصَص قَصيْرة – لهذه المجْمُوعَة فوق العُنْوان مباشرة ؛ كي يعلم الْمُتَلّقِي – أوّل وهلةٍ –طبيعةَ هذا المُنْجز الإبْدَاعِي ،وأنّهُ عَمَلٌ قصصيٌّ ، وليس روايةً ، أو قصصًا قصيرة جدًّا. فالمؤشرُ الجِنسي إذن هو المحدِّدُ لطبيعة الكتاب، وهو ملحق بالعنوان الرَّئيس ، وليس شيئًا سطحيًا يجوز للكاتب إغفاله وتجاهله.

5. اسم الكاتب :

يُعد اسم الكاتب من بين العناصر المناصية المهمَّة، فمن غير الجائز تجاهله أو مجاوزته؛ لأنه العلامةُ الفارقةُ بين كاتبٍ وآخر، فبه تثبت هُوِيَّة الكتاب لصاحبه، ويرسّخُ مبدأ حقوق المِلكيَّة الفكريَّة . ويؤكد ذلك –دُوْنَ مِراءٍ– أنه أديبٌ متمرِّسٌ مشهور ، ذاعت شهرته وسط الأدباء والكُتّاب والمُتلقينَ ،وأنَّ مقولته الأدبية لا تفتقر إلى تعريف ، فهو قاصٌّ روائيٌّ مُؤْرِخٌ ، وكاتبٌ صِحَافيٌّ متمرس ، له حضورٌ طاغ في المشهد الأدبي العربي والعالمي. كرمه اتحاد الأدباء العرب لدوره الأدبي والثقافي، وكرمه اتحاد الكتاب الروس، ومجلة ديوان العرب، كما منحه اتحاد كتاب روسيا العضوية الشرفية تقديرا لما قدمه للتعريف بالأدبين الروسي والعربي. وقد ظفر بثلة من الجوائز منها :

- حاز جائزة "نبيل طعمة" السورية عن مسرحيته "الجبل" عام **2011** م.
- جائزة ساويرس عن مجموعته القصصية "كنزي" كأفضل مجموعة بين كبار الأدباء لعام **2011** م.
- جائزة ساويرس الثقافية عن مجموعته القصصية " أنا وأنت" كأفضل مجموعة قصصية بين كبار الأدباء عام **2017** م .

ومن أعماله القصصية :

- "الأحلام، الطيور، الكرنفال" مجموعة قصصية . الهيئة المصرية . **1967** م ، مجموعة بالاشتراك مع أحمد هاشم الشريف ومحمود يونس.
- "قطعة ليل" مجموعة قصصية . دار ميريت بالقاهرة . يوليو **2004** م ، وصدرت منه طبعة ثانية عن كتب خان.

- "كنزي" مجموعة قصصية مؤلفة . كتاب اليوم أخبار اليوم . ديسمبر **2010** م. حازت على جائزة ساويرس فرع كبار الكتاب كأفضل مجموعة قصصية لعام **2011**
- "رأس الديك الأحمر" . مجموعة قصصية مؤلفة . كتب خان . القاهرة . ديسمبر . **2012**م.
- "الأجيال الثلاثة" مجموعة قصصية آنا أحمد الخميسى . أحمد الْخَمِيْسِي . عبد الرحمن الْخَمِيْسِي . دار كيان . القاهرة . يناير **2015** م .
- " أنا وأنت " مجموعة قصصية **2015** م دار كيان ، القاهرة .
- " ليل بلا قمر" مختارات قصصية – هيئة الكتاب المصرية– **2018**
- "ورد الجليد" مجموعة – دار مجاز بالقاهرة– **2019** م .

كما أنه ترجم العديد من الكتب ، منها :

- "معجم المصطلحات الأدبية" ، ترجمة عن الروسية عام **1984** م .
- "المسألة اليهودية" للأديب العالمي دوستويفسكي، مجلة أدب ونقد ، العدد رقم 69 . مايو 1991، وأعادت مجلة "زرقاء اليمامة" عام **1996** نشر الترجمة نفسها ، ثم تضمنها كتابه "أوراق روسية".
- "كان بكاؤك في الحلم مريرا" قصص مترجمة عن الروسية . دار المستقبل . **1985** م .
- "قصص وقصائد للأطفال" ترجمة . اتحاد الكتاب العرب دمشق عام **1998** م.
- "نجيب محفوظ في مرايا الاستشراق" ترجمة وإعداد . دار الثقافة **1989**م ، وصدرت منه طبعة ثانية عن المجلس الأعلى للثقافة.

6. الناشـــر:

تموضعَ اسم دار النشر _ التي تولَّت مهامَ طباعة هذه المجْمُوعَة وتنسيقها وإخراجها – أسْفل الغِلافِ الأمامي ، وهي " **دار كيان**" للنَّشر والتَّوزيع . وهذه المعلومات ضرورية وإلزامية في أي إصدار يحترم الشروط القانونية للنشر، ودُونها تنسحب الشرعية القانونية عن الكتاب الَّذِي يفقد الحق في الحضور الشرعي ، بمجرد غياب اسم الجهة الناشرة له.

7. الإهداء:

يشكل الإهداء عَتبةً مهمَّةً من العَتَبات النّصيَّة ، التي توجَّهُ للمتلقين بغية الكشفِ عن مكامن الانفعال في المُنْجَزِ الإبَداعِي. " لما له من وظائف دلالية وتداولية ، يمارس من خلالها الكاتبُ سلطةَ إغواء القارئ وتحفيزه على القراءة , فيوجهُ ويرسُم آفاقَ توقعاتِه للمَعنى الَّذِي سيطالعُه" [25].

وحينما يعمُد المبدعُ إلى صياغةِ هذا الخطاب المهم في مُستهلِ منجزه الإبداعي ، فإنه" يستنجد بمعجمه اللغوي لانتقاء مفرداتٍ أو تراكيبَ بعينها، ثم يقوم بنظمها في تراكيب أطول أو جمل مخصوصة، ثمَّ يختار لها قالبا نصيًّا تظهر فيه، بشكل وهيئة معينة، ثم يقوُم بتوجيه هذا الخطاب إهداءً إلى شخصيَّةٍ ما؛ يكون قدَ كتب نصًّا موازيًا لا يقل أهمية في العناية به بحثًا وتحليلاً عن النّص الأصلي [26].

وخطاب الإهداء ليس له بنية تركيبية أو معمارية ثابتة أو واحدة لا يتجاوزها إلى غيرها، " إنما هو ذو بنية تركيبيَّة منفتحَة، لكنَّها تحكمُها جميعًا عدَّة مكوِّنات، أو "عناصر التَّواصل الأساسيَّة: من مرسل، ومرسل إليه ، وإرسالية ، ومرجع وقناة ، ولغة التشفير ، وفك سننها" [27].

وقد كان أحمد الْخَمِيْسي مُجدِّدًا في إهدائه ، فلم يخص عائلته وَأبناءَه أو أساتيذه وسُجَراءهُ بالإهداء ، مثلما يفعل جُلُّ الأدَبَاءِ والمبدعين . ولكنَّه أثار فُضُول الْمُتَلِّقين ، وجعلهم يقرؤون الإهداء حتَّى نهايته ؛ ليطَّلعوا على هُوِيَّةِ الشَّخص الَّذِي أهدَى إليه هذه المجْمُوعَة الْقَصَصِيَّة. فقد ذكر أنها مُهداة إلى كائن صغير يثبُ في أعماق جَنَانه يمينًا ويسرًا، ومن أعلى إلى أسفل، ويقفُز بين ضُلُوعه، يقتاتُ ذكرياته البعيدة ، وهو في حالة قلقٍ مستمر لا يهدأ أبدا ، وكأنهُ يترقَّب شيئًا ما. وفي نهاية الإهداء اتضح أنه أهداها إلى " **أمل**" . وأمل ها هنا ليست امرأةً أبحر معها في يموم العشق حتى أقضَّت مضجعه، وأمضتْ قلبه ، ولكنَّهُ الأمل الَّذِي يختبئ بين حنايا صدره، ويفجّرُ مكامن إبداعه، وقد وهبه الله جمال الأطفال وحُريةَ الطُّيور، وسخاءَ الملوك .

8. العنوانات الدَّاخليَّة :

إنَّ العنوانات الدَّاخليَّة هي تلك العنوانات المصاحبة للنّصِ، وبوجه التَّحديد في داخل النّص: كعنوانات الفصول، والمباحث ، والأقسام ، والأجزاء للقصص والروايات ، والدواوين الشعرية [28].

ويمكن أنْ ترَد العنوانات الداخليَّة "في الفهرس أو قائمة المواضيع، وهذا مكانها المعتاد، والفهرس يعد عند "جينيت" أداة تذكيرية وتنبيهية في جهاز العنونة [29]. وفي المجْمُوعَة الْقَصَصِيَّة قيد الدراسة وردت عُنْوانات القصص في الفهرس الَّذِي جاء في نهايتها، فنقرأ **خمسة عشر** عُنوانًا تكون كامل المجْمُوعَة.

9. صورة الغِلاف الخلفي للمَجْموعة القصصيَّة " أنا وأنتِ ":

جاء الغِلاف الخارجِيُّ الأخير عتبةً مهمّةً للدُخول إلى المجْمُوعَة الْقَصَصِيَّة. ومن هنا كان موجّهًا أساسيًّا لاقتحام عتبة النصّ. ويدخل في تشكيل خطابه البصري اللّون البني فضلاً عن اللونين **الأصفر والبرتقالي** ، اللذين هيمنا على

صورةِ الغِلاف الأمامي . فَثَمَةَ قرّاء كثُر يحرصون على قراءة ما يرِدُ في الغِلافِ الأخير بوصفِهِ مِرآةً تُلقي الضَّوء على أهمّ ما جاء في هذا المنجز الإبداعي. ومن هنا حرص الكتّاب على اقتطاع أقوى نُصُوْصهم أو نُصُوْص النّقاد المبرِّزينَ الّذين أثنوا على المبدعِ ونَتاجه الأدبي ، ووضعها ديباجة للغِلاف. وهذا ما فعله القاص أحمد الْخَمِيْسي، إذْ نجدُ في أعلى الصّفحة عتبة المؤلّف. وهو ما يُشعرنا بأننا في حضرة القراءة لكاتبٍ مُتمرِّسٍ مبرِّزٍ له شخصيّتُه الأدبيّةُ المميّزة. فهو يتقدّم بقلم خاصّ، جريء، ويقتحم تُخومًا ودَهاليزَ وعرةً بجسارةٍ وجرأة ، دُوْنَ وجَلٍ أو تردُّد .

ومن النُّقاد المبرِّزين الَّذين أورد لهم أحمد الْخَمِيْسي – في الغِلافِ الخلْفي للمجموعة – بعضًا من آرائهم حول شخصيته ونَتاجه الأدبي ، الكاتب الكبير **يُوْسُف إدريس** الَّذي قدَّمه بكلماتٍ رقيقات في عام ألفٍ وتسع مئةٍ وستة وستين ميلاديَّة، وأشاد بنتاجه قائلاً : " **يقدم أحمد الْخَمِيْسي نموذجًا آخر من " القصة الجديدة " . أما عن الكاتب فهنا المشكلة والمعجزة، أحمد يكتب قصة من النوع الجديد ، وكالسيد البدوي بأسنان كاملة . وأكثر بذقن وشارب، ضعوا القصة فيما شئتم من خانات، أنا شخصيًّا أضعها في الخانة الجيدة جدًا، ثم اعلموا أو فلتعلموا أن كاتبها سنه – وقتئذ – ثمانية عشر عامًا ، واحتاروا مثلى، أين تضعونها بعد هذا ... وافو يا أحمد كتبت**" .

وكذلك القاص الشهير المعروف **مُحَمَّد المخزنجي** [30] " **أحمد الْخَمِيْسي كاتب كبير ، ينهض على روح متعففة وثقافة واسعة عميقة ،تنطلق من المحلي إلى العالمي ، ورواية ناورة بأرفع نماذج الأدب الإنساني . تمثل قصصه نماذج عالية لقورات كاتب من كتاب القصة العربية الكبار ، فهو يمنح نماذجه القصصية شمول الرؤية ، التي تمزج – ورهافة ورصانة معًا – بين الإنساني الخاص والوطني العام ، بين التخييل المجنح والواقعية الدافئة** ".

كما أثنى عليه أيضًا الروائي الكبير علاء الديب [31] " **يشتغل أحمد الْخَمِيْسي على جمله وقصصه، معانيه كصائغ يشتغل في الذهب الغالي ، أو كمحارب يدافع عن أرض الوطن. إنه صاحب إدراك مثقف لمعنى ووظيفة الأدب، وصاحب حس جمالي لا يرضى إلا عندما تشف اللغة وتستقر على شاطئ الموسيقى** ".

وأشاد بنتاجه أيضًا الروائي المتمرس فؤاد قنديل [32] " **يجيد القاص المبدع أحمد الْخَمِيْسي باقتدار تشكيل عالمه القصصي ، ويعمل على الفكرة ، واللغة ، والإحساس ، والأحلام ، والوطن ، والبشر ، بأعصابه ورؤاه ، كصانع الفخاريات الكبير لتتحول إلى بلورة مشعة بالجمال** "

وكلمات الثناء والإطراء التي وردت في الغِلاف الخارجي الخلفي للمجموعة، من قبيل تأكيد شهرة القاص وذيوع أعماله الإبْدَاعِية ، وتألقه وَسْط المحافل الأدبيَّة العربيّة والعالميَّة.

الخاتمة :

1. لم يعد المتن النصي وحده هو الذي يستأثر باهتمام المتلقينَ ، ويجذبهم نحوه ، ولكن ثَمَةَ نصوصٌ موازيةٌ تشغلهم وتجعلهم يلتفتون إليها ؛ ليكشفوا النِّقابَ عنها ، ويكتشفوا مضامينها ومدلولاتها .

2. وظف القاص الدكتور أحمد الْخَمِيْسي الكثير من هذه العَتَبات ، بشكل لافتٍ ، واختار لمجموعته القصصية عنوانًا شائقًا ، وقد حقق الوظائف التي أشار إليها **جيرار جينيت** آنفًا، وخاصة **الوظيفة الإغوائية التَّرويجيَّة** .

3. اهتَمَّ القاصُّ بتشكيل عنوانات قِصصِهِ ، فلم تأتِ بطريقةٍ عشوائيَّة اعتباطيَّة ، بل ارتبطت بمتنِ النَّصِّ ارتباطًا وثيقًا ، حتَّى صارَتْ جزءًا رئيسًا لا ينفصم عنه .

4. تفوقت العنونة الاسمية _ سواء بالْعُنْوانات المفردة أم المركبة_ على العنونة الفعلية بشكل لافتٍ ، فقد وردت في **أربع عشرة قصَّة** ، ولم تلح الجمل الفعلية إلا في قصته المعنونة باسم: " **سأفتحُ البابَ وأراكِ** ".

5. تفوقتِ العنوانات الاسمية المركبة كمًّا على" العنوانات المفردة " ؛ فقد تجلَّت الْعَنوانات الاسمية المركبة في **ثماني قصصٍ** ، وقد ورد المركَّبُ الإضافي في **أربع قصص**.

6. اهتَمَّ الكاتبُ بالمُتعالياتِ النَّصيَّة في مَجْمُوْعَته ،ولا سيما الإهداء ،والتَّجنيس ،والعُنْوانات الدَّاخِلِيَّة .

قائمة المصادر والمراجع :

1. أشهبون ، د. عبد المالك (**2009**) م ، عتبات الكتابة في الرواية العربية، ط1 دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا.
2. بشار ، سعيدة (**2014**) م ، قراءة سيميائية للعتبات النَّصيَّة في المجموعة القصصية "الأرض الجريحة" لـ: صورية إبراهيم مروشي.
3. بلال ، عبد الرزاق (**2000**)م . مدخل إلى عتبات النَّص ، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم ،تقديم : إدريس نقوري ، د. ط ، أفريقيا الشرق للطباعة والنشر ، بيروت، لبنان .
4. بلعابد ، عبد الحق (**2008**)م ، (عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص، تقديم: سعيد يقطين، (ط1) ، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف.
5. ثاني ، قدور عبد الله ، سيميائية الصورة " مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم" ، (ط1) ، دار غريب للنشر والتوزيع ، أنساب ،وهران.
6. جيرو، بيير (**1992**)م، علم الإشارة السيميولوجيا ، ترجمة : منذر عياشي ،تقديم : مازن الوعر، دار طلاس ، دمشق .
7. حسين ، د. خالد حسين(**2007**) م ، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النَّصيَّة) ، التكوين للتأليف والترجمة والنشر ، دمشق.
8. حمداوي ، د. جميل (**1997**)م ، التِسميوطيقا و العنونة، م**25** ،ع **3** ، مجلة عالم الفكر، الكويت.
9. حمداوي ، د. جميل (**2016**)م ، شعرية الإهداء ، ط1.
10. حمداوي، لماذا النَّص الموازي (د.ت) ، مجلة ندوة الإليكترونية للشعر المترجم .
11. حمد ، فيصل سوري، العَتَبات النصية في قصة عين لندن لفاتح عبد السلام، مقال بشابكة الانترنت .
12. الْخَمِيْسي ، أحمَد (**2015**) م، المجْمُوعَة القَصَصِيَّة " أنا وَأنتِ" ، دار نشر كيان للنشر والتوزيع ، القاهرة.
13. رضا ، عامر (**2014**)م ، سيمياء العنوان في شعر هدى ميقاتي ، المجلد (**7**) ، العدد(**2**) جامعة ميلة ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات.

14. عبد الوهاب ، شكري (1985)م ، الإضاءة المسرحية ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة.
15. عثمان ، أمين (2014) م، قراءة في عتبات النصّ من خلال مجموعة" مواويل عائد من ضفّة النّار لـ " ميزوني بّناني أنموذجًا" . مقال بشابكة الانترنت.
16. العنواني، معجب (2003)م ، تشكيل المكان و ظلال العَتَبات ، النادي لأدبي ، جدة.
17. عمر، أحمد مختار (1997)م ، اللغة واللون ، (ط2) ، عالم الكتب للنشر والتوزيع ، القاهرة.
18. قطوس ، بسام موسى (2001)م ، سيمياء العنوان ، (ط1) ، وزارة الثقافة عمان ، الأردن.
19. قنبر ، مصطفى أحمد (2020) م ، الإهداء دراسة في خطاب العَتَبات النّصيَّة ، ط 1، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ، برلين، ألمانيا
20. كرستيفا ، جوليا(1997)م، علم النص ، ترجمة : فريد الزاهي، ط2 ،دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، لبنان.
21. ملروك ، عيسى (2015)م، دراسة في ديوان (الحزن ينسى أحيانا) للشاعر إبراهيم موسى النحاس ، مقال بشابكة الانترنت.
22. محمد ، بلوافي ، (1998)م ، قراءة سيميائية في غلاف " شرفات بحر الشمال" ، مقال بشابكة الانترنت، نقلاً عن : العبدلي ، قحطان بدر ، الترويج والإعلان، (ط1)، مؤسسة وهران للنشر والتوزيع .
23. النابي ، محمود فراج (2016) م: أنا وأنتِ لأحمد الْخَمِيْسي /واقع كابوسي و خيال فانتازي مقال بشابكة الانترنت .
24. ويس ، أحمد محمد (2005)م ، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، الطبعة الأولى المؤسسة الجامعية للدراسات والنّشر، بيروت ، لبنان .
25. اليافي ، نعيم (1995) م ، أطياف الوجه الواحد، دراسات نَقْدِيَّة في النظرية والتطبيق، مَنْشُوْرَات اتحاد العرب، دمشق .

المراجع الأجنبية :

_ **Génette Gérard 1972: Palimpsestes, Paris, seuil**
_ **le geune philippe, le pacte autopiographique ,edition du seuil**.

الهوامش :

---

[1] أحمد أبو الفتح عبد الرحمن الخميسي. قاص كاتب صحافي ، من مواليد القاهرة في الثامن والعشرين من شهر يناير عام **1984** م ولد في أسرة متوسطة الحال والده الشاعر المعروف عبد الرحمن الخميسي ووالدته كانت معلمة. حاصل على دكتوراه في الأدب الروسي من جامعة موسكو عام **1992**م .وهو عضو نقابة الصحافيين واتحاد كتاب مصر. وكرمه اتحاد الأدباء العرب لدوره الأدبي والثقافي، وكرمه اتحاد الكتاب الروس، ومجلة ديوان العرب، كما منحه اتحاد كتاب روسيا العضوية الشرفية تقديرًا لما قدمه للتعريف بالأدبين الروسي والعربي. وحصل على العديد من الجوائز ، منها :حاز جائزة "نبيل طعمة" السورية عن مسرحيته "الجبل" عام **2011**م. وجائزة ساويرس عن مجموعته القصصية "كنزي" كأفضل مجموعة بين كبار الأدباء لعام **2011**م. جائزة ساويرس الثقافية عن مجموعته القصصية " أنا وأنت" كأفضل مجموعة قصصية بين كبار الأدباء عام **2017** م

[2] حمداوي، لماذا النّص المواري ، مجلة نوة الإليكترونية للشعر المترجم ، فوة 32 .

[3] جوليا كرستيفا، علم النص ، ترجمة : فريد الزاهي، ط2 ، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، لبنان ، **1997** م ، ص**83** .

[4] بيير جيرو ، علم الإشارة السيميولوجيا ، ترجمة : منذر عياشي ،تقديم : مازن الوعر، دار طلاس ، دمشق، **1992**م ، ص **9**.

[5] معجب العدواني ، تشكيل المكان و ظلال العَتَبات ، النادي الأدبي ، جدة، **2003**م ، ص **7** .

[6] عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص، تقديم: سعيد يقطين، ط1 ، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف. **2008**م ، ص19.

[7] **Génette Gérard 1972: Palimpsestes, Paris, seuil p 9**

[8] **le geune philippe, le pacte autopiographique ,edition du seuil, p45**

[9] د. عبد المالك أشهبون ، عتبات الكتابة في الرواية العربية، ط1 ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا، **2009**م ص**47** : **48**.

[10] عبد الرزاق بلال ، مدخل إلى عتبات النّص ، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم ،تقديم : إدريس نقوري ، د. ط ، أفريقيا الشرق للطباعة والنشر ، **2000**م ، بيروت ، لبنان ، ص 21 .

[11] محمد ، بلوافي ، قراءة سيميائية في غلاف " شرفات بحر الشمال" ، مقال بشابكة الانترنت، نقلاً عن : العبدلي قحطان بدر ، الترويج والإعلان، ط1 ، مؤسسة وهران للنشر والتوزيع ، **1998**م ، فقرة 8.

[12] أحمد مختار عمر، اللغة واللون ، ط2 ، عالم الكتب للنشر والتوزيع ، القاهرة، **1997**م ، **ص 184**.

[13] شكري عبد الوهاب ، الإضاءة المسرحية ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة، **1985** م ، **ص 76**.

[14] أحمد مختار عمر، اللغة واللون ، **ص 163**.

[15] قدور عبد الله **ثاني** ، سيميائية الصورة " مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم" ، ط1 ، دار غريب للنشر والتوزيع ، أنساب ،وهران، 2005 م ، **ص**143.

[16] عامر رضا، سيمياء العنوان في شعر هدى ميقاتي ، المجلد 7 ، العدد2 جامعة ميلة ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، **2014**م، **ص89**.

[17] د. خالد حسين ، في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النّصيَّة ، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، **2007**م، ص **6**.

[18] بسام موسى قطوس ، سيمياء العنوان ، ط1 ، وزارة الثقافة عمان ، الأردن، **2001**م، **ص 90**.

[19] عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص ، ص 50، 87، 85 .

[20] فيصل سوري حمد ،العَتَبات النصية في قصة عين لندن لفاتح عبد السلام، مقال بشابكة الانترنت، فقرة **4**.

[21] محمود فواز النابي ، أنا وأنتِ لأحمد الْخَمِيْسي "واقع كابوسي و خيال فانتازي "، مقال بشابكة الانترنت، 2016 م ، فقرة6.

[22] نعيم اليافي، أطياف الوجه الواحد، دراسات نَقْدِيَّة في النظرية والتطبيق، مَنْشُوْرَات اتحاد العرب، دمشق، **1995**م ، ص **92**.

[23] أحمد محمد ويس ، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، الطبعة الأولى المؤسسة الجامعية للدراسات والنّشر، بيروت ، لبنان **2005** م ، ص **7**.

[24] أمين عثمان ، قراءة في عتبات النصّ من خلال مجموعة" مواويل عائد من ضفّة النّار لـ " ميزوني بّناني أنموذجًا" . مقال بشابكة الانترنت، 2014 م ، فقرة 9.

[25] عيسى **ماروك**، دراسة في ديوان الحزن ينسى أحيانا للشاعر إبراهيم موسى النحاس ، مقال بشابكة الانترنت**2015**م.

[26] مصطفى أحمد **قنبر**، الإهداء دراسة في خطاب العَتَبات النَّصيَّة ، ط 1، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ، برلين، ألمانيا، **2020** م ، ص**6**

[27] د. جميل حمداوي ، شعرية الإهداء ، ط1 ، **2016** م ، ص**14**

[28] عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص، ص 125:124 .

[29] المرجع نفسه ، ص126.

[30] الدكتور **محمد المخزنجي** : أديب مصري متمرس ، ولد في المنصورة عام **1949** م ، ودرس الطب في جامعتها، ثم حصل على درجة الاختصاص العالي في الطب النفسي وعلى دبلوم إضافي في «الطب البديل» من أوكرانيا. هجر الممارسة الطبية وعمل محررًا علميا لمجلة العربي الكويتية، ثم مستشارًا لتحريرها في القاهرة. عمل في عدة صحف مصرية وهي الدستور والشروق والمصري اليوم. وهو إضافة لكونه أديبًا موهوبًا له سبعة كتب قصصية ورواية ، وكتابان في الأدب البيئي للأطفال، كتاب إليكتروني في أدب الرحلات. حاز جائزة أفضل كتاب قصصي صدر في مصر عام 1992م ،وجائزة ساويرس لكبار الكتاب في القصة عام 2005 م.

[31] **علاء الدين حب الله الديب** :أديب روائي مصري معاصر. ألف عددًا من الروايات ، ومنها :زهرة الليمون،1987م وأطفال بلا دموع، 1989م ، وقمر على المستنقع، 1993م ،وعيون البنفسج، 1999م ، وأيام وردية 2002 م .

[32] **فؤاد قنديل** : روائى مصري ولد في مصر الجديدة بالقاهرة لأسرة تنتمى إلى قرية كفرسندنهور _ مدينة بنها .كتب ست عشرة رواية، وعشر مجموعات قصصية،وعشر دراسات وتراجم ، وأربع روايات ، ومجموعة قصصية للطفل.

ضمائر السرد وتعدّد الأصوات الشعرية
... ديوان :خطوات أنثى للشاعرة ردينة الفيلالي أنموذجًا.

إعداد

دكتور / هاشم موسى أرحومة عوض

رئيس قسم اللغة العربية – جامعة طبرق – كلية الآداب

العدد الثالث عشر – يوليو 2023 م

الملخص

يعالج هذا البحث الموسوم بـ [ضمائر السرد وتعدّد الأصوات الشعرية ... ديوان: خطوات أنثى للشاعرة ردينة الفيلالي أنموذجًا] أشكال السرد ومستوياته المتعددة عن طريق تعددية الضمائر التي ينبني من خلالها الخطاب السردي، بوصفه مكونًا بنائيًا في قصائد الديوان ذي الصبغة الذاتية لصرخة أنثى، تحاول البوح بمكنونات الذات ورغبتها في كسر تابوه المسكوت عنه والمحظور / الحب والعاطفة.

ويهدف هذا البحث إلى إبراز دور الضمائر في تشكيل البنية السردية للديوان، والتي انشغل النص الشعري بحضورها، مما حقق مساحات سردية كبيرة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالذات الساردة / الشاعرة وتلتحم بها، وفقا لمنهجية تستفيد من مناهج السردالحداثى كافة.

وتأتي أهمية هذا البحث من كونه يسعى إلى قراءة معطيات الضمائر ومستوياتها، وما نجم عنها من تعددية صوتية تخالف ما كان متعارفًا عليه من أحادية، بما يشير إلى المنزع السردي المهمين على الخطاب الشعرى، وذلك في تهميد يتضمن: التعريف بالشاعرة (ردينة الفيلالي) وديوانها، والمقصود بتعدد الأصوات أو البوليفونية، وبيان تضاييف العلاقة بين السرد والشعر.

وقد تلى التمهيد ثلاثة أبعادأو محاور رئيسة، اختص الأول منها بدراسة السرد عبر ضمير المتكلم، وعُنى الثاني بدراسة السرد عبر ضمير الغائب، فيما اهتم الثالث بدراسة السرد عبر ضمير المخاطب.

وقد تلى هذه الأبعاد خاتمة بأهم النتائج من أهمها : أن الخطاب الشعري في الديوان وثيق الصلة بالسرد في الخطاب الشعري المعاصر، وتبيّن أنّ الديوان يعدّ أنموذجًا لتماوج ضمائر السرد وتماهيها وحضورها بشكل مكثف.

- **الكلمات المفتاحية:** ضمائر السرد – الأصوات الشعرية – خطوات أنثى – ردينة الفيلالي – المتكلم – الغائب – المخاطب

Abstract

This research, tagged with [Narrative Pronouns, The Beginnings of Poetry ... Diwan: Female Steps by the Poet Rudeina Filali as a Model] deals with the forms of narration and its multiple levels through the multiplicity of pronouns that derive from its narrative gap, constructively dimensionally in the poems of the Diwan of a character The subjectivity of a female cry, trying to reveal the hidden secrets of the self and its desire to break the taboo of unspoken and forbidden love and passion.

This research aims to highlight the role of pronouns in the narrative infrastructure of the Diwan, and witness the establishment of the poetic text with its presence, which led to obtaining large schemes for connection and knowledge of the narrator / poetess and sticking to it, according to a methodology that takes advantage of all modernist narration approaches

.The importance of this research comes from the fact that it seeks to read the data of pronouns and their levels, and the resulting phonetic pluralism that contradicts what was commonly known as monosyllables, which indicates the important narrative approach to poetic discourse, in a subtraction that includes: introducing the poet (Rudaina Al-Filani) and her collection, What is meant by polyphony or polyphony, is the explanation of the relationship between narration and poetry.

he introduction was followed by three dimensions or main axes, the first of which concerned the study of narration through the first person, the second concerned the study of narration through the third person, while the third concerned the study of narration through the second person.

These dimensions were followed by a conclusion with the most important results, the most important of which are: that the poetic discourse in the Diwan is closely related to the narration of contemporary poetic discourse, and it was found that the Diwan is a model for the undulating pronouns of narration, their identity and their intense presence.

•Keywords: narration pronouns - poetic voices - female steps - Rudayna al-Filali - the speaker - the absent - the addressee.

المقدمة :

إنّ الساحة الأدبية الليبية قد شهدت – ولا تزال – تطوراًكبيرًا على المستويات الإبداعية كافة، ولاسيما في السرد الحكائي، الذي تموضع في الثقافة العربية بصفة عامة، مصحوبًا بالمقولات الخاصة به، تزامنًا مع مناهج النقد الحديثة، التي أخذت على عاتقها دراسة الأدب العربي :قديمه وحديثه، دراسة تطبيقية سردية، تعكس الامتزاج بين هذا الأدب والدراسات والمناهج النقدية الحديثة، باعتبار أنّ هذا الأدب هو الخطاب الأصيل في المجالات السردية الحديثة.

ويعدُّ المنتوج / الخطاب الشعري الليبي الحديث أحدى الثيمات الأدبية التي شهدت انفتاحًا على التيارات التجديدية الحديثة بفعل عاملي: التأثير والتأثر (1)، وهو ما ألقى بظلاله على ما لحقه من تطور في الشكل والمضمون، انسجامًا مع القيم المعرفية الجديدة، لتنداح (الأنا) الشاعرة في المجتمع، وتتفاعل مع قضاياه، وبخاصة بعد التحولات السريعة والمتلاحقة التي شهدتها الساحة الليبية، والتي ألقت بحمولاتها على الخطاب الشعري المعاصر، فانتهج مبدعوه طرائق جديدة كسروا من خلالها أفق التوقع، وعبروا بإبداعهم الطريقة التقليدية النمطية؛ للتعبير عن الواقع المعاش، والارتباط بالحياة الجديدة، من خلال تصوير الواقع الإنسانيالمأزوم، سواء أكان محليّا أم ذاتيًا أم عالميًا، دون أن يفقدوا هويتهم العربية؛ إيمانًا بأن القصيدة الحديثة هي امتداد للقصيدة الموروثة، وانبثاقًا عن جوهرها وتطويرًا لها بشكل أو بآخر [2]؛ استجابة لحركة التجديد في الشعر العربي المعاصر، وصولًا إلى الشعر الحر وقصيدة النثر. ومن هنا، وجد الشعراء الليبيون أنّ الطريق قد ((عُبد في اتجاه التجريب الشعري، بعد أن أصبحت الانتفاضة على الموروث القديم قد بدأت تحقق نجاحتها، وتجد مَنْ يتقبلها ويباركها في الوطن العربي كلّه، من خلال الأعمال الشعرية لنازك الملائكة، وبدر شاكر السيّاب، وعبد الوهاب البياتي، وصلاح عبد الصبور وغيرهم من الشعراء الذين حملوا بعنف لواء التجديد الشعري)). [3]

ولم يكن المنتوج الشعري النسوي/ النسائي الليبي بمنأى عن حركة التطور والتجريب الشعري هذه، احتفاءً بالمنجز الشعري، بوضع التجربة السردية في حالة من حالات الاستنفار الأنثوي النابع من مكامن الذات، والحياة المتحلقة حول الذات، وما يدور حولها من قضايا وهموم خاصة وعامة، في محاولة لكسر سلطة الذكورية [4]، وكسر واقع التهميش، واستعادة هويتها الإبداعية، من خلال محاور عالمها السردي، وإثباتًا لمقدرتها في إنتاج ((كتابة أنثوية تنهل سماتها من تلك الهوية، تكون المرأة مركزها، فيتشكل العالم من منظورها، وذلك باختيار لغة خاصة تعتمدها في تمثيل نفسها وعالمها)) [5] الصادر عن رؤى سردية لدى شاعرات معاصرات اجتهدن في إرسائها، والتمكين لها، وإعلائها في البيئة الشعرية الحافلة بالتجارب الطامحة إلى التميز والخصوصية، وهو ما كشف عنه السرد النسوي، الذى كشف عن الحضور القوي للهواجس الأنثوية، والرغبة في كسر تابوهات المسكوت عنه، وتجاوز أدوار التهميش والإقصاء التي فرضتها المفردات السلطوية الذكورية الاجتماعية، والأخلاقية، والثقافية، والسياسية، [6] والتي ترسخت

وتجذرت في المخيال الأدبي، والذي تأسس في المخيال الاجتماعي، بقصر دور المرأة / الأنثى في الجنس، والمتعة، واللذة. [7]

ومن هذا المنطق، فإنّ البحث الحالي يقع في مجال العلاقة بين السرد والشعر النسوي، وامتدادًا للدراسات التطبيقية التي تحاول الاستفادة من السرد الحداثي في التعامل مع أحد الأعمال الشعرية النسوية الحديثة، ممثلًا في ديوان (خطوات أنثى) للشاعرة الليبية (ردينة الفيلالي)، من خلال دراسة تمظهرات ضمائر السرد وتعدد الأصوات فيه، بطريقة تجمع بين حداثة المنهج، و خصوصية العمل، والذي يغلب عليه طابع البوح العاطفي، والرغبة في الخروج من شرنقة القيود، بصرخات أنثوية كسرت الشاعرة من خلالها تابوهات المسكوت عنه / الحب والعواطف وكأنّها ((أنثى يلبسها رجل، أو رجل تلبسه أنثى، وكم هي متصالحة في استخدام الضمائر دون الالتفات لذكوريتها من أنثويتها، وتقول كلماتها وتمضي لا تعبأ بشيءٍ)) [8] وكأنّها تشاكس العتمة وضبابية الواقع وجملة المحظورات، بطريقة تضع المتلقي وجهًا لوجه أمام واقع أنثوي، يؤطره إطار مكاني وزماني في قالب فني شعري، الذكوري الانغلاقي، ومحاولة إعادة تشكيل واقعها بلغة سردية تقارب الحياة الواقعية؛ يبرز جانبًا تحتفي به الشاعرة وتتكئ عليه في متون خطابها الشعري، وفي تشكيل محاور عالمها السردي فيه، وهو بوح الذات، والحضور القوي لهواجسها الأنثوية، من خلال ما ((تعبر عنه من تجارب ذاتية، وعاطفة خاصة توجد في نصها السردي بإلحاح شديد، أو ربما في إثبات ذاتها لغة، وشكلا، ومضمونًا .... وهو ما تحاول تحقيقه في تأصيل عالم سردي نابع من مخزونها الثقافي والاجتماعي على المستويين الخاص والعام، ومن تجربتها الذاتية الخاصة المتحاورة مع بوحها الذاتي وهواجسها الأنثوية المستمدة من واقعها الخاص)) [9].

الدراسات السابقة على سبيل الذكر ؛أحمد الصغير (تعدد الأصوات في ديوان "هكذا تكلم الكركدن " للشاعر رفعت سلام) ، تغريد حسن جاد (القصائد البوليفونية في ديوان " مرايا المتوسط "ليوسف نوفل " دراسة تحليلية ") ، جميل الحمداوي (الرواية البوليفونية أو المتعددة الأصوات) ، سهير محمد حسانين (تداخل الأصوات الساردة ومفارقها بين واحة الغروب وأنا الملك جنت ،لبهاء طاهر)

الأسباب :

1- إنّ شعر (ردينة الفيلالي) لم يلِق عناية خاصة لدى الدارسين والباحثين، رغم احتوائه على ثيمات سردية وفنية تستحق الدراسة والتحليل.

2- الرغبة الشخصية في الغوص في مكنون المنتج الشعري النسوي الليبي المعاصر؛ للكشف عن خصائصه المتفردة وطابعه الخاص، النابع من السرد والشهرزادية المعروفة عن المرأة.

الأهداف:

1- تتبع أنواع الضمائر في الديوان، وتشكيلاته الموجودة فيه.
2- التوصل إلى فهم الدور الذي تؤديه ضمائر السرد في بنية الديوان.
3- الكشف عن أشكال الضمائر ومستوياتها، التي اتكأت عليها الشاعرة عن طريق تعددية الضمائر في الخطاب السردي في الديوان.

الإشكالية:

تكمن مشكلة البحث في إثارة تساؤل مؤداه: إلى أي مدى أسهمت ضمائر السرد في تعدد الأصوات الشعرية ودورها الفاعل في خلق مساحات سردية، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالسارد / الشاعرة، تمنح لقصائد الديوان قدرًا من الدرامية الملتحمة بالذات الشاعرة؟

المنهج:

لم يتبن هذا البحث إجراءات منهج بعينه، بل أفاد من إنجازات مناهج دراسة السرد، وبشكل خاص من الدراسات البنيوية الشكلية حول السرد، التي بدأت جذورها لدى الشكلانيين الروس، ثم أتت أكلها وتبلورت نظرية متكاملة على يدّ البنيويين على اختلاف اتجاهاتهم، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ ((النص الأدبي لا يكفي لفهمه وتذوقه وسبر أغواره منهج نقدي واحد، بل لابد من الاستعانة، عند مواجهته، بكل ما من شأنه أن يقرّبنا منه، ويكشف لنا أسراره)) [10].

خطة البحث:

لقد اقتضت طبيعة البحث ومنهجيته تقسيمه إلى:

- **المقدمة:** وتضمنت التعريف بموضوع البحث، وأسباب اختياره، وأهدافه، وإشكالياته، ومنهجيته، والخطة التي سار عليها.
- **التمهيد:** ويشتمل على:

أولًا: التعريف بالشاعرة (ردينة الفيلالي) وديوانها.

ثانيًا: تعدد الأصوات / البوليفونية.

- تضايف العلاقة بين السرد والشعر.

المحور الأول: السرد بضمير المتكلم.

المحور الثاني: السرد بضمير الغائب.

المحور الثالث: السرد بضمير المخاطب.

الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج التي أمكن التوصل إليها.

- **الهوامش والإحالات.**
- **المصادر والمراجع** التي اعتمد البحث عليها.

التمهيد:

أولًا: التعريف بالشاعرة (ردينة الفيلالى) وديوانها:

أ- **التعريف بالشاعرة (ردينة الفيلالى):**

هي: ردينة مصطفى الفيلالي، شاعرة ليبية من مواليد طرابلس الغرب سنة (1981)،ووالدها هو السياسي والدبلوماسي الليبي (مصطفى الفيلالي). وأما والدتها، فهي (لمعان أحمد بن بيه) كريمة الشيخ (أحمد بن بيه) أحد الرموز الثقافية في طرابلس.

حصلت (ردينة) إجازة في الأدب الإنجليزي، وبكالوريوس في العلوم السياسية.

وقد برزت (ردينة) على الساحة الشعرية المعاصرة بقصائدها الغنائية الرومانسية، التي يغلب عليها طابع البوح العاطفي، والرغبة في كسر تابوهات المسكوت عنه، حيث شّكلت صرخاتها الأنثوية إحدى ثيمات القصيدة الرومانسية الأنثوية، التي شهدت تطورًا في الشكل والمضمون [11].

وقد أسست (ردينة الفيلالي) لنفسها عوالم خاصة في شعرها، كسرت فيها طوق العذرية اللغوية، فجاءت قصائدها نفحة من نفحات (نزار قباني) وتمثّل ذلك في ((نفس شعري مغاير له مفرداته وخصوصياته، فهي حاكت القصيدة بنغمة، وضبطتها بقواف وجدانية وزينتها بمشهديات رنانة؛ لتكون فرصة نادرة في سجل القصيدة الحديثة)). [12]

ب- **التعريف بالديوان:**

يقع ديوان (خطوات أنثى)، موضع البحث، في نحو (48)ثمانية وأربعينَ ورقة، وتضمن خمسَة عشر قصيدة (15) غارقة في الرومانسية المفعمة بصرخات أنثوية، والتي جاءت في دفقة شاعرية تختزل واقعًا أنثويًّا، تحاول فيه الشاعرة أن تصنع توزنًا وجوديًا في حركية الحياة، عبر تمرير أنساق اعترافية ارتسمت معالمها في الحضور الأنثوي من خلال الصوت.

ومن ثمّ، فإنّ القارئ لا يجد صعوبة في التعرف إلى العالم الذي كوّن تجربة (ردينة الفيلالي) الشعرية، بشكل يحيل إلى قصدية اختيار عنوانات القصائد نحو [زمن الحب –أنا والمطر – خطوات الأصابع – اعترافات متيم – شقاوة الفتيات – أحبك ولكن – بين ذراعيك – بطاقتي الشخصية ... وغيرها]، والتي تحمل شحنات ودفقات أنثوية تحفر في تضاريس الواقع، وتنبش في مفصلية الحياة، بمعايشة نفسية انعكست على

عوالم الديوان بما فيه من جرأة لغوية تمس تابوهات الحياة، في انفتاح لا نهائي يتعدى محدودية الزمان والمكان المرتهنين بالواقع، بحيث ((لا يتوقف الخيال حتى يبتلع كلَّ شيء)). [13]

وقد شكّل عنوان الديوان (خطوات أنثى) عتبة نصيّة موازية، استطاع القارئ من خلالهالولوج إلى عوالم الديوان؛ بوصف العنوان أداة تواصل بينه وبين الشاعرة من جهة، ويمنح الديوان كينونته وهويته التي تخرجِه من فضاء المجهول إلى فضاء المعلوم من جهة أخرى، فيمارس العنوان دافعية وهيمنة تلقى بجاذبيتها على القارئ، ويمارس عليه فعل القراءة، عبر تزويقات جمالية وإغرائية، تعدُّ وكأنها شرك مفخخ لاصطياد القارئ؛ للدخول إلى بهو النص، على حدِّ تعبير (كريفل)[14]، وما يصاحب ذلك من تساؤلات تلقى بحمولاتها الدلالية وتمارس غوايتها على القارئ، فتسهم في إضاءة المناطق المعتمة في الديوان واستنطاق دلالاته.

ولعلَّ هذه الأمور كانت موجودة في مخيلة (ردينة الفيلالي) عند البناء التخطيطي لديوانها، بداية من اختيار عنونته الرئيسة (خطوات أنثى) بصيغة شعريَّة، ومرورًا بالعنونة الصغرى للقصائد عن قصدية، إدراكًا منها لطاقة هاتين العنونتين اللامحدودة على إحداث تفاعل مزدوج قائم على تبادل التأثيرات بين العنونتين والمتن الشعري.

وقد جاءت العنونة الرئيسة (خطوات أنثى) نكرة مؤنثة توالدية؛ لتصور الشاعرة من خلالها حالة المعاناة الأنثوية والطريق الطويل الذي لابد أن تقطعه في (خطوات) وليس خطوة، بكّل ما يحمله العنوان من فضفاضية وفضائية لا محدودة، ألقت بتنكيرها ظلالًا غنية بمعاني الشمول والإطلاق[15]، وهو ما يسمح بتَسربل التساؤلات القرائية عن الهدف من التنكير، بما يضفى هالة وإحساسًا عميقًا بالعموم وعدم التحديد، بما ينفتح معه النص الشعري على دلالات عدة تكسر أفق التوقع الذي يختلف من قارئ لآخر، فتحتشد رمزية العنونة الرئيسة بـ (خطوات) تتجاوز حدود الجمع إلى مرموزات:ثقافية، واجتماعيه، وسياسية، وأخلاقية، ودينية لابد أن تمرّ بها أي (أنثى)، وأثارتها الشاعرة عبر استنطاق عنونة الديوان الكبرى أو الرئيسة، والتي تمثّل تشويقًا بانوراميًا لمضمون المتن الشعري في قصائد الديوان، والذي انعكست عليه دلالة العنونة الرئيسة والتي تمسك بتلابيب العنونة الصغرى/ عنونة القصائد، في دلالة تبعية وترابطية مقصودة، تشكّل المفتاح الإجرائي الأوّل، الذي يمكّن القارئ من الولوج إلى دهاليز الديوان ويكشف أسراره.

وعلى الرغم من غياب العنونة الرئيسة عن العنونة الفرعية لقصائد الديوان، فإنّ ثمة علائقية بين العنونتين، ناجمة عن الحضور الضمني للعنونة الرئيسة في العناوين الفرعية، بوصفها معادلًا موازيًا لعنونة النصوص الشعرية في المتن، استمرارًا في تعرية الواقع، وتحطيمًا للقيود الاجتماعية واللغوية، عبر فضّ بكارة اللغة وعذريتها، من خلال المراوغة والمخاتلة، والإسقاط الهجائي على الواقع المأزوم الذي لا تزال تعيشه الأنثى، وإن كانت الشاعرة قد بخلت بمعلومات كافية عن العنونة الرئيسة / الكبرى؛ لحسم المقصود من وراء دلالة استخدامها، وهذه سمة العنوان الناجح ((إذ عليه أن يخبر، وأن يبقى محدود (الإخبار في الوقت نفسه)) [16].

وكما نجحت (ردينة) في الربط بين العنونتين، نجحت أيضًا في الربط بين الإهداء، الذي يمثّل هو الآخر عتبة نصيّة موازية، الذي تصدر الديوان، وبين كلّ نصٍّ من نصوصه، وارتباط ذلك بمضمونها؛ استلهامًا من خيوط تربط النصوص الشعرية بالإهداء المتصدر، والذي جاء جامعًا بين الوفاء والألم، في دفقة شعرية قصدية اختيار المهدى إليهم [17]، بشكل يمنحهم مساحة حضورية عبر البوح الأول من قِبل الشاعرة.

وتأتي جملة الإهداء في (خطوات أنثى) لتخفف من معاناة الشاعرة، المتجسدة في الألم النفسي الذاتي/ اليتم، وفي الواقع المأزوم، من خلال الاختيار القصدي لكلمات الإهداء المنبثقة من الذاتي والجمعي ((إلى الملكين اللذين اصطفاهماالله برحمته.. والدي ووالدتي. إخوتي، وأختي الحبيبة، رفاقي في رحلة اليتم، إلى كلِّ مَنْ يقرأ شعري ويجد في همساته أهازيج تداعب الرّوح، وصرخات تنضج بها الجروح".. ردينة)) [18].

لقد قذفت الشاعرة بهذا الإهداء؛ لتحيل القارئ إلى مجموعة من التساؤلات حول ماهية المُهدى إليهم المعلومين (والدي ووالدتي، إخوتي، وأختي الحبيبة) والمجهولين الجمعيين (إلى كلّ مّنْ يقرأ شعري)، والدور الذي لعبوه في حياة الشاعرة، ممّا يدفع القارئ إلى محاولة التوغل في الديوان؛لاستكناه مضمونه، بوصف الإهداء بوابة إيحائية ذات حمولات مشحونة ومكثفة، تسهم في إقامة جِسر تواصلي بين الشاعرة و القارئ، ممّا يمنحه استعدادًا للتوغل في فعل قراءة الديوان، عبر المصاحبات اللفظية التي سُطر بها الإهداء، وكأنّ المُهدي إليهم الحقيقيون (الأب – الأم – الإخوة) والرمزيون (كلّ مَنْ يقرأ شعري) هم المعنيون وحدهم بما تريد الشاعرة البوح به، وهو ما جعلها تُذَيّلُ الإهداء بتوقيعها.

- **ثانيًا: المقصود بتعدد الأصوات / البوليفونية:**

تقترن البوليفونية(polyphony)، على الصعيد الأدبي بميخائيل باختين (Bakhtine) وشارلي بالي(Charles Bally) [19]، والتي يقصد بها، كما يرى باختين، تحاور وتفاعل جهات عدة في النص، والتي ((جرى وضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقى)).[20] ولا ينتمي هذا المصطلح إلى حقل المصطلحات الأدبية، وإنّما هو مجلوب من الحقول الموسيقية؛ للإحالة إلى الحوارية الصريحة أو المضمرة في النصوص الأدبية القائمة، في الغالب، على وجهات نظر مختلفة، تنطق بها أصوات عدة. [21]

ومن ثمَّ، فإنّ البوليفونية تحيل إلى قراءات حوارية تتعدّد بتعدد الأصوات التي يتلبسها المؤلف بواسطة القناع الصوتي السردي، الذي يِروِى المحكي أو القصة. [22]

ويعدُّ تعدّد الأصوات تقنية مسرحيَّة استعيرت في الخطاب الشعري بهدف تجسيد البُعد الدرامي للرؤية الشعرية الحديثة، عبر الأشخاص المتصارعة والمتحاورة [23]، غير أنهّا في القصيدة تظهر بضمير المتكلم الشاعر نفسه. أما في المسرحية، فتظهر بضمير ال (هو). [24]

هذه التداخلية والحركية في انبناء النص الشعري، تؤكد قدرته على الاستيعاب والتجاذبية بينه وبين باقي الفنون الأخرى.

وتأتي أهمية تقنية تعدد الأصوات في كونها تخلق عالمًا رحبًا من تعدد الرؤى والتوجهات الرؤيوية داخل الخطاب الشعري، ممّا يتيح إمكانيات أكبر لخلق حالة رؤيوية ووجهات نظر بأحد الضمائر السردية، تنعتق فيه القصيدة من هيمنة الصوت الأحادي إلى تناوب الحكي بتعددية صوتية تزيد من ثرائها، عبر تفاعلية بوليفونية أساسها الشخصيات المتحاورة. [25]

تضاييف العلاقة بين السرد والشعر:

ثمة علاقة تفاعلية تواصلية بين السرد و الشعر، فقد ارتأى الشعراء في السرد وسيلة للإفصاح الوجودي لتجاربهم الشعرية في إطار سردي محكي؛ إيمانًا بالتماس مع الفنون السردية القصصية، عبر الانفتاح على هذه الأشكال التعبيرية النثرية؛ استجابة لطبيعة الحياة المأزومة والمملوءة بالتناقضات والإشكاليات، والتي عبّر عنها الشعر الحديث في بنية لسانية متنوعة ومستمدة من البنية السردية القائمة على الحكي والحوار، وبخاصة في القصة والرواية، ممّا أحدث تهجينًا بين الأنواع الأدبية وتلقيحًا بينها (26)، ممّا منح القصيدة الحديثة إمكانية التخصيب، عبر تحطيم الفواصل بين ما هو شعري وما هو سردي بمفهومه الحكائي الذي يمكن أن نعّول عليه في ((وصف النص الشعري بأنّه نصّ سردي أو غير سردي، على اعتبار أنّ عناصر الحكاية هي التي تقوم بتوجيه الخطاب من الناحية الفنية؛ ليقدم رؤيته السردية)). [27]

وهذا ليس معناه أن تتماهي الفروق الجوهرية بين الشعر وبين ما هو نثري سردي / القصة والرواية، وإنّما معناه توظيف السرد شعريًا بعيدًا عن جنسه الأدبي؛[28]لتأسيس بنية نصية جديدة وبخاصة في القصيدة الحديثة، التي تتكئ على الخروج والجدل مع ما كان مألوفًا وتقليديًّا؛ لخلق جدل دائم بين الذات، والشاعر، والعالم، موسومًا باختراقات التجديد فـ ((عندما تذهب قصيدة إلى النثر، فإنها تستثمر طاقات النثر وأهمها السرد، الذي أصبح آلية جمالية مناسبة لحوار الذات مع نفسها ومع العالم، فالحكي، والوصف، وتعدّد الشخصيات، والرواة يخلق شكلًا مفتوحًا عميقًا يتأبىّ على الثبات والسكون، يخلق نصًا تراكميًّا يوازي تشظي الذات وانكساراتها)). [29] وهذا يعني أنّ التمازج بين السردنةوالشعرنة قائم في القصيدة الحديثة، بوصفها فضاءً واسعًا تمخّض عنها لغة لها أجروميتها الخاصة والغرائبية، عبر التعامل المختلف مع اللغة النمطية؛ للانطلاق إلى مسار رؤيوي مغاير، وأفق تعبيري جديد لا يتأسس إلاّ خارج المألوف [30]، ممَّا يستوجب توظيف تقنيات جديدة ولغة خاصة لها هويتها ومرتكزاتها من خلال ((اختراقها للحدود الفاصلة بين الشعر والنثر، أي سعيها لتوظيف أنواع غير شعرية في ثنيات النص الشعري.هذا ما سيؤول حداثة القصيدة، في بعض مقترحاتها البعيدة، إلى تفعيل حركية النص بجعله يحفل بمستويات تعبيرية آتية من غير ما كان يُعتبر شعرًا محضًا)) [31]، وهو ما أسس لها الاختلاف والمغايرة.

ولعلّ سرد الأصوات المتعددة يعدّ سمة من سمات التعالق بين الشعر و السرد، حيث غدت بنية القصيدة السردية، التي تعدّ من منتجات ما بعد الحداثة، تبحث عن الدلالة والتأويل في السرد، وذلك بواسطة نفي مسلمة أحادية الصوت في القول، عبر الانتقال من الترهينات السردية التي تقف على حدود الراوي، والمروي له، لتتجاوزها إلى ترهينات النص السردي القائمة على الأطراف التخاطبية: الشاعر والمتلقى، [32] وهو ما تحقّق في ديوان (خطوات أنثى)، على نحو ما سيتضح، عبر آليات تركز عليها (ردينة الفيلالي) عن طريق تعددية الضمائر التي ينبني من خلالها الخطاب السردي في الديوان، والتي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالساردة / الشاعرة وتلتحم بها، وتصبح الضمائر عائدة عليها وإن اختلفت رؤياها، عبر إشارات شخصية تشمل الضمائر المتداخلة مع الزمن، والشخصية، والخطاب السردي [33].

- **المحور الأول: السرد بضمير المتكلم:**

لقد أرهفت (ردينة الفيلالي) شعريتها لتحولات تجربتها الأنثوية التي انبنت جوهريًّا على وعيها بذاتها المثقلة بالرغبة في البوح العاطفي، ووعيها بسؤالها المكبوت تجاه علاقتها بالآخر، ممَّا شكّل باعثًا محفّزًا على فعل كتابة ما يرجها من الداخل.

وتحت سطوة هذه الرغبة وذلك الوعي، غدا البوح الذاتي بضمير المتكلم موجهًا لمسار كسر الفروق الزمنية والسردية بين الشاعرة والشخصية والزمن، فيصبح التماهي بينها هو السمة الرئيسة، ممَّا يجعل القارئ أكثر انجذابًا إلى النص؛ وهو بذلك مناسب للسرد المناجاتي المتوغل في طيات النفس وأعماقها. [34]

حتفل الذات الشاعرة بحضورها المتشظي راغبة في خلخلة السكون، فولد الديوان محكومًا بهذا التصور، تنير ينة) أرضهَ بشفرات الإحالة إلى تجربة الذات متلبسة ضمير المتكلم الذي فرض سطوته على الخطاب معري في الديوان، ومتلبسة فعل السرد (كان) الذي يحيل إلى الحكي والقص، ورغبة في البوح والتأمل ات، فتقول في قصيدة (شقاوة البنات): [35]

كنتُ أمامَه أغُضُّ الطرفَ ككهلٍ ضريرْ
وما إنْ اقتربتُ منهُ اكتشفتُ أنيّ المِسكينُ
الخجولُ الصغيرْ
استسلمتُ لهُ كما تستسلمُ الحسناءُ للثوبِ الحريرْ
كما يستسلمُ للنومِ ذاك العبدُ الفقيرْ

تتحرك الذات الشاعرة متلبسة ضمير المتكلم (تاء الفاعل) وهي تعاني مشاعر الهيام والاستسلام للمحبوب في لحظة زمنية ترسم ملامحها، وتمارس سطوتها عليها، في رصدها لعالمها وعلاقتها بالآخر عبر الفعل (كنت) الذي يقوم بدوره في إثراء الحركة السردية، فيبلور حركة السارد / الذات الشاعرة، والمسرود عنه /

الآخر؛ بوصفها حدثًا مركزيًّا تتسع ساحته عبر معطيات خاصة يضبطها الوصف [كهل ضرير– المسكين – الخجول – الحسناء – العبد] الذي يوسع من المساحة السردية في بنية النص، ويجعله نصًّا سرديّا يتحرك عبر علاقات قائمة على التماثل والتوحد مع الأشياء، عبر التماهي بين الذات الشاعرة و المعطيات المشبهة بها.

وطبيعي، والأمر كذلك، أن يتولد في رحم هذه اللحظة الرجراجة انشطار الذات، وتتميع الحواجز بينها وبين الآخر، وتتحول من التذكر والحكي عن الماضي (كنت) إلى السرد الحركي الذي يشكل مسرح الواقع الحالي الآني، عبر الفعل المضارع [أغض – تستسلم – يستسلم]، فتبدو الذات في حالة مواجهة مع الآخر، عبر حوارها مع النفس، في الوقت الذي تتضافر أصوات سردية أخرى، من خلال ضمير الغائب (الهاء) في : (أمامه – منه – له)، تجعل من حديث الذات الشاعرة خطابًا سرديًّا متنوعًا وعميقًا يشحن النص بأجواء اللقاءات الممتدة في ذاكرة الشاعرة، مع هيمنة ضمير المتكلم، ممّا يعطينا القدرة على الإحاطة بهوية الذات، وتجذير كينونتها، وهما هاجس الفعل الشعري في الديوان، باعتباره سردًا ذاتيًا يتم تحقيقه عبر تقنية الاسترجاع أو التذكر، كمظهر من مظاهر السرد المتنوعة، والتي تحقق البعد الدرامي في النص، عبر بنيات تتقاذف الشاعرة، منها الوصف المتشكّل داخل نسيج الخطاب الشعري، النابع من رؤيا شعرية فلسفية محددة [36]، تسعى من خلالها الشاعرة إلى لملمة شتاتها، مزيلة الحجب بينها وبين أناتها الأخرى.

ويأتي ضمير المتكلم عند (ردينة الفيلالي) محتشدًا بالسرد، عبر السردية المرآوية لقدرة الذات على رؤية نفسها، والتغييب والتهميش الذي يمارس على حضورها، من خلال حضور الذات الفردانية عبر ضمير المتكلم، نحو قول الشاعرة في قصيدة (زمن اللا .. حب) [37]:

ملامحُ باكيةٌ في ذاكَ الركنِ الرّكينْ
تُصلي لربِ العالمين، تبْكى كطفلٍ بائسٍ حزينْ
تَلبسُ ثوبًا بلونِ الياسمينْ
كملاكٍ هاربٍ من زيفِ السّنينْ
تجلسُ وحيدةً بوجهٍ حزينْ
حزينٍ على عبادٍ رغمَ النّور ضائِعينْ
تلك الحزينةُ، هي أَنَا
تلك الحزينةُ، هي نَحنُ
تلك الحزينةُ، هي أَنَا
أَنَا التي تَمتَصُ غضبَ الآخرينْ
وتبكي كما يبْكى الضريحُ على الميتينْ

احتشدت الذات الشاعرة بحضور فاعل في تجربة ذاتية يتماهى فيها الفردي (الذات الشاعرة) مع الجمعي (نحن) عن قصدية، فاتحة مسارًا سرديًا يتناهى فيه الفردي مع الجمعي (هي أنا – هي نحن)؛ لمواجهة حالة الاغتراب والحزن المضروب التي تكتبها الشاعرة بنبض اللحظة الآنية، من خلال هيمنة الفعل المضارع [تصلى – تلبس – تجلس – تمتص – تبكي]كأنها تريد أن تفتح أفقًا قرائيًا لدى المتلقى؛ لينزاح معها في مشهدية تنقل الواقع الآنى الذي وصفته بأنه (زيف السنين)، بحيث يظل محور الذات متلازمًا للحالة المشهدية التي يقدمها الصوت السردي/ صوت الشاعرة بوصفه يصدر الآن؛ لتكرس قدرة الذات المنشطرة على التوحدّ والتماهي مع غيرها من الأنوات الأخرى (نحن)، بما يجعل النص سردًا ذاتيًا أو سيرة ذاتية، يتعالق فيها الهم الذاتي والجمعي، مع غلبة الذاتي بتكرار (أنا) ثلاث مرات، والذي يرسم مشهدًا تمَّ تسريده شعريًا؛ لينقل تجربة إنسانية تقدم رؤية الشاعرة للواقع والعالم ((وكأن مَنْ يكتب لا يروى عن آخرين، بل عن ذاته)). [38]

ولذلك، ألجأتها هذه التجربة إلى الاعتراف الصريح بحالة الحزن أومحنة الذات التي تتكبدها في واقعهاالمنفلت من القيم، عبرتكراريةمشهدية ثلاث مرات لجملة (تلك الحزينة)؛ لتسلط الضوء على النقطة المركزية التيتريد الشاعرة أن تشدّ أنظار المتلقي في اتجاهها، والتي تتحول إلىدلالةنفسية[39]، وكأنّ الذات الشاعرة تقصي هذا الوصف عن الذوات الأخرى وتلصقه بنفسها؛ إلحاحًا على حضورها الصادرعن موقف نفسي وشعوري، جاهدت فيه الشاعرة أن تلغى الفجوات كلهابين شطري ذاتها، في صياغة تظلّ أصداؤها تتجاوب في بؤرة ذات ارتكاز دلالي، ليس في هذا النص وحده وإنمّاعلى امتداد نصوص الديوان، لترمم شروخ ذاتها في صراعها ضد تهميش وجود أناها الباعثة على القول، بروح سردية تمنح الخطاب الشعري بعده الدرامي والجمالي الذي(يكرس في النص عالمًا متوترًا، ويخلق أفقًا أكثر اتساعًا في الأفق النصي).[40]

- **<u>المحورالثاني: السرد بضمير الغائب:</u>**

إنّ المتأمل في النتاج الشعري العربي الحداثي الزاخر بتجارب شعرية، يجد هيمنة السرد بضمير الـ (هو) الغائب؛ بوصفه قناعًا يتوارى خلفه الشاعر؛ ليمرر ما يشاء من رؤى وأفكار وأيديولوجيات، بمعنى أنّ (هو) تعني أنا في آن(41)، بحيث يظهرصوتان سرديان في النص الشعري، صوت الراوي/ الشاعر وصوت الشخصية المعبر عنها بضمير الغياب.

والشاعرة (ردينة الفيلالي) تستغل ضميرالغائبلتضفي على تجربتها أبعادًا دلالية تكون فرصة لتوغل السرد في داخل النص الشعري بصورة أكثرحضورًا، من خلال جدل العلاقة بين السارد والمسرور عنه، نحو قولها في قصيدة (بطاقتي الشخصية) [42]:

انتزعَ منِّى بطاقتي الشخصيةْ
ليتأكدَ أنىّ عربيةْ
وبدأ يفتشُ حقيبتي وكأنىَّ أحملُ

قنبلةً ذريةْ
وقفَ يتأملني بصمت سمراء وملامحي ثوريةْ
فتعجبتُ لمطبلهِ وسؤالهِ عن الهويةْ
فكيفَ لمْ يعرفْ من عيوني أنّي عربيةْ
أمْ أنّهُ فضّلَ أنْ أكونَ أعجميةْ
لأدخلَ بلادَهُ دونَ إبراز الهويةْ
وطالَ ٱنتظاري وكأنيّ لستُ في بلادٍ عربيةْ
أخبرتُهُ أنّ عُروبتي لا تحتاجُ لبطاقةٍ شخصيةْ
فلِمَ أنتظرُ على هذهِ الحدودِ الوهميةْ

في سردية مملوءة بالحزن على ما آل إليه الحال في الأوطان العربية، نسجت الشاعرة (ردينة الفيلالي) هذه القصيدة التي تطل ملامحها منذ العنونة الرئيسة (بطاقتي الشخصية) وتفتح المساحة السردية حين تتصدر العنونة في افتتاحية القصيدة، عبر متوالية تصويرية ذات أبعاد سردية، من خلال ضميرالغائب الصريح (الهاء) مع الاسم [مطلبه – سؤاله – أنه – بلاده] والمستتر مع الأفعال [انتزع – يتأكد – بدأ – يفتش – يعرف – فضّل]، في صورة حوارية دون قال أو قلت، الشيء الذي جعل المتلقي ينجذب إلى حرارة هذه اللحظة الشعرية التي تعيشها الذات الشاعرةوتنخرط فيها.

هنا، يمثّل الـ (هو) – حسب التوصيف النفسي – قسمًا صميمًا من الأنا الشاعرة التي يربض في أقاصيهامأزق (فقدان الهوية) أوفقدان الإحساس الأنوي بأنّ الأنا هي الأنا في الأمكنة والأزمنة، فالأنا هي الأنا مهما اعتراها من تغيرات [43].

وقد أخذ ضميرالغائب دوره في تشكيل بنية المقطع السابق متداخلًا مع ضمير المتكلم (ياء المتكلم) / الساردالذي لا يكتفي بالتعليق على حركة ضمير الغائب المشتبك مع الشخصية المسرود عنها، بل إلى التداخل الفعلي (فتعجبت لمطلبه)، بصوره تجعل ضمير الغائب يحيل إلى السارد نفسه / الشاعرة، فتصبح الشخصية المسرودة والسارد متماهيين ومتداخليين، ويتحركان حركة سردية تثرى الخطاب، وتفتح آفاقه الدلالية، وتجعل القارئ أكثر اتصالًا بالنص.

وقد تجلى السرد في هذا المقطع من خلال حوارية الـ (هو) مع (الأنا) بصفتها وسيلة تعبيرية للكشف عن الإحساس بالغربة وفقدان الهوية داخل الأوطان العربية، بصورة تكشف عن التوحّد بينهما، حيث تشكّل السرد عبر تداخل الصوتين أو الضميرين؛ لكشف الحالة التي يطرحها عنوان النص (بطاقتي الشخصية)، ممّا يشير إلى المنزع السردي، حيث تبدأ القصيدة بضمير الغائب المستتر (انتزع) ويتحول إلى ضمير المتكلم (ياء

المتكلم) في جدلية امتدت على طول المقطع في حوارية قولية، ساعدت على تكوين آلية المشهد الحواري، عبر الاعتماد على الأفعال القولية التي جاءت عن قصدية لإحداث تأثير ما، إذ إنَ الأفعال القولية لها وظيفة حجاجية عندما تهدف إلى توجيه المتلقي نحو نتيجة معينة أو تصرفه عنها [44]، والشاعرة بذلك تشي بالواقع المأزوم الذي تعيشه الذات العربية داخل الوطن العربي، والتي يصير فيها الـ (هو) نسخة عن (الأنا) والعكس، بمعني أنّ عروقًا خفية تمتدّ مع الـ (هو) لتوحده بدواله وضمائره وتكيفه مع الأنا، تحت مفعولات ذلك المأزق.

وليس بخاف ما بِمور تحت قشرة هذا المقطع من تساوق أو تشرب أو تمثّل لمدونة (محمود درويش) في قصيدته (سجل أنا عربي)؛ ليرد على العسكري الذي سأله عن قوميته، وشعوره بأن العربي غريب في بلاده [45]، بما يكشف عن الشرخ الزماني والمكاني للذات الممزّقة المغيبة خلف (الحدود الوهمية).

وتستخدم (ردينة الفيلالي) ضمير الغائب بوصفه أداة سردية تحيل إليها كما في قصيدتها (الخطيئة) [46]:

جَاءني صوتُ حبيبتي يكسوهُ البكاءْ
خافتًا كصوتِ السّماء كبلبلٍ غدرَ بهِ المساءْ
فَقد عرفتْ العشيرةُ أنّنا أحبابْ
قرّروا لنا قطعَ الرّقابِ وَدفنَ حبيبتي تحتَ الترابْ
عصفورةً ينهشها غرابْ
والسُّر أنّها أحبّتْ رغمَ النقابْ
رفضتْ قانونَ الغابِ فمزّقتْ
مُعجمَ الخطايا حَطَّمتْ قواعدَ الإعرابْ
وقفتْ أمامي يكسوُهَا العناءْ
حزينةً، ظفائِرُهَا كليلةِ شتاءْ
الخوفُ يغتصبُهَا كما يغتصبُ الغيمُ وجهَ السماءْ
حبيبتي كمْ عانىَ الأنبياءُ
من ظلمِ أناسٍ جهلاء يحملونَ ثقافةً عَرْجاءْ

يتجلى السرد عبر ضمير الغائب منذ استهلال القصيدة [يكسوه – به – ينهشها – أنّها – يكسوها – ظفائرها – يغتصبها]، ممّا يحيل إلى مساحة سردية تتحرك في أرجائها الساردة / الشاعرة التي تكشف عن معطيات الشخصية التي تسرد عنها، عبر ضمير الغائب (هي)، الذي يؤكد، في الوقت نفسه، معطياتها هي، إنّها تتحدث بال (هي) بدلًا عن (الأنا) وتستتر خلف قناع الغائب في إشارة إلى انسحاق الذات الطاعن في براثن الواقع الراهن الذي تصوّره بِأنه (ثقافة عرجاء)، في محاولة منها لكسر الخروج عن القيود والمكبوتات

الاجتماعية الكامنة خلف المحظورات (أحبت رغم النقاب)، فتوقفت الشاعرة خارج الشخصية المسرودة / نفسها ساردة أحوالها ورؤاها لتلك القيود، والتي جاءت في هيئة صرخة احتجاج أنثوية على ما آل إليه حال المرأة التي حاولت كسر هذا التابوه، وكشف فصولًا عن المسكوت عنه بروح سرمدية، عبر ألفاظ ذات إيقاع قهري واستبدادي [ينهشها – يغتصبها]، بما يضفي على النص دلاله ثنائية أو يجعله نصًا مفتوحًا أمام القارئ؛ ليكتشف ممارسات قمعية أخرى أو سلطوية مجتمعية [قرروا لنا قطع الرقاب ودفن حبيبتي تحت التراب] تأسيسًا للرؤية المشروخة للواقع، أو رؤية الواقع المشروخ والتي انبثقت تحت تأثير الهم الجمعي الذي هو الشغل الشاغل للشاعرة، والذي يؤكد أن (لردينة الفيلالي) وعيًا حادًا بمأساة الواقع، يكتمل شمولًا ويصبح على أقصى درجات الوعي لحظة الكتابة التي تستحيل رصدًا للراهن الذي يفز استبدادًا وسلطوية ذكورية، في ظل ثقافة وصفتها الشاعرة بأنها (عرجاء)، أصرت الشاعرة على خرق تابوهاتها المحرمة ومنها الحب ((وكشف تحولاته في ظل ثقافة قامعه لحريته، أو منتقصة له)) [47].

- **المحور الثالث: السرد بضمير المخاطب:**

لقد استلهم شعراء العصر الحديث السرد بضمير المخاطب بصفته وسيلة يضفون بها على النص الشعري حركية تجعله أكثر توترًا، وهو((يأتي وسيطًا بين ضمير الغائب والمتكلم، فإذن لا هو يحيل على خارج قطعًا، ولا هو يحيل على داخل حتمًا، ولكنه يقع بين وبين: يتنازعه الغياب المجسد في ضمير الغائب، ويتجاذبه الحضور الشهودي الماثل في ضمير المتكلم)) [٤٨].

ومن هذا المنطق، فإن الشاعرة (ردينة الفيلالي) تحاول، بواسطة هذا الضمير، أن تفرض على النص بنيته الإيجازية بلغة شعرية مترعة بسردية تصويرية بمقدورها تفجير الطاقة المجازية للغة، عبر معطيات قرائية اتصالية وندائية، فيها المُرسل / الشاعرة والمُرسل إليه / المتلقي [٤٩]، ممّا يفتح مجالًا للتماهي بين الشاعرة والشخصية المسرودة، من خلال وصف حالة هذه الشخصية، والذي هو في الحقيقة وصف لوعيها النفسي بواقعها، نحو ما جاء في قصيدة (الشهد المرير) [٥٠]:

.. لِمَ يا زهرتي يبدو عليكِ التَّعبْ
مَنْ رماكِ بعد أنْ عَبثَ بكِ وَلعِبْ
.. تَبْدينَ ممزقةً والنَّدي يغطيكِ من قسوةِ الكُربْ
تَشْكينَ دَبورا غَزاكِ غزوَ المغولِ وهَرَبْ
..إمتصَ الرحيقَ نحو الأوراقِ صوّبَ وضَربْ
وأشواكُكِ اليافعةُ خجولةً حينما اقتربْ
مزّقَ الطفولةَ فيكِ ومَنْ يخيطُ

.. رداءَ الطفولةِ إذَا ثُقِبْ

يبدأ المقطع بأناة مخاطبة وينتهي بها، فالمجال اللغوي محاصر بهذا الأناة ومترع بها، بحيث جاء المقطع بحشد هائل من تجليات الضمير المخاطب سواء بالنداء [يا زهرتي] أما بضمير المخاطب (الكاف) [عليكِ – رماكِ – بكِ – يُغطيك – غزاكِ – اشواكِ] أم بالضمير المخاطب المستتر [تَبدين – تشكين]، بحيث تبدو هي المعنية بالخطاب الشعري، عبر تكرارية ضمير المخاطب، إشارة إلى حضوره القوي.

هذا المقول الشعري نلمس فيه نفسًا سرديًا، يقوم فيه ضمير المخاطب بدور سردي، فمن خلاله يتحرك الحدث ويشتبك الصوتان: السارد و الشخصية المخاطبة؛ لتعري الشاعرة ذاتها وعلاقتها بالعالم ومعطياته، عبر بؤرة مشهدية تصويرية مفعمة بدفقة شعورية عن حال الشخصية المسرودة، وظفت فيه الشاعرة معجمها الشعري القائم على التمازج والتعالق بين اللغة اليومية [يبدو عليك التعب – عبث بك ولعب – تشكين دبورا] حتّى توصل إلي القارئ حجم المكابدة التي تتكبدها الشخصية المسرودة، وبين اللغة المجازية [يا زهرتي – الندى يغطيك – أشواكك اليافعة خجولة – غزاك غزو المغول – مزق الطفولة – رداء الطفولة إذا ثقب]، بما يؤكد اختراق وتغلغل ما هو سردي في شعرية القصيدة الحديثة.

وقد استخدمت (ردينة الفيلالي) ضمير المخاطب الصريح (الكاف) والمستتر، والمحذوف [لعب] والتقدير: لِعب بكِ، الذي يحيل إلى الذات الشاعرة، مستغلة صور ضمير المخاطب، لتفتح المجال للبوح، فتقف أمام الشخصية المخاطبة لتقرأ عليها علامة استفهامية: مَنْ رماكِ بعد أن عبث بك ولعب؟ التي تشكّل بوابة يدلف منها القارئ إلي تماهي صوتين يتحركان معًا، صوت السادر / السائل وصوت المسئول / الشخصية المخاطبة، ممّا يمنح الساردة تأمل الذات / الشخصية وكشف أزمتها النفسية.

والمتأمل في المقطع الاستهلالي السابق يجد أن (ردينة الفيلالي) اعتمدت في بنيته على افتتاحه بتقنية نقطتي التوتر (..) والتي تعني ((وضع نقطتين أفقيتين بين مفردتين أو عبارتين أو أكثر من مفردات أو عبارات النص الشعري بدلًا من الروابط النحوية. وقد أُبتكرت نقطتا التوتر في الشعر العربي الحديث، ووُظفت في إطار التلقي البصري؛ لحسم الجدل بين الشفهي والمكتوب من خلال دلالتها البصرية على توقف صوت المنشد مؤقتًا؛ بسبب التوتر الذي يدفعه إلى إسقاط الروابط النحوية)). [٥١]

وقد جاءت هاتان النقطتان مسترسلة في ثلاثة مواضع، ممّا يمنح المتلقي مدة زمنية كافية؛ لاستكناه دلالة السياق من خلال الفراغ المنقوط بنقطتي التوتر، عن طريق استدراج المتلقي لرصد باقي معطيات الشخصية المخاطبة ومحددات ما فُعل بها؛ لملء هذا الفراغ المنقوط المتروك عمدًا في مفاصل السطور الشعرية، والذي يعُد تمظهرًا من تمظهرات السكوت والغياب، والتي تتعدد قراءتها بتعدد تأويلات المتلقين واستجابتهم للتفاعل مع النص.

ويتجلى السرد في الديوان عبر ضمير المخاطب وعلاقاته البنائية الأخرى وتداخلاته مع ضمير الغائب، نحو ما جاء في قصيدة (وسائد وشراشيف) [٥٢]:

..مَشغولٌ بأيِّ شيءٍ مَشْغولْ
وعِطرهُا يفوحُ منّكَ كأريجِ الحقولْ
..فاجأتُكَ أمْ أنّي أبكرتُ الوصولْ
لتضعَ يدكَ علي البابِ وتمّنعَني الدخولْ
لملِمْ كلماتِكَ أيُّها العابثُ المسطولْ
..أحمرُهَا في شفتيكَ على وجهكِ المبلولْ
وأزرارُ قميصِكَ منزوعةٌ وأنْتَ.. أنْتَ مَشْغولْ؟
..متسولةٌ تلكَ التي معكَ أمْ بائعةُ جسدٍ تَجولْ
أمْ أنّكَ أحضرتَها مِنَ الطرقاتِ لتثبتَ
رجولةِ العجولْ

تشكل البنية السردية عالم المقطع عبر أدوات عدة : صوت الراوي / الشاعرة، ضمير المخاطب بالكاف وأنت والنداء (أيّها) ضمير الغائب (الهاء)، وتردد صوت شخصيات متحاوره [فاجأتُك]، والتي تكشف عن تبادل الضمائر وتنوعها، ممّا أدى إلي ظهور النبرة الدرامية في مستواها الرؤياوي، يتحقق في الشخصية المُخاطبة والمتكلم تاء الفاعل [فاجأتُك أم أني أبكرتُ الوصول – تمنعني الدخول]، مما يخلق حركية سردية بين الراوي / الشاعرة وبين الشخصية المُخاطَبة المسرودة، مبنية على تداخل الضمائر الثلاثة: المخاطب والمتكلم، والغائب، ممّا يشير إلي حركة التبادل الحواري الذي يصنع أفقًا سرديًا يفرض حضورًا عينيًا للتنوع الضميري وما يصحبه من تعددية صوتية:

ولعّل السطور التي تشكّل نصف المقطع السابق [أحمرها في شفتيك ..... رجولة العجول] تكشف عن رغبة (ردينة الفيلالي) في كسر تابوه الجنس المحرم، دون الخوض في تفصيلات كثيرة، وإنما اكتفت بالإشارة والتلميح [أحمرها في شفتيك – وجهك المبلول – أزرار قميصك منزوعة – بائعة جسد تجول – احضرتها من الطرقات– رجولة العجول] في رسائل مشفرة تتضمن الرفض لهذه المظاهر التي لا تزال تلاحق الأنثى وتختزل وجودها جسديًا [متسولة – بائعة جِسد]، بما يكشف عن انسياقية التغييب الأنثوي لدى الآخر المتسلط الفحولي / المخاطب، الذي سعى إلى تغييب هويتها واستحضارها جسديًا في حضرة التسلط الفحولي، فيتحول جنس الأنثى من قيمة إنسانية إلى شكل مختزل في الجسد [أم بائعة جسد تجول]؛ لسدّ فجوات الرغبة لدى الآخر

الذكوري / الفحول، وفقًا لثقافة اجتماعية ذكورية، تختزل الأنثى في ((الشفرات الثقافية للجسد الحسي، تنقله إلي الجسد النصي)) [٥٣] ليتشعب في أنظمة الخطاب الثقافي.

- **الخاتمة:**

تناول هذا البحث ديوان (خطوات أنثى) للشاعرة الليبية (رينة الفيلالي)؛ للكشف عمّا تضمنه الديوان من تعددية صوتية ناجمة عن تعدد ضمائر السرد: المتكلم، والغائب، والمخاطب .وقدأثارت ذائقة المتلقي؛ للكشف عن سردنة الشعر في القصيدة الحديثة. ومن خلال دراسة ضمائر السرد الثلاثة هذه، توصلت إلى مجموعة من النتائج أهمها:

١- يعدُّ الديوان أنموذجًا لتماوج ضمائر السرد وتماهيها، وحضورها بشكل مكثف، بحيث انفتحت على الممكنات التعبيرية التي يمكنها أن تشكّل بنية نصية قائمة على تعددية الأصوات، وإن كانت الغلبة في حضورها لضمير المتكلم الذاتي، الذي هو نفسه ضميرا: الغائب والمتكلم.

٢- أدي تعالق الضمائر الثلاثة وتماهيها إلى إعطاء قصائد الديوان أبعادًا دلالية جديدة، تتسع تبعًا للأبعاد التي ضمنتها الشاعرة، من خلال مهاراتها في توزيعها في داخل النص الشعري؛ لتأدية المعنى المراد.

٣- الديوان يمثل نموذجً التعالق ما هو سردي بما هو شعري، من خلال انفتاحه على كلّ ما يخصبه من الأنواع الأدبية الأخرى، لتتحقق فيه ثنائية السردنةوالشعرنة.

٤- يعُد الديوان صرخة ذاتية على القيود الاجتماعية وتابوه المحرمات / الحب والعاطفة، وهو ما أدى إلى سطوة ضمير المتكلم على الديوان، بوصفه ضمير البوح المناجاتي.

٦- اتّسم الديوان بصورة تقترب من النهج القباني / نزار قباني، سيرًا على طريقته في الكشف عن المسكوت عنه والمخفي، وإن كانت (ردينة الفيلالي) أقل جرأة وصراحة وتعرية للواقع ومهاجمته.

الهوامش والإحالات: –

1) لمزيد من التفاصيل حول هذه الجزئية ينظر على سبيل المثال لا الحصر:
   - التعريف بالأدب الليبي الحديث، الطاهر بن عريفة، دار الحكمة، طرابلس، ١٩٩٧م ص٦٤ .جماليات القصيدة المعاصرة، طه وادي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩، ص٢٤٩دراسات في الأدب، بشير الهاشمي، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ١٩٧٩، ص٨٣ ،و كتابات ليبية، سليمان كشلاف، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ١٩٧٧، ص١٩٨.
2) قراءات في الشعر العربي المعاصر، على عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨، ص٦
3) على صدقي عبد القادر شاعر الشباب، نجم الدين غالب، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ١٩٨٥ ص٢٤
4) جمالية السرد النسائي، رشيدة بن مسعود، شركة النشر والتوزيع المدارس، المغرب، 2006، ص14.
5) السرد النسوي، الثقافة الأبوية: الهوية الأنثوية والجسد، عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011، ص 101.
6) المرأة والسرد، محمد معتصم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2004، ص9
7) جماليات الصمت في أصل المخفي والمكبوت، إبراهيم محمود، مركز: الإنماء الحضاري، دمشق، 2002، ص140.
8) ردينا والقصيدة الجسد أو الجِسد القصيدة، بدر الدين الأمير، موقع Sudanese online، 2021/10/25.
9) غواية الرواية، دراسات في الراوية العربية، شوقي بدر، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2008، 220 – 221.
10) مناهج النقد العربي الحديث، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2004، ص5.
11) القصيدة الرومانسية في ليبيا، تهاني مفتاح راشد، مجلس تنمية الإبداع الثقافي، طرابلس، 2004، ص101 وما بعدها.
12) ردينة الفيلالي، قصيدة في دواوين الأمة العربية، مازن نوري، موقع ميديا، 2021/6/16.
13) الخيال الأدبي، نور ثروب فراي، ترجمة: حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة، السورية، دمشق، 1995، ص 49.
14) هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، شعيب حليفي، دار الثقافة، المغرب، 2005، ص35
15) دلالات التراكيب، محمود أبو موسى، مكتبة، وهبة، القاهرة، 2008، ص 212.
16) الشعر العربي الحديث، دار في المنجز النصي، رشيد يحياوي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998، ص113
17) عتبات النص، البنية والدلالة، عبد الفتاح الجحمري، منشورات شركة الرابطة، الدار البيضاء، 1996، ص26.
18) ديوانخطوات أنثى، ردينة الفيلالي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2004، ص2.
19) نظرية الأدب وقراءة الشعر، ديفيد بشبندر، ترجمة: المقصود عبد الكريم، والهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005، ص138.
20) شعرية دوستويفسكي، ميخائيل اختين، ترجمة: جميل نصيف، دار توبقال، المغرب، 1986، ص 59
21) معجم تحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، وباتريك شارودو، ترجمة: عبد القادر المهيري،وحمادي صمود،دار سيناترا،تونس،2008م. ومعجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، دار محمد علي للنشر، تونس، 2010، ص101.
22) الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكو، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ص47–55
23) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، على عشري زايد، مكتبة الآداب، القاهرة، 2002، ص 194–195

24) مفاهيم نقدية، رينيه ويلك، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة (110)، الكويت، فبراير، 1987، ص 377.
25) معجم تحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، وباتريك شارودو، سابق، ص 436 – 437.
26) لمزيد من التفاصيل حول تداخل الأجناس الأدبية وتمازجها، ينظر، تداخل الأنواع الأدبية وشعرية النوع الهجين، جدل الشعري والسردي، عبد الناصر هلال، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 2012.
27) السرد الشعري المعاصر، البناء والتشكيل / السياق والدلالة، محمد زيدان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2009، ص 120
28) الخطاب الشعري، عند محمود درويش، محمد فكري الجزار، إيتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص 126–127.
29) قصيدة النثر العربية بين سلطة الذاكرة وشعرية المساءلة (دراسة في جماليات الإيقاع)، عبد الناصر هلال، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2012، ص 128–129.
30) زمن الشعر، علي أحمد سعيد (أدونيس)، دار العودة، بيروت، 1979، ص40.
31) حداثة الكتابة في الشعر العربي المعاصر، صلاح بوسريف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2012، ص 221.
32) السرديات والتحليل السردي، الشكل والدلالة، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، 2012، ص 74
33) في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عبد الملك، عالم المعرفة (240)، الكويت، ديسمبر، 1998، ص 176، واستراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري، دار الكتاب الجديد، ليبيا، 2004، ص 79.
34) في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، سابق، ص 185– 187
35) الديوان، ص 20
36) اللغة الثانية، فاضل ثامر، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص26
37) الديوان، ص3
38) تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، يمنى العبد، دار الفارابي، بيروت 2010، ص 89
39) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص 276.
40) تداخل الأنواع الأدبية، عبد الناصر هلال، ، ص 64
41) في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، سابق، ص 177.
42) الديوان، ص42
43) معجم علم النفس والتحليل النفسي، فرج عبد القادر طه وآخرون، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت ، ص 479.
44) أبحاث في النحو والدلالة، السيد خضر، مكتبة الآداب، القاهرة، 2009، ص 132–133
45) أطياف محمود درويش، هيثم سرحان، مجلة الأثر، الجزائر، ع 26 ، سبتمبر، 2016، ص 252
46) الديوان ص 10
47) نقد الخطاب المفارق، هويدا صالح، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014، ص 214
48) في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، سابق، ص 189.
49) خطاب الحكاية، بحث في المنهج، جيرارجنيت، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص 264– 265
50) الديوان، ص 34

51) التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث (1950 – 2004)، محمد الصفراني، النادي الثقافي الأدبي – الرياضي، والمركز الثقافي العربي بيروت– الدار البيضاء، 2008، ص 204

52) الديوان، ص 30

53) خطاب الأنساق، الشعر العربي في مطلع الألفية الثالثة، آمنة بلعلي، دار الانتشار العربي، بيروت، 2014، ص 259

المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر:

- ديوان خطوات أنثى، ردينة الفيلالي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت، 2004 م.

ثانيا: المراجع:

1. أبحاث في النحو والدلالة، السيد خضر، مكتبة الآداب ، القاهرة، 2009
2. استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري دار الكتاب الجديد، ليبيا، 2004
3. أطياف محمود درويش، هيثم سرحان، مجلة الأثر، الجزائر، ع 26، سبتمبر، 2016
4. تداخل الأنواع الأدبية، عبد الناصر هلال، النادي الأدبي الثقافي، جدة 2012.
5. التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث (1950 – 2004)، محمد الصفراني، النادي الثقافي الأدبي – الرياض، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، 2008
6. التعريف بالأدب الليبي الحديث، الطاهر بن عريفة، دار الحكمة، طرابلس، 1997
7. تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، يمنى العبد، دار الفارابي، بيروت، 2010
8. جماليات الصمت في أصل المخفي والمكبوت، إبراهيم محمود، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، 2002
9. جماليات القصيدة المعاصرة، طه وادي، دار المعارف، القاهرة، 1989.
10. جمالية السرد النسائي، رشيدة بن مسعود، شركة النشر والتوزيع المدارس، المغرب، 2006
11. حداثة الكتابة في الشعر العربي المعاصر، صلاح بوسريف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2012
12. خطاب الأنساق، الشعر العربي في مطلع الألفية الثالثة، آمنه بلعلي، دار الانتشار العربي، بيروت، 2014
13. خطاب الحكاية، جيرارجنيت، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997
14. الخطاب الشعري عند محمود درويش، محمد فكري الجزار، إيتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001
15. الخيال الأدبي، نور ثروب فراي، ترجمة: حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1995
16. دراسات في الأدب، بشير الهاشمي، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1979
17. دلالات التراكيب، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، 2008
18. ردينا والقصيدة الجسد أو الجسد القصيدة، بدر الدين الأمير، موقع sudaneseonline، 2021/10/25
19. ردينة الفيلالي، قصيدة في دواوين الأمة العربية، مازن نوري، موقع نور ميديا، 2021/6/16
20. زمن الشعر، علي أحمد سعيد (أدونيس)، دار العودة، بيروت، 1979

21. السرد الشعري المعاصر، محمد زيدان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2009
22. السرد النسوي، عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011
23. السرديات والتحليل السردي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، 2012
24. الشعر العربي الحديث، دراسة في المنجز النصي، رشيد يحياوي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998
25. شعرية دوستويفسكي، ميخائيل باختين، ترجمة: جميل نصيف، دار توبقال، المغرب، 1986.
26. عتبات النص، البنية والدلالة، عبد الفتاح الجحمري، منشورات شركة الرابطة، الدار البيضاء، 1996
27. علي صدقي عبد القادر شاعر الشباب، نجم الدين غالب، المنشأة العامة للنشر والتوزيع طرابلس، 1985
28. عن بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشري زايد، مكتبة الآداب، القاهرة، 2002
29. غواية الراوية، شوقي بدر، مؤسسة حورس للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2008
30. في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، عالم المعرفة (240)، الكويت، ديسمبر، 1998
31. قراءات في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998.
32. القصيدة الرومانسية في ليبيا، تهاني مفتاح راشد، مجلس تنمية الإبداع الثقافي، طرابلس، 2004
33. قصيدة النثربين سلطة الذاكرة وشعرية المساءلة، عبد الناصر هلال، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2012
34. قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، 1992
35. كتابات ليبية، سليمان كشلاف، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، 1977
36. اللغة الثانية، فاضل ثامر، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994
37. المرأة والسرد، محمد معتصم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2004
38. معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، د/ محمد علي للنشر، تونس، 2010
39. معجم تحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، وباتريك شارودو، ترجمة: عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008.
40. معجم علم النفس والتحليل النفسي، فرج عبد القادر وآخرون، دار النهضة العربية، بيروت، د .ت
41. مفاهيم نقدية، رينية ويلك، ترجمة: محمد عصفور، عالم المعرفة(110)، الكويت، فبراير، 1987
42. مناهج النقد العربي الحديث، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2004
43. نظرية الأدب وقراءة الشعر، ديفيد بثبندر، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2005.
44. نقد الخطاب المفارق، هويدا صالح، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014
45. هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، شعيب حليفي، دار الثقافة ،المغرب، 2005.
46. الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكو، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999.

أبعاد الشخصية في رواية النصّ الناقص للروائية عائشة الأصفر

إعداد

الدكتور / علي محمد امحمد عمران.

عضو هيئة تدريس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب . جامعة سبها

العدد الثالث عشر– يوليو – 2023 م

الملخص .

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على بعض من أبعاد الشخصية عند الكاتبة عائشة الأصفر من خلال روايتها " النص الناقص" وطريقة بنائها لها ورسمها لملامحها، وقد عملت الدراسة على إبراز الدور الذي تلعبه الأبعاد الثلاثة التي أسهمت في تكوين الشخصية، المتمثلة في البعد الخارجي والنفسي والاجتماعي، وبيان أهميتها في حركة سير الأحداث وتطور علاقتها بالعناصر الأخرى: كالزمن والمكان واللغة والسياق السردي.

وقد اختارت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي كسبيل للوصول لأهدافها المرجوة والمبتغاة، إيمانا من الباحث بقدرة هذا المنهج على الإيفاء بمتطلبات البحث وتحقيق أهدافه.

Abstract

Dimensions of personality in the imperfect text narration

For the novelist Aisha Al-Asfar

This study aims to identify some of the personality dimensions of the writer Aisha Al-Asfar through her novel "The Imperfect Text" and the way she builds it and draws its features. And an indication of its importance in the course of events and the development of its relationship with other elements: such as time, place, language, and narrative context.

This study chose the analytical descriptive approach as a way to reach its desired and desired goals, as the researcher believes in the ability of this approach to fulfill the research requirements and achieve its goals.

المقدمة .

الشخصية الروائية:

تُعد الشخصية الروائية وسيلة الكاتب للتعبير عن رؤاه وأفكاره والإحساس بواقعه، وهي ((ركيزة الروائي الأساسية في الكشف عن القوى التي تحرك الواقع حولنا، وعن ديناميكية الحياة وتفاعلاتها، فالشخصية من المقومات الرئيسة للرواية، وبدون الشخصية لا وجود للرواية، لذا نجد بعض النقاد يعرفون الرواية بقولهم

((الرواية شخصية)) [1]، وتعد الشخصية في الكتابات الروائية مدار المعاني الإنسانية، ومحور الآراء والأفكار في المجتمع، حيث انصرفت القصة إلى دراسة الإنسان وقضاياه، وإلا فقدت أثرها الاجتماعي وقيمتها الفنية معا.

غير أن الشخصية الروائية ((تفترق عن الواقعية أو التاريخية بكونها أكثر تفردا وتميزا عند القارئ، ويمكنه فهمها فهما كاملا إذا رغب الروائي بذلك, فهو قادر على عرض حياة الشخصيات الداخلية والخارجية إلى حد معرفة أسرارها))[2]، وتتعدد الشخصيات في النص الروائي بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية التي ليس لتنوعها واختلافها من حدود)) [3]، ويسخر الروائي الشخصية لإنجاز الحدث، وبذلك تخضع لتقنياته وإجراءاته وتصوراته الفنية، كما تشكل أبعاد الشخصية في العمل الروائي والقائمة على البعد الخارجي والنفسي والاجتماعي, أهمية كبرى في بنائها داخل النص.

ومن هنا كان منطلقنا في اختيار موضوع بحثنا هذا المتمثل في "أبعاد الشخصية" في رواية النص الناقص "لعائشة الأصفر"، وهو اختيار مبني على دوافع ذاتية وأخرى موضوعية، ارتبط الدافع الذاتي بميولنا إلى الرواية المعاصرة، باعتبارها تندرج ضمن دراستنا، أما الموضوعي فقد ارتبط بالدراسة ذاتها المتعلقة بالشخصية وأبعادها، إذ يطرح البحث جملة من التساؤلات التالية :

- ما مفهوم الشخصية وما طرق رسمها؟
- كيف تجلت أبعاد الشخصية في الرواية؟

وقد كان إعجابنا بهذه الرواية الدافع وراء اختيارها، خاصة وأنها تسلط الضوء على جملة من القضايا السياسية والاجتماعية والإنسانية، التي كانت محل اهتمام المجتمع، وعبرت عن معاناته في ظل الظروف المعاشة. وقد اختارت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي كسبيل للوصول لأهدافها المرجوة والمأمولة باعتباره الأنسب والأكثر قدرة على وصف الظاهرة وجمع المعلومات حولها وأسباب حدوثها، ومن ثمّ تسليط الضوء عليها والتوصل لنتائج تساعد على معالجة المشكلات المترتبة عليها.

الكلمات المفتاحية: الشخصية. النصّ . البعد الخارجي . البعد النفسي . البعد الاجتماعي . العرف . التقاليد . النقص . الدلالة . المعاناة.

تعريف الشخصية:

يختلف تعريف الشخصية باختلاف الاتجاه الروائي الذي يتناولها بالدراسة والتحليل، فهي لدى الواقعيين التقليدين مثلا شخصية حقيقية "أو شخص" من لحم ودم، لأنها شخصية تنطلق من إيمانهم العميق بضرورة محاكاة الواقع الإنساني المحيط بكل ما فيه من محاكاة، تقوم على المطابقة التامة بين ثنائية السرد / الحكاية، غير أن الأمر مختلف بالقياس إلى الرواية الحديثة، التي يرى نقادها مثلا أن الشخصية الروائية ماهي سوى كائن من ورق، على حد تعبير "رولان بارت" ذلك لأنها شخصية تمتزج في وصفها وبناءها بالخيال الفني لدى

الكاتب ومخزونه الثقافي، الذي يسمح له بالإضافة والحذف والمبالغة في تكوينها وتصويرها، لأنها شخصية ورقية من اختراع الكاتب فحسب . إذن الشخصية الروائية ليست وجودا واقعيا، وإنما هي مفهوم تخيلي تدل عليه التغيرات التي تطرأ عليها أثناء السرد، كما أنها تتخذ شكلا دالا من خلال اللغة، وبذلك فهي ليست أكثر من قضية لسانية حسب بعض النقاد.

الشخصية لغة:

جاء في لسان العرب: "شخص الفتح شخوصا: أي ارتفاع)) [4]، كما وردت لفظة الشخصية في معجم الوسيط، وتعني ((تلك الصفات التي تميز الشخص عن غيره، فيقال: فلان ليس له شخصية، أي ليس هناك ما يميزه من الصفات. تشخيص الشيء أي عينه وميزه عن سواه))[5]. فهي تلك الخصائص التي يحملها كل شخص في شكله, أو في داخله .

ونجد معنى التشخيص في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿واقترَبَ الوعْدُ الحقُ فإذَا هِيَ شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا من غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾[6] ، كما وردت هذه الآية بمعنى العلو والارتفاع . أما في معجم المصطلحات الأدبية: ((هي تشير إلى الصفات الخلقية والمعايير والمبادئ الأخلاقية ولها في الأدب معان نوعية أخرى، وعلى الأخص ما يتعلق بشخص تمثله رواية أو قصة)) (7). وقد وردت كلمة شخص في المعاجم الحديثة على ((أن الشخص هو مجموع الخصائص الجسمية والعقلية والعاطفية التي تميز إنسانا معين من سواه))(8) ، أي تلك الصفات الفسيولوجية والسيكولوجية التي يتفرد بها كل إنسان عن غيره، سواء من الناحية الداخلية أو الخارجية .

وفي اللغة العربية: ((الشخص هو كل جسم له ارتفاع وظهور يراد به إثبات الذات))(9). فالتعريف اللغوي يشير إلى العلامة المميزة في الشيء، أو الشخصيات التي تدخل ضمن النص الروائي.

الشخصية اصطلاحا:

تعرف الشخصية الروائية من الناحية الاصطلاحية ((على أنها المحرك الرئيس الذي يدفع بتطور الأحداث داخل العمل الروائي، وقد تجلت عدة مفاهيم حول الشخصية باعتبارها المحور العام الذي يتكفل بإبراز الحدث، وعليه يكون العبء الأول في الاقناع بمبدأ أهميته المثارة في القصة وقيمتها)) **(10)**.

هذا التعريف يؤكد على فاعلية الشخصية وأهميتها، ودورها الفعال في النص الروائي إلى جانب أنها ((كل مشارك في الرواية سلبا أو إيجابا، أما من لم يشارك في الحدث لا ينتمي إلى الشخصيات بل يعد جزء من الوصف)) [11]، أي أنها أداة يستخدمها الروائي في إبراز الأحداث.

الشخصية من منظور النقد الغربي:

تناول علماء الغرب مفهوم الشخصية وأولوه اهتماما كبيرا في دراساتهم كل حسب منظوره وطريقة تعريفه لها، حيث يعد أرسطو الشخصية ثانوية خاضعة كليا لمفهوم الفعل، فهي عنده ((ظلا للأحداث لا أكثر. بينما يرى "فيليب هامون" الشخصية في الحكي تركيب جديد يقوم به القارئ أكثر مما هي تركيب يقوم به النص))[12]، كما يذهب إلى أن مفهوم الشخصية ليست مفهوما أدبيا محضا ((إنما مرتبط أساسا بالوظيفة القوية التي تقوم بها داخل النص))[13] ، فهو يدرسها من منظور لساني قائم على العلامة السردية " الدال والمدلول" أي يعتبرها بمثابة الدليل اللغوي الذي يتكون منه دال ومدلول، كما صنفها إلى ثلاث فئات هي : ((الشخصية الإشهارية والاستذكارية والمرجعية، والتي تضم الشخصية التاريخية والاسطورية والمجازية والاجتماعية, وعلى العموم فإن الشخصية عند "هامون"هي وليدة المساهمة الأكثر سياقا ونشاطا استذكاريا يقوم به القارئ))[14].

استقى "هامون" مفهومه للشخصية من اللسانيات، فهو يعرف الشخصية انطلاقا من مفهوم العلامة اللسانية ((بأنها مورفيم فارغ، أي بياض دلالي لا تحيل إلا على نفسها، إنها ليست معطى قبليا، فهي تحتاج إلى بناء، بناء تقوم بإنجازه الذات المستهلكة للنص زمن القراءة، ويظهر هذا في المورفيم الفارغ من خلال دال لا متواصل، ويحيل على مدلول لا متواصل)) [15].

أما فلاديمير بروب وهو من الأوائل في الدراسات البنيوية، وممن اهتموا بعنصر الشخصية في الحكاية الخرافية، فهو يرى بأن الحكاية تحتوي على عناصر ثابتة وأخرى متغيرة، فالذي يتغير هو أسماء وأوصاف الشخصيات، وما لا يتغير هو الأفعال التي تقوم بها، وهذه الدراسة مكنت "بروب" من ابتكار تحليل جديد يمكن تسميته بالمثال الوظيفي، ((وهو البنية الشكلية الواحدة التي تولد هذا العدد غير المحدود من الحكايات ذات التراكيب والأشكال المختلفة))[16].

لقد قدم "بروب" عن الشخصية في كتابه "مورفولوجيا الحكاية الخرافية" حيث اهتم في دراسته ((بالشكل على حساب المضمون فهو يعتبر الوظيفة عنصرا أساسيا في السرد، فدراسته تؤكد على تحليل الشخصيات من خلال وظائفها)) [17].

أما "رولان بارت" فهو من أهم النقاد الغربين الذين اهتموا بمفهوم الشخصية وطوروه عندما قال معرفا الشخصية الحكائية: ((بأنها نتاج عمل تأليفي))[18]، فهو بذلك يقصد أن ((هويتها موزعة في النص عبر الأوصاف والخصائص التي تستند إلى "اسم علم" يتكرر ظهوره في الحكي))[19]. فهي ليست "كائنا" جاهزا ولا "ذاتا" نفسية, بل هي حسب التحليل البنيوي بمثابة " دليل" له وجهان أحدهما "دال " والآخر "مدلول" فتكون الشخصية بمثابة "دال" عندما تتخذ عدة أسماء أو صفات تلخص هويتها, أم الشخصية "كمدلول" فهي مجموع ما يقال عنها بواسطة جمل متفرقة في النص, أو بواسطة تصريحاتها وأقوالها وسلوكها))[20]. العوامل التي تبقى ثابتة وفق منظومة معينة، وأن لهذه الشخصية عدد لا نهائي من الممثلين)) [21].

وإذا انتقلنا إلى الباحث والناقد "غريماس" فهو يرى أن الشخصية ((هي مجموعة أي أنه

ربطها من حيث المفهوم بمفهوم العامل، فهو يتعامل معها على أنها فاعلا في العمل فيكون النموذج العامل و"العوامل = الشخوص" وهي كالآتي:

- عامل الموضوع .
- عامل المرسل.
- عامل المرسل إليه
- عامل المعارض.
- عامل المساعد.
-

الشخصية من المنظور العربي:

أولى الكتاب والدارسون العرب أهمية قصوى للشخصية، نظرا للمقام الذي تشغله في عملية السرد، إذ تعتبر عند بعض النقاد العرب علامة من العلامات تضم تحت جوانحها الدال والمدلول، وهي تعيش داخل الرسالة أو في النص السردي حالها حال بقية العلامات من المكان والزمان والسرد والأحداث، فهي ليست إنسانا واقعيا، بل كائنا لغويا مستفادا، أو معطى في النص مبني بناءا لغويا خاصا، ويرى محمد غنيمي هلال أن الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية ومحور الآراء العامة، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة، منذ أن انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه, إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي، بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما، وإلا كانت مجرد دعاية، وفقدت بذلك أثرها الاجتماعي وقيمتها الفنية معا, فلا مناص من أن تحيا الأفكار وسط مجموعة من القيم الإنسانية، يظهر فيه الوعي الفردي متفاعلا مع الوعي العام, في مظهر من مظاهر التفاعل, حسب ما يهدف إليه الكاتب، ولا مناص من اتساق هذه الأغراض مع الغرض الفني، ومظهر الصراع النفسي الذي يقوم به الأشخاص ضد المجتمع وعوامل الطبيعة، وقد يقوم به الشخص ضد نفسه، والأشخاص في القصة والمسرحية كذلك مصدرهم الواقع، ولكنهم يختلفون عمن نألفهم أو نراهم عادة, في أنهم – في ضوء العرض الفني – أوضح جانبا))[22] .

أما عبد الملك مرتاض فهو يرى أن الشخصية هي التي تصطنع اللغة ((وهي التي تبث أو تستقبل الحوار وتصنع المناجاة، وهي التي تنجز الحدث، والشخصية تنهض بدور تضخيم الصراع أو تنشيطه من خلال أهوائها وعواطفها، وهي التي تقع عليها المصائب، كما أنها تملأ الوجود صياحا وضجيجا وحركة)) [23].

وأيما كان فإن المصطلح الذي نستعمله نحن مقابلا للمصطلح الغربي وهـــو "شخصية"، وذلك

على أساس أن المنطق الدلالي للغة العربية الشائعة بين الناس يقتضي أن يكون "الشخص" هو الفرد المسجل في البلدية، والذي له حالة مدنية والذي يولد فعلا ويموت حقا، بينما إطلاق الشخصية لا يخلو من عمومية المعنى في اللغة العربية، لذلك ارتأينا تمحيصه عند الحديث عن السرديات في الأدب، ضمن عطاءات اللغة التي يغذيها الخيال، للنهوض بالحدث وللتكلف بدور الصراع داخل هذه اللعبة السردية العجيبة.

وتنهض الرواية التقليدية على طائفة من الخصائص والتقنيات والعناصر كالشخصية، والحبكة والزمان والمكان والحدث والصراع داخل بنيتها ... كما تتميز البنية السردية في الرواية التقليدية، بالتزام المنطق القائم على تعليل الأشياء وربط بعضها ببعض))[24].

أنواع الشخصية الروائية:

تعد الشخصية الروائية محور العمل القصصي، فهي من تمنحه الحركة والحياة، فقبل أن يجعل الكاتب القارئ متعاطفا مع الشخصية، عليه أن يجعلها حية ومتحركة ومتطورة داخل السرد. وقد قسم النقاد الشخصية إلى عدة أقسام، فمنهم من رأى أن الشخصية نوعان "متحركة وثابتة" وهناك من يقول إنها "بسيطة ومركبة" ومنهم من يرى أنها تنقسم إلى أربعة أنواع: الشخصية الرئيسية – الشخصية المساعدة – الشخصية المعارضة – الشخصية الثانوية. وهذه الشخصيات تختلف فيما بينها باختلاف آراء النقاد ومرجعياتهم، إذ يمكن تقسيم الشخصية إلى رئيسية وثانوية حسب مشاركتها وارتباطها بأحداث الرواية، كما يمكن تقسيمها إلى متحركة وثابتة حسب تطورها، غير أننا سنكتفي في بحثنا هذا بالوقوف على الشخصية الرئيسية، باعتبارها المحور الأساس، والركيزة الأولى في بناء النص.

الشخصية الرئيسية:

يوجد في كل عمل روائي شخصيات تقوم بعمل رئيسي، إلى جانب شخصيات تقوم بأدوار ثانوية، فالشخصية الرئيسية هي التي تقود الفعل وتدفعه إلى الأمام، وليس من الضروري أن تكون الشخصية الرئيسية بطل العمل دائما، ولكنها هي الشخصية المحورية، وقد يكون هناك منافس أو خصم لهذه الشخصية)) [25]، أي أن لهذه الشخصية دور كبير في مجريات الأحداث داخل العمل القصصي.

وتوصف الشخصية بأنها رئيسية من خلال الوظائف المسندة إليها حيث ((تسند للبطل وظائف وأدوار لا تسند إلى الشخصيات الأخرى، وغالبا ما تكون هذه الأدوار "مفضلة" داخل الثقافة والمجتمع)) [26]، حيث تحظى هــذه الشخصية بقدر كبير من التميز، يمنحها حضورا طاغيا، وتحظى بمكانة مرموقة)) [27]، أي أن الكاتب يولي لها عناية خاصة وكبيرة، ويجعلها تتصدر قائمة الشخصيات الموجودة في العمل الروائي.

ويقوم الكاتب باختيار شخصية تلفت انتباهه ويظهر عناية بها، ويعطيها الأولوية في الوصف باعتبارها الشخصية الرئيسية التي تستقطب كل الشخصيات الأخرى، كما يهتم بتكوينها العام وأبعادها الاجتماعية والنفسية، لما لها من أثر في إشعال الأحداث، وذلك يخلق تطورات جديدة مستندة إلى قراءتها الصارمة والمتحدية التي تعبر عن رادة عالية في كثير من الأحيان، وبهذا تكون الشخصية قادرة على توالدية الحدث))[28]. يمكن أن نطلق على الشخصية الرئيسية الشخصية البؤرية، لأن بؤرة الإدراك تتجسد فيها، فتنقل

المعلومات السردية من خلال وجهة نظرها الخاصة، وهذه المعلومات على ضربين: ضرب يتعلق بالشخصية نفسها بوصفها مبأرا، أي موضع تبئير، وضرب يتعلق بسائر مكونات العالم المصور الذي يقع تحت طائلة إدراكه))[29].

وسنقف الآن على الأبعاد التي تدخل في تشكيل صورة هذه الشخصية ورسم ملامحها، والمتمثلة في البعد الخارجي، والبعد الاجتماعي، والبعد النفسي، كيفية توظيفها من قبل الكاتبة بما يخدم النص.

أبعاد الشخصية:

البعد الخارجي:

كان الاهتمام بالوصف الخارجي للشخصية الروائية كبيرا، وخاصة في القرن التاسع عشر وفي الرواية الفرنسية تحديدا، حيث احتفت هذه الرواية احتفاءا جعله يطغى على عناصر السرد الأخرى ((ويأتي ذلك في إطار حرص الرواية التقليدية عموما والواقعية خصوصا، على ايهام القارئ بصدق الشخصيات والأحداث وفاء لمبدأ الواقعية، القائم على توخي الصدق والأمانة في النقل عن الواقع الإنساني))[30] . وقد تعرض هذا النوع من الوصف للنقد، فقد اعتبره البعض وصفا تزينيا، لا يتجاوز تصوير الشخصية في بعدها المادي، وذلك عكس الرواية الجديدة التي يختلف فيها الوصف ((عن الوصف الواقعي، فهو وصف دقيق مفصل لكنه يتحاشى وصف الإنسان، ويركز على التفاصيل الخارجية الدالة عليه)) [31].

وقد خرجت بعض التصنيفات للوصف، منها انقسامه إلى وصف سكوني، يميل إلى إعطاء معلومات تمهيدية ثابتة عن الشخصيات منذ البداية، ووصف آخر يتسم بالحركة والتطور، فهو يتغير بتغير الأحداث ووضع الشخصيات الموصوفة، وهناك أيضا إلى جانب هذا النمط من الوصف أيضا، الوصف التعبيري الذي يميل إلى ((تكريس البعد الإيحائي للوصف بميله إلى الانتقاء، ومحاولة تناول وقع الشيء والإحساس الذي يثيره هذا الشيء في نفس الذي يتلقاه)) [32].

ولتضيق المنظور اتجاه الوصف الخارجي للشخصية، يجب التأكيد على نقطة غاية في الأهمية، وهي أن ((الوصف الخارجي للشخصية إذا لم يوظف في نسيج الرواية يصبح لغوا لا طائل من ورائه)) [33].ويكون وصف الكاتب للشخصية عادة، إما بطريقة مباشرة أو عن طريق احدى الشخصيات، أو من طرف الشخصية ذاتها عندما تصف نفسها، أو بطريقة غير مباشرة ضمنية مستنبطة من سلوكها وتصرفاتها))[34] ، أي أن البعد الخارجي يقوم على المظاهر الخارجية التي تبدوا عليها الشخصيات ((فهو يشمل المظهر العام للشخصية وملامحها وطولها وعرضها ووسامتها وذمامتها وضعفها وقوتها الجسمانية))[35] . كما يهتم الروائي باسم الشخصية ((ببعديها الديني والطبيعي لتحقق نوعا من التطابق طبيعة الاسم الراقية حضاريا ودينيا وطبيعيا وخلفية الشخصية العاكسة الإيجابية، وذلك ينفي عن الاسم حقيقة كونه مجرد علامة لغوية تربط القارئ بالشخصية وتذكره بالأحداث والمواقف) [36].

وبالنظر لروايتنا المختارة فإن شخصية "مريم" وهي احدى الشخصيات الرئيسية فيها، فقد منحها الكاتب هذا الاسم انطلاقا من رمزيته الدينية المحملة بدلالات الطهر والعفة والبراءة والصبر والمعاناة، وهو ما تجسد في سيرة السيدة العذراء، وما تعرضت له من إيذاء على يد قومها حين اتهمت في شرفها وعرضها، فكان صبرها على هذا الابتلاء رغم قسوته امتثالا لأمر ربها وطمعا في مرضاته، وأسقطت الكاتبة رمزية هذه الشخصية ودلالتها على شخصية "مريم" في رواية "النص الناقص" فقد تعرضت هي الأخرى للاتهام رغم الفارق في طبيعته بين الشخصيتين، حيث اتهمت "مريم" بالجنون من قبل زوجها وأهلها، فأودعت إثر ذلك المصحة العقلية رغم سلامة عقلها تقول "مريم": ((لا تصدقهم، أنا لست مجنونة ولا أعلم لماذا قالوا ذلك ومن فعل؟ توسلت إليهم جميعا زوجي وأمه والطبيب ألا يتركوني مع هؤلاء المجانين، وعبثا "عامر" عبثا، طلب الطبيب أن أبقى في المصحة العقلية، صدق زوجي وأمه)) [37].

هكذا عبرت "مريم" عن محنتها وآلامها التي تعرضت لها، لا لشيء سواء أنها تأخرت في الإنجاب، كما كانت على عدم وفاق مع زوجها الذي لم تختاره، فدفعه حنقه عليها هو وأهله إلى ضرورة عرضها على معالج روحاني، فزاد من مأساتها وأشبع جسدها حرقا وكيا بناره ((بعد حرقها بالنار وغرها بمياه شيخ الرقية حتى تستفرغ أحشاءها ويضيق نفسها ويلوي رأسها ويصعقها أن أخرج، أن أخرج مخاطبا جنه ساءت حالتها.

- قالوا حجامة شرطوا جسدي، شوهوه، وكان دمي يملأ قناني الزجاج أراه متجلطا محبوسا فيها يا "عامر" بدأت أفقد توازني، أفرغت من كل شيء، لم يكفهم انتزاع عواطفي مصوا دمي، ستكونين بخير اصمدي مريم)) [38] بعد كل هذا العذابات أودعت مريم المصحة العقلية ظلما وزورا.

أما وصف الشخصية الخارجي المتعلق بالجسد فيعمد الكاتب إلى ((استخدام مختلف الحواس في وصفه وبيان هيئته لتكتمل صورة الشخصية المضمونية، ولكي يلعب الوصف دوره الدلالي لابد للروائي من توظيف كامل طاقاته الفنية لإبراز الجزء الموصوف))[39] ، وهذا ما نلمسه في هذا الجزء من وصف شخصية مريم, حيث استخدم الكاتب حاسة البصر واللمس، وحتى السمع يقول الراوي : ((مريم قمحة لفحتها شمس فزان لامست بياضها, رطبة لامعة في عرجونها, متمهلة الخطوة مليحة وجذابة، تميزها فلجة خفيفة تتوسط ثنائيتها العليا تضيف لكلماتها المتأنية جمالا, وتلك النظرة المسترخية السارحة في الحلم, تمشي تلتف ساقاها داخلا حتى أخشى تعثرها، أمازحها "قبجة" لا يعجبها))[40].

وفي موضع آخر يقول عامر: ((وبدأت تحدثني عن نجمة، تتحدث بهدوء وبصوت خفيض، فم مضموم، وشفتان مرسومتان باكتناز تفرجان عن فلجة أضفت على لغتها طعما مختلفا))[41]. وهنا تضفي الكاتبة على الشخصية لمسة جمالية أخرى من خلال الوصف الجسدي، وكذلك الحسي عبر وصفها لصوتها وجمال لغتها، كما برعت إلى جانب ذلك في توظيف المكان الذي تقطنه "مريم"، مستوحية منه بعض ملامحها الخارجية، فجاء هذا الوصف منسجما مع طبيعة المكان ودلالاته.

((تتحدث كلاما حنونا ومسترخيا وتقف عند كل جملة. مترامية النظرات كصحرائها، وغنية كمورثها، إنها واحــة صحراوية ظليلة، نخلة سامقة بعراجينها وجدائلها، رسموا لها جسدا أنثويا، عينين وشفتين، وسرحوها في هذه الصحراء))[42]، وهذا ما درج الروائيون عليه عند تقديم شخصياتهم

الرئيسية : ((بفقرة تصف بالتفصيل المظهر الجسدي، وفقرة أخرى تحلل الطبيعة النفسية والخلقية))[43]. وهذا ما قامت به الكاتبة عند رسمها لشخصية "مريم" بداية من الاسم المختار ودلالاته التي وقفنا عليها، ثم الوصف الخارجي المتعلق بالشكل والملامح التي رسمت لهذه الشخصية، مستخدمة في ذلك كل الحواس التي من شأنها أن تجعل تعمق الصورة لدى المتلقي وتجعله أكثر قربا منها وأكثر واقعية.

البعد الاجتماعي:

يهتم هذا البعد بدراسة الشخصية حسب موقعها الثقافي والاجتماعي, وكل ما يتمحور حولها ويؤثر فيها, وقد ركزت المدرسة السيكولوجية على هذا البعد أكثر من غيره من الأبعاد الأخرى, نظرا لأهميته في تحديد شخصية كل فرد، وبيان قدرته في التعامل والتغلب على الظروف المعيشية, ((كما أن البعد الاجتماعي يهتم بتصوير الشخصية من حيث مركزها الاجتماعي وميولها وثقافتها, والوسط الذي تتحرك فيه))[44]، فالشخصية ترتبط بوسط اجتماعي معين تصارع فيه للعيش ولكسب الرفعة والتفوق وفق الظروف فقير– غني – ضعيف – قوي كما أن البعد الاجتماعي ((يتمثل في شبكة العلاقات الاجتماعية ومجموعة العادات والتقاليد والأعراف التي تنبيء عن المصدر الرئيس للقيم المحركة لهذا الفرد، وكذلك عوامل الانتماء، ووسائل الضبط الاجتماعي، والمكانة الاجتماعية، والأدوار التي يقوم بها الناس))[45] إلى جانب ذلك نستطيع أن نقف على جوانب أخرى يهتم بها الكاتب عند رسمه للشخصية ((تشمل كل ما يحيط بالشخصية ويؤثر في سلوكياتها وأفعالها, حيث يمكن نعرف من خلاله كل ما يتعلق بحياة الشخصية كالمستوى التعليمي وأحوالها المادية وعلاقاتها بكل ما حولها))[46]. وقد طرحت الرواية المختارة عدة قضايا, إلا أن أبرزها القضايا الاجتماعية التي كانت طاغية على مجمل النص, حيث كشف هذا البعد انتماء الشخصية الطبقي, وعلاقاتها بالمحيط الذي تعيش فيه, كما ترصد الظروف المعيشية للشخصية وما شابه ذلك, ويتجلى ذلك تسليط الضوء على الوضعية الاجتماعية في تلك الفترة، وما صاحبها من تقاليد وأعراف ومظاهر للجهل والتخلف, ساهمت سلبا على حياة الشخصية، وقد صورت الكاتبة الشخصية وهي تتخبط وسط أزمتها, التي صنعتها بعض العادات والتقاليد الاجتماعية والتي حولت حياتها إلى معاناة وآلام, فقد حرمت من الزواج من الشخص الذي تحبه لأسباب قبلية محضة .

يقول "عامر:" وهو الشخص الذي تعلقت به "مريم" وأحبته: ((رفض أهلي زواجي من "مريم"

كانت من بيئة مختلفة موطنها فزان، وكنت في نظر أهلها ابن قبيلة لافية مستوطنة)) [47]. كانت هذه احدى العادات والتقاليد التي سادت المجتمع وشكلت بعض أزمات أفراده، رغم أن شخصية "عامر" شخصية متعلمة ومثقفة، وكذلك شخصية مريم. كما جاء على لسانها ((أحمل دبلوما خاصا في الرسم، لكنني أتابع دراستي بالجامعة قسم علم الاجتماع ... وأعد الآن مشروعا بحثيا عنوانه (ظاهرة النص الذي لم يكتمل))[48] ،

ولكن رغم ما تتمتع به كل من الشخصيتين، لم تستطيعا كسر طوق هذه العادات، وحددت مصير حياتهما، إلى جانب هذا النمط من العادات الاجتماعية وقفت الكاتبة على قضايا اجتماعية أخرى، كبعض مظاهر الجهل والتخلف، كالشعوذة والدجل التي يلجأ لها البعض لحل مشاكلها الحياتية، وظروفهم المعيشية التي يواجهونها، وقد كانت "مريم" أحد ضحايا هذا الجهل، حين عمد زوجها وأهله إلى أحد الشيوخ بعد تأخرها في الإنجاب، فكانت تلك معاناة أخرى أضيفت لسابقاتها، ((بعد علاجها بالنار وغرها بمياه شيخ الرقية حتى تستفرغ أحشاؤها ويضيق نفسها ويلوي رأسها ويصفعها أن أخرج مخاطبا جنه ساءت حالتها))[49] ، هكذا كانت تنتقل "مريم" من معاناة إلى معاناة حتى حطت بها في إحدى المصحات العقلية, حين اتهمت بالجنون ولفقت لها الأكاذيب التي تبرر دخولها لهذه المصحة ((قالوا تهيم على وجهها على غير هدى، وتتخلى عن ملابسها، وقالوا أكثر من مرة تحاول خنق مولود لأنها لم تلد، وقالوا له تحاول الانتحار، كانت ستشعل النار في الدار، قلت يكذبون، لم أفعل أنا عاقلة قلت له أنا أستاذة رسم أحب تلاميذي ومدرستي وأعد مشروعا بحثيا للجامعة أسألوا أمي تعتمد علي))[50]. ورغم ذلك لم يفلح استجداؤها ولا توسلها للدكاترة وزوجها وأهله، ومحاولة اثبات سلامة صحتها العقلية، ولا حتى محاولة الهرب من هذا الجحيم الظالم الذي أنهك جسدها، فساءت حالتها شيئا فشيئا حتى أودى بها إلى الموت.

البعد النفسي:

يقصد بالبعد النفسي أو ما يسمى بالسيكولوجي، هو الجانب الذي يعكس الحلة النفسية للشخصية فهو إذا ((المحكي الذي يقوم به السارد لحركات الحياة الداخلية التي تعبر عنها الشخصية بالضرورة عن طريق الكلام، إنه يكشف عما تكشف عليه الشخصية دون أن تقوله بوضوح، أو هو ما تخفيه عن نفسها)) [51]. كما يتضمن النص السردي أيضا ((أوصاف داخلية والتي يبدع السارد الخارجي في تقديمها، بناء على قدرته في معرفة ما يدور في دهن الشخصية وأعماقها))[52].

حتى أن السارد هو الذي يقوم بالكشف عن أحوال الشخصية النفسية من مشاعر وعواطف وطبائع وسلوكيات، ومواقفها من القضايا التي تحيط بها، ولأن الشخصية ((من أصعب معاني علم النفس تعقيدا وتركيبا، وذلك لأنها تشمل كل الصفات الجسمية والوجدانية والخلقية في حال تفاعلها مع بعضها البعض)) [53].

ويتميز هذا البعد في طابع الشخصية وما يميزها عن باقي الشخصيات، كأن تكون طيبة أو شريرة، كما يتجسد فيما تقوم به أو تقوله، وما يظهر عليها أيضا من انفعالات (حزن – فرح – غضب) كما يتمثل البعد النفسي في الصراع الداخلي، وذلك من خلال الحوارات الداخلية المختلفة، وقد لعب المنهج النفسي دورا كبيرا في تحليل النصوص الأدبية، وخاصة الروائية منها، عبر آلياته التي وظفها الروائيون في رسم شخصياتهم، الداخلية والخارجية منها.

سنبدأ في تحليل البعد النفسي بداية بعنوان الرواية، الذي يعتبر العتبة الأولى لفهم النص. يعرفه "لوي هويك" في كتابه "سمة العنوان" على أنه ((مجموعة من العلامات اللسانية من كلمات وجمل وحتى نصوص, قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعينه، تشير لمحتواه الكلي لتجذب جمهور مستهدف))[54] من خلال هذا التعريف يظهر جليا بأن للعنوان أهمية ووظائف يؤديها، فهو ليس مجرد كلمة أو جملة اشهارية، بل يتعدى ذلك ليعبر عن محتوى النص، باعتباره علامة دالة لمدلوله أي محتواه, وعنوان روايتنا "النص الناقص" أعطى دلالة النقصان لكل آمال الشخصيات في الرواية وطموحاتها وأهدافها وأمنياتها التي لم تكتمل, وحالت الظروف دون تحقيقها.

أما إذا انتقلنا لغلاف الرواية نجد أن العنوان كتب بخط غليظ اسفل الصفحة, بينما كتب اسم الروائي بخط متوسط أعلى الصفحة, والاثنان كتبا باللون الأحمر، ربما للدلالة على حجم الآلام والمعاناة التي تعرضت لها شخصيات الرواية، بينما يتوسط الغلاف صورة لامرأة حزينة ناقصة الملامح، حيث غاب الفم من الوجه للدلالة على كتمان صوتها وإخراسه، وعدم قدرتها أيضا على ايصال ما تريد ايصاله, من جانب آخر نجد أن الصورة أحيطت بهالة من الظلام تعبيرا عن ما أحيط بالشخصية من ظروف حولت حياتها إلى كابوس مظلم, لم تستطع الخروج منه إلا بالموت .أما بالنسبة لشخصية "مريم" من الناحية النفسية فهي شخصية فتاة كأي فتاة, أملت تعليمها بحصولها على دبلوم خاص في الرسم, مما أضفي على شخصيتها شيء من لرقة والهدوء، كما عرفت بطيبتها وخلقها الكريم ((محظوظة نجمة بها, هذه مريم, كم هي خلوقة وراقية))[55] ، وهذه شهادة في شخصها، غير أن حياتها تحولت إلى آلام وعذابات عندما ارغمت على الزواج من شخص لا تحبه، وبذلك فقدت حلمها وأملها في الارتباط بمن تحب، وتحولت حياتها إلى حالة من الحزن والإحباط وعدم المبالاة.

((سأتزوج عليك.. يطلب الولد.

- تزوج لا مانع لدي.. يمتعض.
- أنت امرأة باردة هذا هو السبب. هل تكرهيني؟
- – لا أرد لا أرد.
- إني أسألك؟
- ولمَ أكرهك؟ ماذا أفعل ليس بيدي)) [60].

هذا الحور بين "مريم" وزوجها يعكس حالة الإحباط الشديد التي وصلت له، وعدم اكتراثها بحياتها الزوجية التي أجبرت عليها، بل الأمر عند هذا الحد في مسيرتها الحياتية، بل أصبحت ترفض أي شيء يربطها بهذا الزوج، حتى الأمومة منه كانت ترفضها ((لن أنجب منه.. لن أنجب منه.. أبدا لن أنجب منه))[61] ، هذا الرفض دفع بالزوج للشك في قدرة "مريم" على الإنجاب، فلجأ إلى شيوخ الشعوذة والدجل لتحقيق هدفه, مما زاد من آلام وعذابات "مريم" الجسدية, إلى جانب آلامها النفسية ((أتقصد عرقا وصرخاتي تتصارع في فضاء الحرارة، وأنا أتمعن كرات الحرارة الملتهبة أمامي, داخل الإناء الفخاري الأسود, وتلك العجوز المتهدمة تقلب

الحديد من أحشاء النار وتحشده جهنما، لتغرسه في أحشائي))[62] ، صورة من الألم الرهيب التي تعانيه الشخصية وتتجرع ويلاته، وعندما لم يفلح الزوج وأهله للظفر بالولد من خلال هذه المحاولة البائسة, كان ردهم انتقاميا فرميت "مريم" بالجنون وأودعت المصحة العقلية, لتنتقل "مريم" إلى مرحلة أخرى في حياتها, ليست أقل تعاسة من 1سابقتها, ولم تجد من يساندها في محنتها, حيث فقدت دعم الأهل والحبيب, الذي شكت هو الآخر في صدق مشاعره ووفائة، ففقدت الثقة به وشعرت بأنه خذلها, فزادها يأسا على يأسها، وحزنا على حزنها ((أحيانا أشعر ببرودة نبضك .. بفتور ردة أفعالك.. أتراجع أشعر بالخذلان.. سرعان ما تفند ذلك كلماتك.. فمن أصدق؟ لست منطقيا ولن تكون يا "عامر" ربما جنون الفنان.. أستغرب سيطرت تفكيرك العاطفي وأنت المثقف الواعي، فكيف غيرك؟ أنت أيضا لا تعرف نفسك.. ماذا فعلت من أجلي.. لم تستطع حتى الزواج مني.. حتى زيارتي في المصحة.. حتى مساعدتي.. حتى دعمي.. أفعالك غير أقوالك))[63] ، كلمات تقطر مرارة بالإحساس بالخذلان والتنكر من أحب الناس، فما أصعب هذا الشعور، وهذا ما دفع "مريم "المسكينة إلى البحث على منقذ، ولو كان هذا المنقذ وهما تعيشه. ((إنه مجرد عنكبوت أيتها البلهاء، أتضحكين لعنكبوت؟ وأخذت تنظر إليه، هل فيه ما يشدك؟ إلا لأنك مجنونة.. بلا عقل.. كنت استرق النظر إليه.. أحببته يبدوا كذلك، ابتسامته راقت لي الليلة، همس لي أن اقتربي فعلت مستسلمة، كان يخرج صوتا كأجراس متصلة في تقاطعات جميلة تصلني في كلمات، أنت رائعة "مريم" أنت لست مجنونة، سآخذك إلى زلاف رمال سبها التي تعشقيها، هناك ستقابلين روح أمك وعامر وكثر)) [64].هكذا تحولت هذه الحشرة في نظر "مريم" إلى منقد، رأت فيه وحده القادر على انتشالها من هذا الجحيم الذي تعيشه، وهذا الكابوس الذي أحاط بها وأصبحت أسيرته.

غير أن حالة الوهم هذه التي أصبحت تراودها من حين لآخر، باتت تخشى على عقلها منها وتشك في سلامته ((لست بخير بت أخشى هذا الخيال لصيق السقف، صار يبالغ في النظر إلي، أظنه تعود علي منذ ذلك اللقاء، وتلك الضحكة التي ترسلها "نجوى" المجنونة أيضا زادت عن حدها، تضحك وتقترب من وجهي, لا أقوى على النظر في عينيها، أخشى أن أصاب بالعدوى, فهل ينتقل الجنون؟ هل الجنون معدي مثل أي فايروس، لابد أنه كذلك، لأن الأفكار تنتقل من شخص لآخر؟))[65] ، هي حالة من الوسواس دخلت فيها "مريم" وبدأت تتسرب لعقلها وتدخله في متاهة, وقد يصل الوسواس أحيانا بالإنسان لحالة الجنون فهو ((إحساس شديد القسوة، يبرز على الذهن بصفة متكررة، وعادة مرعبة تكون الفكرة عنيدة مؤلمة، وتحدث قلقا قويا مع كل ما يصحبه من معاناة فيزيولوجية ونفسية))[66] ، وهذا ما أصبح يزعج "مريم" ، وعبرت عن خشيتها منه، وبدأت تفكر جديا في الهرب بعد أن يئست من العثور على طريقة للخروج من هذه المصحة التي أرهقتها جسديا ونفسيا .

((هيا نهرب... لا "مريم" الساحة مكشوفة ومضيئة ليل نهار ولا أمل، سيكتشف أمرنا وسنعاقب.. كل النوافذ متربسة بالحديد.. سأفكر يا "سعاد" سأفكر بطريقة... أختبئ في سيارة المؤونة.. سأتنكر في زي ممرضة.. لن أرضخ لها)) [67]، تمكنت "مريم" من الهرب فعلا، لكن ما لبت أن عثر عليها، لتقضي أيامها

الأخيرة بهذه المصحة العقلية وتتوفى بها، بعد تدهورت حالتها الصحية، ولم يعد جسدها قادرا على الاستمرار بهذه الحياة البائسة، بل لعله رفضها هو الآخر، وأرغم روحها على مفارقته ليحررها من هذا الواقع المتردي.

الخاتمة:

وقفنا من خلال هذا البحث على الشخصية الروائية، باعتبارها المكون الأساس في النص، والوسيلة التي يستطيع من خلالها الكاتب التعبير عن أفكاره وآرائه، وتناول عدة قضايا تمس الفرد والمجتمع. وقد ركزنا في بحثنا هذا على الأبعاد الأساسية التي يرتكز عليها بناء الشخصية، كالبعد الخارجي، والبعد الاجتماعي، والبعد النفسي، فهي محط اهتمام الكاتب وعنايته عند رسمه للشخصية، وبيان ملامحها الداخلية والخارجية، ومن خلال تتبعنا لهذه الأبعاد عبر النص وقفنا على النتائج الآتية:

- استوحت الكاتبة عند رسمها لملامح الشخصية من طبيعة المكان نفسه، فجاء هذا الرسم والتصوير منسجما مع تكوينها الداخلي والخارجي، وأكثر واقعية واقناعا بها.
- أخذ البعد الخارجي مساحة كبيرة في النص، لكثرة ما طرحته الكاتبة من قضايا اجتماعية وسياسية، عملت على اسقاط الضوء عليها، وبيان أثرها على الواقع المعاش.
- إلى جانب البعدين السابقين، كان للبعد النفسي أيضا أهميته ودوره في بناء الشخصية، والكشف عن طبيعتها وردود أفعالها اتجاه ما تعرضت له من محن مرت بها.

شكلت الأبعاد الثلاثة التي تحدثنا عنها آنفا، أهم الأبعاد التي ركزت عليها الكاتبة عند بنائها للشخصية، والتي حاولت من خلالها تقريب الصورة للمتلقي، وجعله أكثر قدرة على قراءة الشخصية وفهم أبعادها، ودورها الكبير في بناء النص الروائي.

الهوامش:

1. شكري ماضي، فنون النثر العربي الحديث، الشركة العربية للتسويق، القاهرة / د ط, 2017 ,ص30.
2. رولان بورنوف، عالم الرواية، ص143.
3. جورج لوكاتش، دراسة في الواقعية، ت صالح جواد، العراق، ط2, 1986 , ص28.
4. ابن منظور، لسان العرب المجلد 7 مادة "ش خ ص " , دار صادر , بيروت لبنان , د.ط , 1975 , ص45 .
5. 2– معجم اللغة العربية بالقاهرة: معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر / ط5 ,2011 , ص475
6. سورة الأنبياء، الآية 79 .
7. 4 . إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، دار محمد علي الحامي للنشر، تونس، د.ط, 1986, ص210 .
8. جبران مسعود، الرائد معجم لغوي عصري المجلد 2 , دار العلم للملايين، بيروت، ط5 1985, ص859.
9. قيس عمر محمد، البنية الحوارية في النص المسرحي، دار غيداء للنشر، الأردن، ط1, 2012 /ص. 144

10. ينظر نادر عبد الخالق، الشخصية الروائية بين أحمد باكثير ونجيب الكيلاني، دراسة موضوعية فنية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، ط1, 2009 / ص42.
11. عبد المنعم زكرياء، البنية السردية في الرواية، مجلد عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة مصر، ط1 , 86, 2009.
12. حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط3 2000 , ص 50.
13. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي / بيروت، ط1 1990 , ص213.
14. – السيمائيات السردية بين النمط السردي والنوع الأدبي، أعمال الملتقى السيميائي والنص السردي / قسم اللغة العربية آدابها، جامعة ناجي مختار، عنابة الجزائر، د ط , 1995 , ص15 – 17.
15. ينظر فيليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائية، ت سعيد بن كراد، تقديم عبد الفتاح كيليطو، دار الحوار/ المغرب، د.ط دت، ص7.
16. سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د ت، ص24 .
17. – حميد الحمداني، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص23 , 24.
18. محمد عزام، شعرية الخطاب السردي دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط , 2003 ,ص11
19. حميد الحمداني، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص 57.
20. محمد عزام، شعرية الخطاب السردي، مرجع سابق، ص11.
21. . ناصر الحجيلان، الشخصية في قصص الأمثال العربية، النادي العربي، الرياض، د.ط , 2009، ص70.
22. محمد غنيمي هلال، النقد العربي الحديث، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، د.ط , 1988 , ص526.
23. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات الكتابة الروائية، المجلي الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط , 1998 , ص16.
24. المرجع نفسه، ص85.
25. ينظر صبيحة عودة، جماليات السرد في الخطاب الروائي، دار مجدلاوي، عمان الأردن، ط1, 2006 , ص131 , 132.
26. محمد أبو عزة، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1, 2010 ، ص53.
27. محمد أبو عزة، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم ص56.
28. ينظر منصور النعمان، فن كتابة الدراما للمسرح والإذاعة والتلفزيون، دار الكندي للنشر، الأردن د.ط, 1999 , ص99.
29. محمد القاضي، معجم السرديات، د ط د ت، الرابطة الدولية للناشرين الفلسطينيين، ص271.
30. تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، آمنة يوسف، دار الحوار للنشر، اللاذقية سوريا، ط1 ,1997 , ص94.
31. سيزا قاسم، بناء الرواية، دار التنوير، بيروت لبنان، د.ط , 1985 , ص81.
32. ينظر تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، مرجع سابق , 95.
33. الرواية والأيديولوجيا، فادية المليح حلواني، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط1 , 1998 , ص208.
34. فاطمة نصير، المثقفون والصراع ع الايديولوجي في رواية أصابعنا التي تحترق لسهيل إدريس، مذكرة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر , 2007 , 2008 , ص84.
35. عبد الكريم الجبوري، الابداع في الكتابة الروائية، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط1 , 2003 , ص88.

36. الشخصية الروائية عند خليفة حسين مصطفى، حسن الأشلم، مجلس الثقافة العام، سرت ليبيا، د.ط , 2006 , ص396 ,397.
37. رواية النص الناقص، عائشة الأصفر، نشر وتوزيع مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ليبيا، ط2, 2019 , ص 31.
38. المصدر نفسه، ص22 , 23
39. بين الثقافة والسياسة، عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1, 1998 , ص419
40. رواية النص الناقص، عائشة الأصفر، مصدر سابق، ص9
41. رواية النص الناقص، عائشة الأصفر، ص12.
42. رواية النص الناقص، عائشة الأصفر، ص12ص13 ، 14.
43. نظرية الأدب، رينيه ويلك وأوستن واين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2, 1981 , ص229.
44. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، د ط , 1998 , ص416.
45. حسين عبد الحميد أحمد، الشخصية دراسة في علم الاجتماع النفسي، مركز الاسكندرية للكتاب، د ط 2006 , ص69.
46. جيرار جينيت، نظرية السرد (من وجهة نظر التبئير) نر ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي، ط1, 1989 ص108.
47. رواية النص الناقص، عائشة الأصفر، مصدر سابق، ص22.
48. رواية النص الناقص، عائشة الأصفر، مصدر سابق، ص14.
49. المصدر نفسه، ص22.
50. المصدر نفسه، ص 31.
51. أحمد مرشد، البنية والدلالة في روايات ابراهيم نصر، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط1, 2005 , ص68.
52. عبد المنعم الميلادي، الشخصية وسماتها، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د ط , 2006 , ص25.
53. صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، ط1, 2003 ,ص121.
54. عبد الحق بلعابد، (تيميات جيرار جينيت من النص إلى المناصب)، تر سعيد يقطين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 , 2008 , ص67.
55. رواية النص الناقص، عائشة الأصفر، مصدر سابق، ص35.
56. رواية النص الناقص، عائشة الأصفر، مصدر سابق، ص22.
57. المصدر نفسه، ص25.
58. المصدر نفسه، ص24.
59. المصدر نفسه، ص200.
60. رواية النص الناقص، مصدر سابق، ص93.
61. المصدر نفسه، ص114.
62. بيير داكو، الانتصارات المدهشة لعلم النفس، تر: بوجابي محمد الشريف ومحمد شلبي، الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، د ط , 2007 , ص256.
63. رواية النص الناقص، عائشة الأصفر، مصدر سابق، ص177.

المصادر والمراجع

1) إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، دار محمد علي الحامي للنشر، تونس، د.ط, 1986.
2) أحمد مرشد، البنية والدلالة في روايات ابراهيم نصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1, 2005.
3) بين الثقافة والسياسة، عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1, 1998.
4) – بيير داكو، الانتصارات المدهشة لعلم النفس، تر: بوجابي محمد الشريف ومحمد شلبي، الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، د ط , 2007.
5) تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، آمنة يوسف، دار الحوار للنشر، اللاذقية سوريا، ط1 ,1997.
6) جبران مسعود، الرائد معجم لغوي عصري المجلد 2 , دار العلم للملايين، بيروت، ط5 1985.
7) جورج لوكاتش، دراسة في الواقعية، ت صالح جواد، العراق، ط2, 1986.
8) جيرار جينيت، نظرية السرد (من وجهة نظر التبئير) نر ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي، ط1, 1989.
9) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي / بيروت، ط1.
10) حسين عبد الحميد أحمد، الشخصية دراسة في علم الاجتماع النفسي، مركز الاسكندرية للكتاب، د ط 2006.
11) حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط3 2000.
12) رولان بورنوف، عالم الرواية.
13) الرواية والأيديولوجيا، فادية المليح حلواني، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط1 , 1998.
14) سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د ت،
15) سيزا قاسم، بناء الرواية، دار التنوير، بيروت لبنان، د.ط , 1985.
16) السيمائيات السردية بين النمط السردي والنوع الأدبي، أعمال الملتقى السيميائي والنص السردي / قسم اللغة العربية آدابها، جامعة ناجي مختار، عنابة الجزائر، د ط , 1995.
17) الشخصية الروائية عند خليفة حسين مصطفى، حسن الأشلم، مجلس الثقافة العام، سرت ليبيا، د.ط , 2006.
18) شكري ماضي، فنون النثر العربي الحديث، الشركة العربية للتسويق، القاهرة / د ط, 2017.
19) صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، ط1, 2003.
20) صبيحة عودة، جماليات السرد في الخطاب الروائي، دار مجدلاوي، عمان الأردن، ط1, 2006.
21) عائشة الأصفر، رواية النص الناقص، نشر وتوزيع مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ليبيا، ط2, 2019.
22) عبد الحق بلعابد، (تيميات جيرار جينيت من النص إلى المناصب) , تر سعيد يقطين , منشورات الاختلاف , الجزائر , ط1 , 2008
23) عبد الكريم الجبوري، الابداع في الكتابة الروائية، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط1 , 2003.
24) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات الكتابة الروائية، المجلي الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط.
25) عبد المنعم زكرياء، البنية السردية في الرواية، مجلد عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة مصر، ط1.
26) عبد المنعم الميلادي، الشخصية وسماتها، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د ط , 2006.

27) فاطمة نصير، المثقفون والصراع ع الايديولوجي في رواية أصابعنا التي تحترق لسهيل إدريس، مذكرة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر , 2007 , 2008.

28) فيليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائية، ت سعيد بن كراد، تقديم عبد الفتاح كيليطو، دار الحوار/ المغرب، د.ط دت.

29) قيس عمر محمد، البنية الحوارية في النص المسرحي، دار غيداء للنشر، الأردن، ط1, 2012.

30) 2محمد أبو عزة، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1, 2010.

31) محمد عزام، شعرية الخطاب السردي دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط , 2003.

32) محمد غنيمي هلال، النقد العربي الحديث، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، د.ط , 1988.

33) محمد القاضي، معجم السرديات، د ط د ت، الرابطة الدولية للناشرين الفلسطينيين.

34) معجم اللغة العربية بالقاهرة: معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر / ط5 ,2011.

35) منصور النعمان، فن كتابة الدراما للمسرح والإذاعة والتلفزيون، دار الكندي للنشر، الأردن د.ط, 1999.

36) ابن منظور، لسان العرب المجلد 7 مادة "ش خ ص " , دار صادر , بيروت لبنان , د.ط , 1975 .

37) نادر عبد الخالق، الشخصية الروائية بين أحمد باكثير ونجيب الكيلاني، دراسة موضوعية فنية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، ط1, 2009.

38) ناصر الحجيلان، الشخصية في في قصص الأمثال العربية، النادي العربي، الرياض، د.ط , 2009.

39) نظرية الأدب، رينيه ويلك وأوستن واين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2, 1981.

التحليل المكاني لتوزيع المدارس الثانوية في مدينة طبرق

(دراسة في الجغرافية)

إعداد

الدكتور / عبد العزيز بوحليقه

جامعة طبرق / كلية الآداب / قسم الجغرافيا

العدد الثالث عشر – يوليو – 2023 م

الملخص .

اهتمت هذه الورقة بدراسة التوزيع المكاني للمدارس الثانوية بمدينة طبرق، لكونها مرحلة لها دورها في بناء الموارد البشرية، بهدف تحديد نمط التوزيع المكاني لهذه المدارس، والتوزيع العددي لطلابها، واستخدام بعض المعايير التي تبيّن مدى كفاية مبانيها في استيعاب طلاب هذه المرحلة، والعوامل المؤثرة في توزيعها، هذا واستخدم المنهج الوصفي التحليلي والمنهج التاريخي، إلى جانب وبعض الأساليب العلمية كتقنية نظم المعلومات الجغرافية والأساليب الاحصائية خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج منها أن نمط التوزيع المكاني لمدارس التعليم الثانوي اتخذ نمطًا عشوائيًا، إلى جانب قصورها في تغطية احتياج المدينة، وعدم استيعابها للطلاب المرحلة.

هذا واقترح البحث إنشاء مدارس ثانوية بالأحياء التي تفتقر لهذا النوع من المدارس، مع مراعاة المعايير التخطيطية والتربوية، لسد العجز الذي تبيّن من القدرة الاستيعابية للمدارس، وارتفاع كثافة الفصل.

الكلمات المفتاحية: نمط التوزيع، نطاق التأثير، التوزيع العددي، المسافة المعيارية.

Abstract

This paper is concerned with the study of the geographical distribution of secondary schools in the city of Tobruk, as it is a stage that has a role in building human resources, with the aim of determining the pattern of spatial distribution of these schools, the numerical distribution of their students, and the use of some criteria that show the adequacy of their buildings in accommodating students of this stage, and the factors affecting distribution, and the descriptive analytical and historical approaches were used, along with some scientific methods such as geographic information systems technology and statistical methods. Stage.

The research suggested the establishment of secondary schools in neighborhoods that lack this type of school, taking into account the planning and educational standards, to bridge the existing deficit, which was evident through testing the absorptive capacity of schools, and the high class density.

Keywords: distribution pattern, influence range, numerical distribution, standard distance

المقدمة.

نسعى في هذه الورقة إلى دراسة التحليل المكاني لنمط توزيع المدارس الثانوية، وعلاقتها بتوزيع السكان بأحياء مدينة طبرق، ومحاولة معرفة العوامل التي ساهمت في إرساء هذا النمط من التوزيع، وإنشاء قاعدة بيانات جغرافية اعتمادا على تقنية نظم المعلومات الجعرافبة لإنتاج خرائط رقمية تظهر توزيع المدارس الثانوية فيما بين أحياء المدينة، وتقييم مدى التوازن المكاني لتوزعها، وتتبع التطور التاريخي منذُ نشأة أول مدرسة ثانوية وصولا إلى ما هي علية في الوقت الحاضر، أضف إلى ذلك معرفة أعداد الطلاب المسجلين بالمدارس الثانوية، وعلاقة ذلك بأعداد المعلمين.

مشكلة الدراسة:

تتعدد المشكلات التي تصاحب الحياة بالمدن نتيجة تداخل أنظمة بيئية مختلفة وتعقيدها، وغالبًا تأتي بسبب النمو السكاني، والتوسع الحضري المفرط بدرجة تفوق إمكانية البيئة المتاحة (بيئة المدينة)، ومن هذا المنطلق تتمحور مشكلة الدراسة لتسلط الضوء على: توزيع المدارس الثانوية بالمدينة، وعلاقته بالتوزيع السكاني بها، ومدى ارتباطه بالتوسع الحضري للمدينة، وما ينجم عن هذا التوزيع من تأثيرات على بيئة المدينة، ويمكن تناول هذا الموضوع بالإجابة عن التساؤلات التالية:

1- ما نمط التوزيع المكاني للمدارس الثانوية بمدينة طبرق؟
2- ما العوامل التي ساهمت في توزيع المدارس الثانوية مدينة طبرق؟
3- ما علاقة توزيع المدارس الثانوية بتوزيع الكثافة السكانية بمدينة طبرق؟
4- هل التوزيع الحالي للمدارس الثانوية يحقق توازنا بين أحياء المدينة؟

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى التعرف على نمط التوزيع المكاني للمدارس الثانوية بمدينة طبرق، وعلاقته بتوزيع الكثافة السكانية بها، ومدى تحقيقه للعدالة المكانية فيما بين أحياء المدينة، والتعرف على الأسباب التي أرست هذا التوزيع، وصولاً إلى الإيجابيات والسلبيات الناجمة عن التوزيع الحالي لمدارس الثانوية بمدينة طبرق، بغية فهمها ووضع الحلول المناسبة للمشاكل حال وجودها.

أهمية الدراسة:

1- تُعتبر هذه الدراسة أول دراسة جغرافية تهتم بدراسة طبيعة التوزيع المكاني لمدارس التعليم الثانوي بمدينة طبرق.

2- إظهار الإيجابيات والسلبيات الناجمة عن توزيع المدارس الثانوية، والمساهمة في مساعدة صناع القرار في وضع الحلول المناسبة.

3- تظهر هذه الدراسة دور نظم المعلومات الجغرافية في التحليل المكاني للظواهر المختلفة، وطبيعة توزيعها وعلاقتها بالظواهر الأخرى.

مبررات الدراسة:

يعود مبرر دراسة هذا الموضوع للوقوف على الأوضاع التي تعاني منها المدارس الثانوية بالمدينة بسبب سوء توزيعها المكاني لتلك الخدمات واقتراح الحلول المناسبة لها، علاوة عن تناول هذا الموضوع من وجهة نظر جغرافية مستعيناً بتقنية نظم المعلومات الجغرافية في عمليات التحليل المكاني.

منهجية الدراسة:

تعددت مناهج البحث الجغرافي مما أتاح فرصة استخدام المنهج المناسب الذي يمكن الاعتماد عليه لتحقيق أهداف البحث، ومنها المنهج التحليلي الوصفي وذلك للوصول إلى حقائق علمية مرتبطة بتوزيع الظاهرة مكانياً، هذا بالإضافة إلى تحليل الكثافة الذي يوضح بصورة كارتوجرافية مدى التغير في كثافة توزيع مفردات الظاهرة على امتداد منطقة الدراسة، علاوة عن استخدام بعض الأساليب الإحصائية، التي نرى عند استخدامها إظهار نتائج تفيد أغراض البحث.

تختلف أساليب التحليل المكاني باستخدام نظم المعلومات الجغرافية باختلاف نوع البيانات المكانية المدروسة إذا كانت نقطية، أو خطية، أو مساحية، بما أن بيانات هذه الورقة تشمل مدارس التعليم الثانوي وتمثيلها على الخريطة يكون على هيئة نقط، يناسب تحليلها ــ بعد إدخال بياناتها وتكوين قاعدة بيانات لها وعرضها كارتوغرافياً- كل من وظيفة الجار الأقرب، والوسط الجغرافي، ومركز الثقل الجغرافي، والمسافة المعيارية.

منطقة الدراسة:

يوضح الشكل(1) موقع مدينة طبرق، الواقعة شمال شرقي ليبيا على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، تبعد عن ثاني مدن ليبيا من حيث الحجم (بنغازي) مسافة 470 كم، ويفصلها عن الحدود المصرية مسافة 140 كم، وهي ثاني أكبر مدن إقليم بنغازي التخطيطي وتعد مركزاً للخدمات بإقليمها, وميناؤها المهم. ويضم مخططها العمراني 24 حي سكني بالإضافة إلى الحي الصناعي بداية من حي القدس غربًا إلى حي المنارة شرقا.

فلكياً تقع عند تقاطع خط طول 23.56,44 ودائرة عرض 32.05,09 وبهذا التحديد الفلكي تصبح مدينة طبرق واقعة في الربع الشمالي الشرقي من الكرة الأرضية، ضمن المنطقة المعتدلة.

يبلغ عدد سكانها حسب تعداد 2006 حوالي 105434 نسمة، غير أن هذا العدد تزايد كثيرًا في الآونة الأخيرة نظرًا لما تتمتع به المدينة من أمن واستقرار، وكذلك وجود مجلس النواب الذي ساهم في تزايد الهجرة الداخلية القادمة من المدن الغربية.

شكل (1) موقع منطقة الدراسة

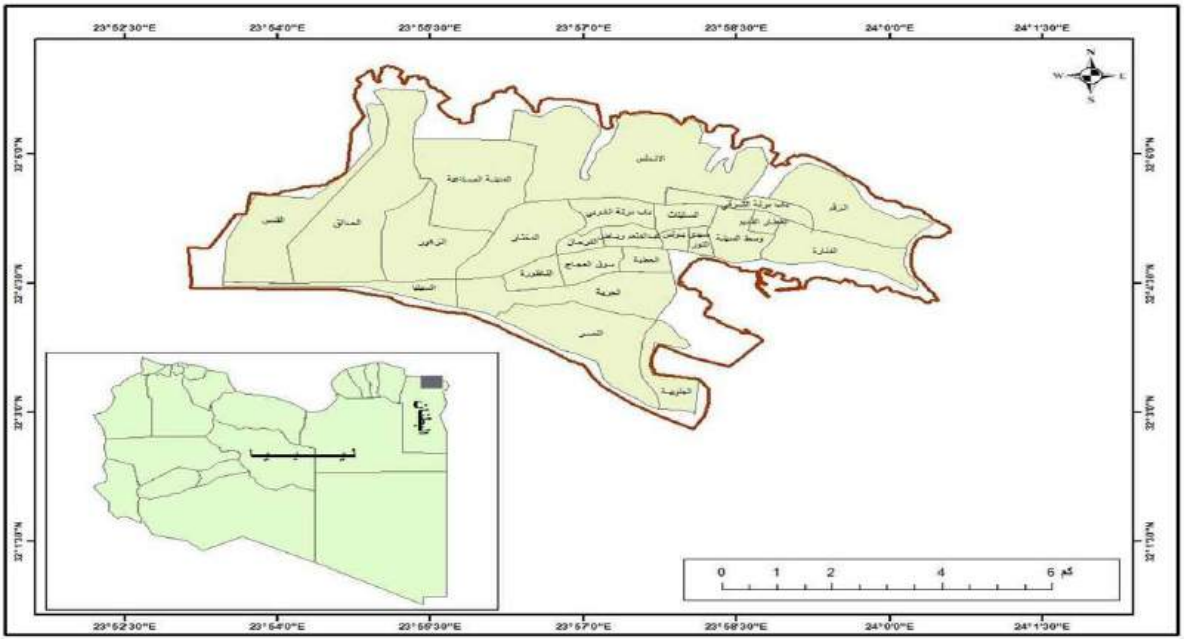

المصدر: عمل الباحث بالاعتماد غلى مرئية فضائية حددت عليها حدود الاحياء وفق مخطط مدينة طبرق 2010م.

حدود الدراسة:

يشمل كل المدارس الثانوية التابعة للقطاع العام الواقعة داخل نطاق مخطط المدينة العمراني، والذي يشمل حوالي 24 حيًا تبدأ من حي القدس غربًا حتى حي المنارة شرقًا، متباينة من حيث المساحة وعدد السكان. وصل عدد المدارس الثانوية خلال العام الدراسي 2022 / 2023 م حوالي 9 مدارس منها ثلاث مدارس خُصصت للطلاب الذكور، وست مدارس خصصت للطالبات.

مصادر البيانات:

تعددت مصادر البحث، وصنفت في هذه الورقة ما بين مصادر مكتبية وميدانية وهي على النحو التالي:

المصادر المكتبية:

يعتمد البحث على المصادر المكتبية متمثلة في الكتب والمراجع ذات العلاقة بموضوع البحث، إضافة إلى الخرائط الطبوغرافية للمدينة بمقاييس مختلفة، ومرئيات فضائية، وصور جوية.

المصادر الميدانية:

يعتبر العمل الميداني أحد أهم مصادر البيانات لهذه الورقة البحثية، لتوقيع جميع مدارس المرحلة الثانوية كما هي في أماكنها على الخرائط، لذلك تم تصميم بطاقة للعمل الميداني، حدد فيها حقولا للمدارس الثانوية التي بلغ عددها 9 مدارس، وأسماءها وعناوينها كما وردت من إدارة التعليم، وذلك بعد توزيعها حسب الأحياء، وترك حقول إحداثياتها والعنوان إذا أكتنفه تغيير لتعبئتها من الحقل، وقد تم في هذه المرحلة الاستعانة بجهاز تحديد المواقع العالمي GPS وضبط إحداثياته وفق الإحداثيات الكيلومترية UTM، لكونه النظام المعتمد في خرائط الدراسة؛ للاستفادة منه في تحديد مواقع مدارس التعليم الثانوي أثناء العمل الميداني، بهذا تم رصد كل مدارس المرحلة، وإدخالها إلى برنامج نظم المعلومات الجغرافية، وتوقيعها على خريطة مخطط مدينة طبرق، وإجراء اساليب التحليل المكاني لها، ومن ثم إخراج خرائط وأشكال تفيد أغراض الدراسة.

الدراسات السابقة:

الإلمام بالدراسات السابقة ينير الطريق أمام الباحث ويعطيه خلفية عن موضوع الدراسة، بحيث يعرف أخطاء من سبقوه في تناول موضوع الدراسة، وأوجه القصور التي لحقت بدراستهم ويتجنبها، كما أنها تعطيه معلومات تساعده في دراسة الموضوع بالطريقة المنهجية الصحيحة، فضلاً عن كونها دليل مرجعي يسترشد به الباحث، لذلك تم الاطلاع على مجموعة من الدراسات نذكر منها ما يلي:

دراسة المنقوش 2018م[1] المعنونة بـ: التحليل المكاني لتوزيع مدارس التعليم الثانوي في نطاق مصراتة المدينة لسنة 2018 تهدف الدراسة إلى التحليل المكاني لمواقع مدارس التعليم الثانوي، وتحديد كيفية توزيعها في نطاق مصراته المدينة، وما تمثله من أهمية في الارتقاء بالمستوى التعليمي للمجتمع، لا سيما بعد التوسع العمراني الذي شهدته المدينة في السنوات الأخيرة وترامي أطرافها نحو المناطق المحيطة بها، وزيادة عدد السكان، كما تهدف إلى توظيف نظم المعلومات الجغرافية في توثيق مواقع المدارس الثانوية وتوزيعها وتحليلها لإنتاج خرائط رقمية قابلة للتحديث، وأظهرت الدراسة مدى كفاءة نظم المعلومات الجغرافية في

معالجة البيانات باستخدام وظائفها في عملية التحليل المكاني، وكشفت خلال تحليل نمط التوزيع المكاني باستخدام صلة الجوار أن نمط التوزيع يتجه نحو النمط العشوائي المتقارب غير المنتظم، وعدم عدالته في التوزيع بين فروع البلدية، على حساب كثافة السكان والمساحة، أي وجود تركز في التوزيع العددي للمدارس تتباين في البعض منها، بصورة عامة قد لا تعكس وضعا متماثلا للتوزيع في منطقة الدراسة.

دراسة زين العابدين 2015 [2] بعنوان: التحليل المكاني لخدمات التعليم الثانوي في مدينة كركوك باستخدام تقنيات نظم المعلومات الجغرافية أوضحت الدراسة معاناة مدينة كركوك من العشوائية، وعدم اتباع المعايير التخطيطية في تخطيط مواقع الخدمات بصورة عامة والخدمات التعليمية بصورة خاصة بسبب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما أبرزت الدراسة أهمية تطبيق المعايير التخطيطية المحلية والدولية عند التفكير في إنشاء الخدمات.

دراسة عمر أحمد الزاكي صالح ذات العنوان: [3] تقييم التوزيع المكاني لخدمات التعليم العام باستخدام تقنيات نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد (دراسة تطبيقية على محلية بحري) توصلت الدراسة إلى سوء توزيع وتخطيط خدمات التعليم في وحدة بحري، وتباين توزيع هذا النوع من الخدمات فيما بين الأحياء ولا يتبع نمط معين، كما أنه لا يتضمن خطة واضحة. أوصت الدراسة بإنشاء مدارس للتعليم الأساسي والثانوي بالأحياء التي لا توجد بها مدارس.

دراسة عبدالعزيز عبدالكريم بوحليقة [4] **اهتم** هذا البحث بدراسة خدمات التعليم الأساسي بمدينة طبرق لكونها مرحلة الزامية أقرتها سياسة التعليم العام، يهدف البحث إلى تحديد نمط توزيعها المكاني، والتوزيع العددي لتلاميذ المرحلة، واستخدام بعض المعايير التي تبيّن مدى كفاية مباني الخدمات التعليمية بالمدينة لاستيعاب من هم في سن الالتحاق المدرسي، وباستخدام المنهج التحليلي وبعض الأساليب العلمية كتقنية نظم المعلومات الجغرافية والأساليب الاحصائية خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج منها: حث الجغرافيين على استخدام تقنية نظم المعلومات الجغرافية لما لها من ادخار للوقت والجهد، كما حددت الدراسة نمط التوزيع المكاني لمباني خدمات التعليم الأساسي الذي اتخذ نمطًا عشوائيًا، وقصور نطاق الخدمة في تغطيته لمخطط المدينة، وعدم كفاية الخدمات التعليمية لمن هم في سن الالتحاق المدرسي الذي تأكد من خلال استخدام المباني التعليمية لفترتين صباحية ومسائية، وارتفاع كثافة الفصل، وأوصت الدراسة باستخدام نظم المعلومات الجغرافية عند إجراء دراسات جغرافية لما لها من أهمية في توضيح وتحليل الظواهر المدروسة، ومراعاة الأحياء التي تفتقر لمباني الخدمات التعليمية عند إنشاء مباني تعليمية جديدة، ووضع سياسة تعليمية

تسعى للحد من استخدام المباني التعليمية لأكثر من فترة واحدة، وخفض الكثافة العامة للفصل لتصبح أقل من الحد الأقصى لها، وهي 30 تلميذ للفصل الواحد، وذلك من خلال مواكبة بناء المباني التعليمية للزيادة السكانية بالمدينة.

دراسة سعد محمد الزليتني [5] الموسومة: التعليم الأساسي بمدينة بنغازي " دراسة في الجغرافية التطبيقية " تطرق الباحث في تناوله لهذا الموضوع إلى تطور الخدمات التعليمية بالمدينة وأنماط توزيعها والعوامل المؤثرة فيها، بالإضافة إلى تناوله لبعض المتغيرات ذات العلاقة بالتعليم الأساسي. وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج منها على سبيل المثال لا الحصر أن الإنفاق على التعليم من عائدات النفط قلل من نسبة الأمية في ليبيا، وكذلك ارتباط توزيع المدارس بتوزيع السكان، وأوصى الباحث باختيار الموقع المناسب عند التفكير في إنشاء مدارس جديدة.

اهتم الباحث أسامة خير الله بوجافلة [6] في دراسته " التباين المكاني للخدمات التعليمية والصحية بمدينة المرج الجديدة عام 2004 من أجل رصد واقع الخدمات التعليمية والصحية بالمدينة من حيث توزيعها بمختلف أحياء المدينة، ومدى تأثيرها على حركة السكان اليومية طلبًا لهذه الخدمة، وتوصل الباحث من خلال دراسته إلى عدم وجود مدارس في بعض الأحياء رغم تخصيص مساحات خاصة بهذه الخدمة، وتأثر حركة التلاميذ اليومية باختلاف توزيع المدارس الجغرافي، وأوصى الباحث بإنشاء مدراس في الأحياء التي ينعدم فيها وجود مدارس، ورفع كفاءة أداء الخدمات التعليمية والصحية بالمدينة.

التعليم الثانوي في سلم التعليم في ليبيا:

تختلف مسميات مراحل التعليم باختلاف دول العالم، وفي ليبيا تعد المرحلة الثانوية وهي المرحلة التي تعقب مرحلة التعليم الأساسي، وتسبق مرحلة التعليم العالي، يختار الطالب فيها توجهه العلمي سواء نحو العلوم الانسانية أو العلوم التطبيقية، ومن هذا المنطلق ترى الدراسة أن يكون توزيع مؤسساته مرتبطًا بنمو السكان وتوزيعهم، ومواكبًا للتوسع العمراني بالمدينة، بغية تحقيق العدالة المكانية.

تطور أعداد المدارس الثانوية بمنطقة الدراسة:

تهتم الجغرافيا بموضوع التطور التاريخي للظاهرة منذُ نشأتها وصولا إلى وضعها الحالي، بهدف فهم سلوكها ومعرفة العوامل المحركة لها التي ساهمت في زيادة أعدادها؛ والتعليم الثانوي العام محور دراستنا يعد مرحلة ذات قيمة علمية وتربوية تدعمها الدولة الليبية، إيمانًا بدورها الفعال في بناء المجتمع وتطوره.

أنشئت أول مدرسة ثانوية بمدينة طبرق في عام 1961م[7] بالقسم الغربي للمنطقة المركزية، وهي مدرسة مشتركة للبنين والبنات وفق ما ورد في تقرير مؤسسة دوكسيادس سنة 1965م، في الوقت الذي كانت فيه مساحة المدينة في تلك الفترة حوالي 1038 هكتار، وعدد سكانها 18700 نسمة، وهذا العدد يتطلب إنشاء مدرستين واحدة للذكور والأخرى للإناث، ومع بداية العام الدراسي 1972، 1973م فُصل الطلاب الذكور عن الإناث أصبح للتعليم الثانوي مدرستان، كان عدد الطلاب بهما حوالي 257 طالبًا وطالبة، وبلغ عدد سكان المدينة حسب التعداد العام للسكان لسنة 1972 حوالي 31339 نسمة، هذا واستمر توسع المدينة عمرانيًا حتى وصلت مساحتها إلى 1700 هكتار، كما زاد عدد سكانها حسب التعداد العام 1984م حوالي 62504 نسمة، ولكن المدارس الثانوية بقيت على ماهي عليه إلى جانب إنشاء معهد للمعلمين وأخر للمعلمات، وخلال مرحلة التسعينات وبداية الألفين وصلت مساحة المدينة إلى حوالي 3045 هكتار استجابة لزيادة سكانية بلغت في العام 2006 حوالي 105434 نسمة، وبدخول فكرة الثانوية التخصصية مجال التطبيق سنة 2000م[8] لتحل محل المعاهد المتوسطة، ليتمكن الطالب من اختيار تخصصه من بداية التعليم الثانوي، هذا التحوّل في استراتيجية التعليم ساهم في زيادة عدد مدارس التعليم الثانوي ليصل إلى 14 مدرسة في العام 2003م، وبعد الرجوع إلى نظام التعليم العام في العام 2014 ألغيت خمس مدارس ثانوية العلوم التخصصية وهي: مدرسة الحرية، مدرسة خليل مصطفى، ومدرسة صلاح الدين الأيوبي، مدرسة ابن خلدون، مدرسة الجلاء،[9] وبقيت تسع مدارس سنتعرف عليها وعلى توزيعها المكاني في مواضع لاحقة من هذه الدراسة.

التوزيع المكاني للمدارس الثانوية بمنطقة الدراسة:

أهتمت الجغرافية بدراسة الظواهر المختلفة أوانماط توزيعها على سطح الأرض، وفي هذا الصدد يقول هتنر: بإن التوزيعات تشكل خصائص الأشياء في المكان، كما اعتبرت التوزيعات مقدمة لدراسة الأنماط.[10]

يبيّن الشكل (2) التوزيع المكاني للمدارس الثانوية بمنطقة الدراسة البالغ عددها تسع مدرارس، منها ست مدارس خصصت للإناث، توزعت ثلاث مدارس منها بحي وسط المدينة وتشمل كل من: مدرسة خديجة الكبرى، ومدرسة نسيبة بنت كعب، ومدرسة الأمل، ومدرستين بحي سوق العجاج وهما: مدرسة الشعلة، ومدرسة الضاحية، ومدرسة واحدة بحي الأندلس وهي مدرسة أم المؤمنين. أما مدارس الذكور وعددها ثلاثة فتوزعت على النحو التالي: مدرسة طلائع المستقبل بحي المنارة، ومدرسة طبرق الثانوية بحي الأندلس، ومدرسة الفاروق بحي الحرية. والجدير بالذكر أن المدارس الثانوية بمنطقة الدراسة توزعت بين خمسة أحياء

فقط من أحياء المدينة، وانعدمت تماما بالأحياء الأخرى، وهذا يشير إلى أن توزيع المدارس لهذه المرحلة لا يخضع لمعايير التخطيط، الذي يراعي الكثافة السكانية من جانب، والتوسع العمراني من جانب آخر، الأمر الذي ترتب عنه إجهاد للطلاب بسبب التنقلات التي يقومون بشكل يومي بين أماكن إقامتهم والمدارس يدرسون بها، ناهيك عن تأثر حركة المرور الناتجة عن تلك التنقلات، وتسببها في عرقلة حركة السير بجميع أنحاء المدينة تحديدًا أثناء الفترة الصباحية عند بداية ونهاية اليوم الدراسي وتزامن ذلك مع دخول الموظفين وخروجهم من أماكن عملهم.

الشكل (2) التوزيع المكاني للمدارس الثانوية بمدينة طبرق

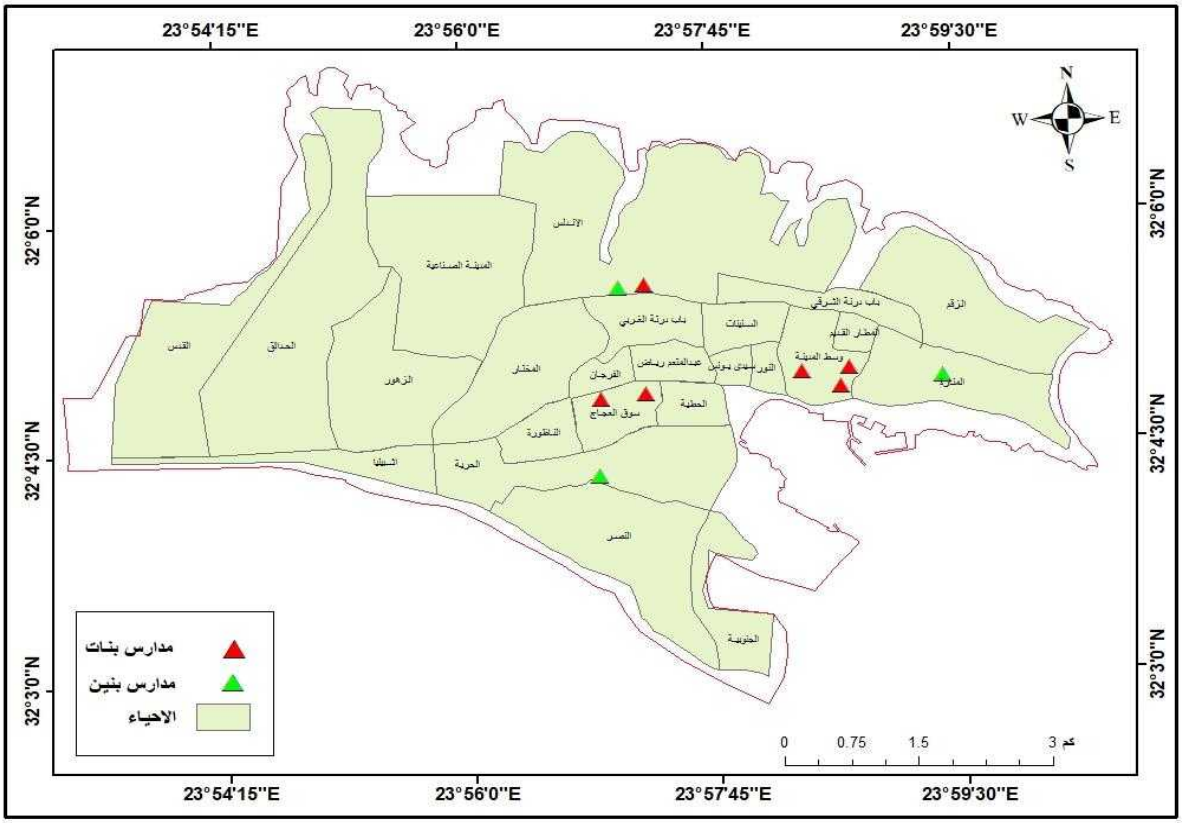

المصدر: الدراسة الميدانية شتاء2022 والاعتماد على مرئية فضائية للمدينةم

نمط التوزيع المكاني لمدارس التعليم الثانوي

توزيع الظواهر مكانياً يتخذ ثلاثة أنماط مختلفة هي: نمط متجمع، نمط عشوائي، ونمط منتظم، والتعرف على نمط توزيع أي ظاهرة بطريقة موضوعية يأتي باتباع طريقة رياضية، تعتمد على قياس المسافة بين كل نقطة وأقرب نقطة مجاورة لها وتؤدي نفس الوظيفة[11]، وتعرف هذه الطريقة بمعادلة الجار الأقرب وذلك بغية الوصول إلى دليل يعتمد عليه لتحديد نمط التوزيع، والفكرة الأساسية لتحليل الجار الأقرب؛ هي

المقارنة بين المتوسط الحسابي الفعلي لمسافة الجار الأقرب بالمتوسط الحسابي النظري لمسافة الجار الأقرب لعدد من النقاط، في نمط توزيعي[12].

تحديد نمط التوزيع باستخدام نظم المعلومات الجغرافية يأتي عن طريق إدخال الطبقة المراد تحليلها مكانياً إلى برنامج نظم المعلومات الجغرافية 10.8، وفي هذه الورقة تمثلها مدارس التعليم الثانوي، ومن أيقونة

Arc Toolbox الموجودة في نافذة Analyzing pattern داخل أيقونة Average Nearest Neighbor فكانت نتيجة التحليل كما هي مبينة بالشكل (3) التي أوضحت أن نمط توزيع مدارس التعليم الثانوي بمنطقة الدراسة نمطٌ عشوائيٌ، مما يعني أن التوزيع لم يتخذ نمطًا منتظمًا وفق معايير التخطيط.

الشكل (3) نمط التوزيع المكاني لمدارس التعليم الثانوي بمنطقة الدراسة

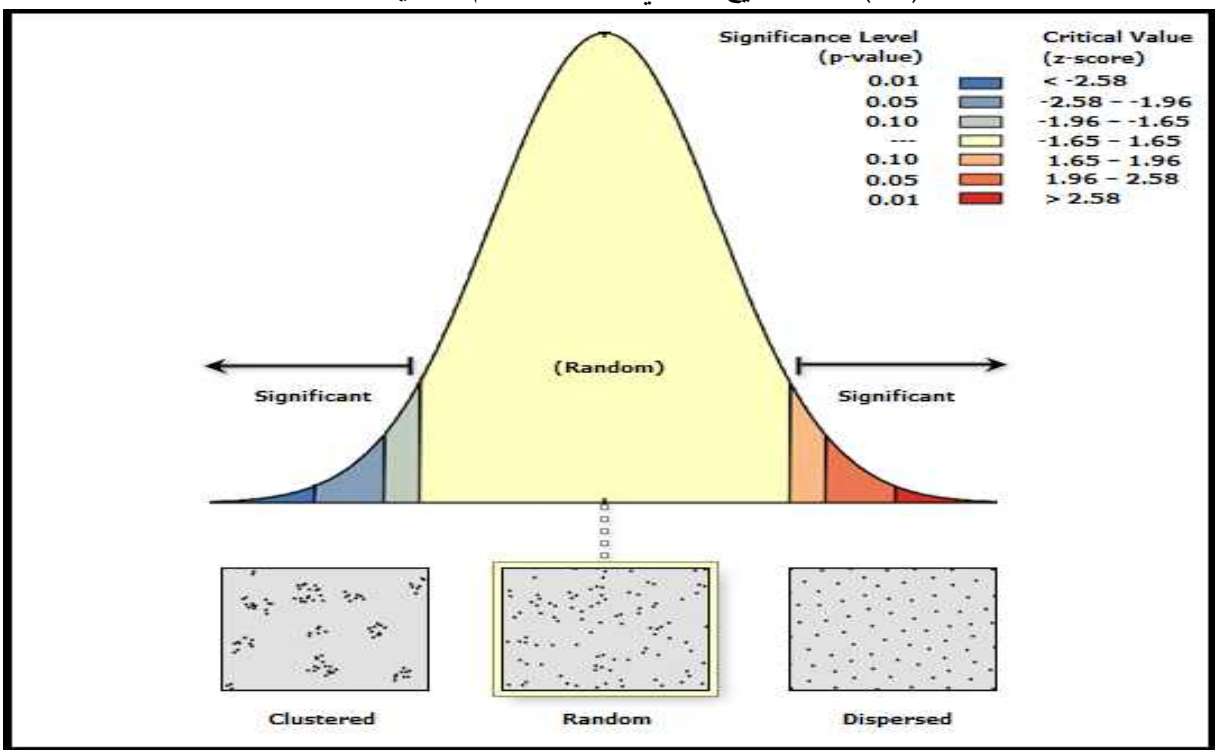

مصدر: الدراسة الميدانية 2022م

المركز الوسيط:

المركز الوسيط أو الوسيط المكاني هو الذي يتوسط بقية المواقع الأخرى، ويمثل مركز القلب لتوزيعها المكاني، بحيث يقع نصفها إلى الشرق منه، ويقع نصفها الأخر إلى الغرب، كما يقع نصف المواقع إلى الشمال منه، والنصف الأخر إلى الجنوب؛ ويستخدم المركز الوسيط لتحديد الموقع الذي تكون المسافة التي تفصل بينه وبين المواقع الأخرى أقل من المسافة التي تفصل بين تلك المواقع وأي مكان أخر[13].

يمكن تحديد موقع المركز الوسيط على الخرائط بدون استخدام أي معدلات إحصائية؛ بل بتحديد نقطة تقاطع محورين متعامدين يقسم كل منهما المواقع إلى نصفين متساويين، كما يمكن تحديده عن طريق ايجاد المركز المتوسط بنظم المعلومات الجغرافية GIS 10.8 بداية من ايقونة Arc Toolbox ومنها نختار Measuring geographic distribution, ثم نختار mean center ونضغط عليه بمؤشر الفأرة مرتين ستظهر نافذة mean center, ندخل في الخيار الأول طبقة المدارس الثانوية لمنطقة الدراسة، ثم نضغط زر موافق (ok) سيقوم البرنامج بالتحميل حتى تظهر نقطة الوسيط المكاني على الخريطة كما يقوم البرنامج بإنشاء طبقة لها في جدول المحتويات، كما هو الحال بالشكل رقم (4) الذي يبيّن توزيع مدارس التعليم الثانوي حول الوسيط المكاني فنجد حوالي أربع مدارس واقعة شرق الوسيط المكاني يقابلها تقريبًا نفس العدد غربه.

الشكل (4) المركز الوسيط والمسافة المعيارية

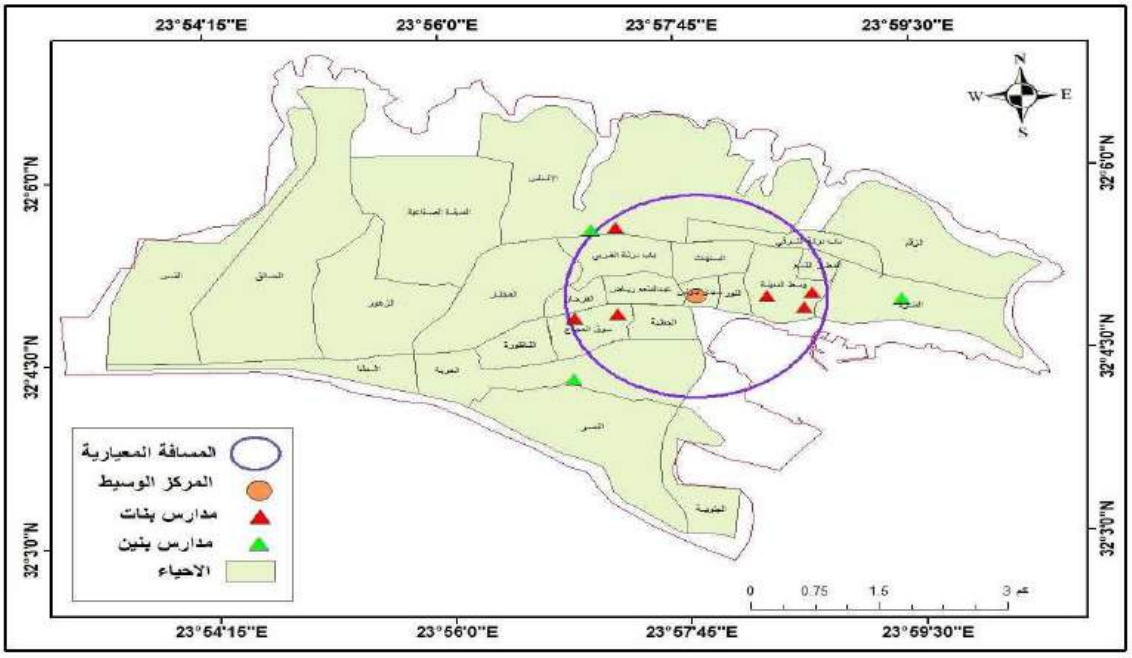

المصدر: عمل الباحث بالاستناد على الشكل رقم (1)

وما يمكن ملاحظته على توزيع المدارس حول المركز الوسيط الواقعة شرقه أكثر تجمعًا من الواقعة غربه مما يؤكد عشوائية التوزيع.

المسافة المعيارية:

المسافة المعيارية هي المقابل في التحليل المكاني لمؤشر الانحراف المعياري المستخدم في البيانات غير المكانية، أي أنها مؤشر لقياس مدى تباعد أو تركز مفردات الظاهرة مكانياً[14] في أغلب الأوقات تُمثل

قيمة المسافة المعيارية برسم دائرة تُعرف بالدائرة المعيارية كما في الشكل (4) الذي يوضح الوسيط المكاني، والمسافة المعيارية، التي يمكن من خلاله الاستدلال على مدى تركز أو انتشار مفردات الظاهرة المدروسة ويكون مركز الدائرة هو الوسيط المكاني.

كلما كبرت قيمة المسافة المعيارية كبر حجم الدائرة المعيارية كلما دلّ على زيادة الانتشار والتشتت المكاني لتوزيع الظاهرة، إذا صغرت قيمة المسافة المعيارية صغر حجم الدائرة المعيارية ليدلّ على زيادة التجمع المكاني لتوزيع الظاهرة.

تقوم فكرة المسافة المعيارية على حساب الجذر التربيعي لمجموع مربعات انحرافات القيم (س، ص)، عن المتوسط الحسابي مع قسمته على عدد قيم النقاط التي تمثل الظاهرة المدروسة، بحيث يكون الناتج رقمًا يبين مدى تركز 68% من نقاط التوزيع حول نقطة المركز المتوسط، ومن ثم فإن هذه المسافة تظهر مدى انتشار أو اختلاف مجموعة من النقاط حول المركز المتوسط لها.

يتضح من الشكل السابق تمركز 77% من مدارس التعليم الثانوي حول الوسيط المكاني في دائرة نصف قطرها 1500 م، وتغطي حوالي 21% من مساحة المدينة، مما يؤكد اتجاه مفردات الظاهرة نحو التمركز ، كما نجد المدارس داخل الدائرة موزعة بطريقة عشوائية فهي متجمعة في بعض الأماكن ومنتشرة في بعض الأماكن الأخرى مما يؤكد عشوائية توزيع المدارس الثانوية بمنطقة الدراسة.

نطاق تأثير الخدمة:

يقصد بنطاق الخدمة المساحة التي تغطيها المؤسسة الخدمية بخدماتها، ويستدل منه على كفاءة التوزيع المكاني لمدارس التعليم الثانوي، ومدى تحقيقها لاحتياجات المستفيدين من الخدمة.

حُدد في هذا البحث نطاق الخدمة لمدارس التعليم الثانوي في مدينة طبرق بالحد الأقصى للمسافة التي يمكن أن يقطعها الطالب مشياً على الأقدام من مكان اقامته إلى المدرسة الثانوية دون تعب وارهاق، وحدد المخططون هذه المسافة بحوالي 1000 م كحد أقصى مما يجب أن تغطيه المدرسة بخدماتها.

وتأسيسًا على ما تقدم مُثِّل نطاق خدمات مدرسة التعليم الثانوي بمدينة طبرق بدوائر نصف قطرها 1000 م بحيث تمثل المدارس مراكز هذه الدوائر، وباستخدام تقنية نظم المعلومات الجغرافية وتحديدًا برنامج GIS 10.8 ، عن طريق وظيفة Buffer المنسدلة من أيقونة Proximity المدرجة تحت قائمة Analsis Tool وإدخال طبقة المدارس الثانوية لمنطقة الدراسة إلى نافذة النطاق، ومن ثم تحديد قيمة نطاق الخدمة بحوالي 1000 متر المشار إليه سابقًا، وإخراج الشكل(5) نطاق تأثير خدمة مدارس التعليم الثانوي بالمدينة، الذي اتضح من خلاله أن الدوائر التي تمثل نطاق تأثير خدمة كل مدرسة ثانوية تتقاطع في معظم الأحيان مع بعضها، بل يكاد يتطابق بعضها على البعض الآخر، كأنها تمركزت في أحياء بعينها دون

الأحياء الأخرى، وهذا يعود بدوره إلى عدم الاكتراث بمعيار نطاق تأثير الخدمة الذي في حال الاعتماد عليه يحقق العدالة المكانية لتوزيع أي ظاهرة.

الشكل (5) نطاق تأثير خدمة مؤسسات التعليم الأساسي بالمدينة

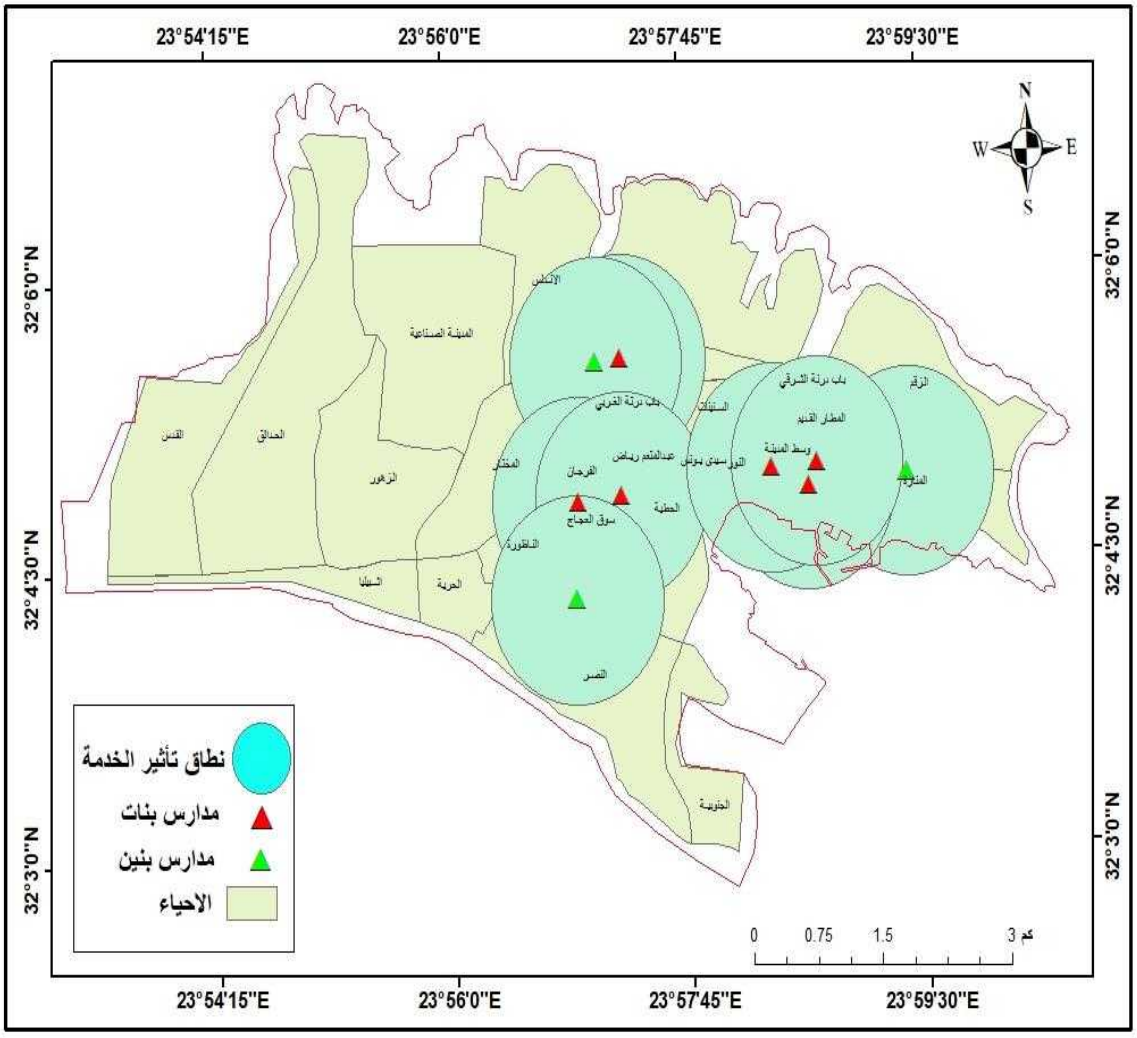

المصدر: عمل الباحث اعتمادًا على الشكل (2)

التوزيع العددي لطلاب مرحلة التعليم الثانوي:

يفيد معرفة التوزيع العددي والنوعي العلمي لطلاب المرحلة الثانوية بمدينة طبرق في توضيح مقدار الخلل وعدم التوازن الموجود، كما أنه يقودنا إلى معرفة الأسباب التي ساهمت في إرساء هذا التوزيع، حيث بلغ عدد طلاب هذه المرحلة حوالي 5375 طالبا وطالبة، منهم 3771 إناث، أي يُمثلن نسبة 70.2% من مجموع طلاب المرحلة، بينما بلغ عدد الطلاب الذكور في حدود 1604 وبنسبة 29.8% من مجموع طلاب المرحلة، ومرد ذلك إلى تسرب الذكور من المدارس وإنخراطهم بميادين العمل في سن مبكرة، أو قد يرجع إلى ترك الدراسة بالمدارس الحكومية والتسجيل بالمدارس الخاصة، كما يبيّن الجدول نفسه توزيع الطلاب حسب التخصص العلمي، فنجد مجموع الطلاب بالصف الأول ثانوي في حدود 2117 طالبا وطالبة، ويشكلون ما نسبته 39% من مجموع طلاب المرحلة قيد الدراسة، وبلغ عدد طلاب القسم العلمي بهذه المرحلة حوالي 2587 طالبا وطالبة، وبنسبة 48% من مجموع المرحلة الثانوية، أما طلاب القسم الأدبي فبلغ عددهم 669 طالبا وطالبة، ويمثلون نسبة 12% من إجمالي عدد الطلاب؛ ومرد ذلك إلى توجيه أولياء الأمور لأبنائهم نحو التخصص العلمي دون التخصص الأدبي.

جدول (1) التوزيع العددي لطلاب المرحلة الثانوية بمنطقة الدراسة.

المدارس	الأول ثانوي	ثانية أدبي	ثانية علمي	ثالثة أدبي	ثالثة علمي	مجموع عدد الطلاب بالمدرسة	عدد الفصول	كثافة الفصل
خديجة الكبرى إناث	265	38	113	78	129	623	21	29
نسيبة بنت كعب إناث	177	--	184	--	154	515	18	28
الامل الأخضر إناث	161	17	98	36	118	430	18	24
ام المؤمنين إناث	415	69	179	86	219	968	18	54
الضاحية إناث	--	78	131	108	212	529	12	44
الشعلة إناث	386	--	148	52	120	706	23	31
طلائع المستقبل ذكور	175	--	106	--	56	337	18	19
طبرق الثانوية ذكور	202	60	64	24	172	522	11	47
الفاروق ذكور	336	--	209	23	177	745	18	41
المجموع	2117	262	1232	407	1357	5375	157	34

المصدر: احصائية قسم الامتحانات للعام الدراسي 2022 / 2023 م مراقبة تعليم طبرق.

كما يتباين توزيع الطلاب بين المدارس الثانوية بمنطقة الدراسة فنجد أقل عدد طلاب بمدرسة طلائع المستقبل وهي مدرسة مخصصة للذكور والذي بلغ عددهم 337 طالبا، أما أعلى عدد طلاب جاء بمدرسة أم المؤمنين المخصصة للإناث حيث بلغ عددهن 968 طالبة.

كثافة الفصل:

تعد كثافة الفصل من أهم المقاييس التربوية التي تسهم في التعرف على مدى كفاية مؤسسات التعليم، وقدرتها على مدى تلبية احتياجات السكان من خدماتها، وهي توضح العلاقة بين أعداد الفصول بمراحل التعليم المختلفة وأعداد التلاميذ بها، وتتأثر بزيادة نسبة الطلب على الخدمات التعليمية المرتبطة بنسبة النمو السكاني المرتفع، وما يترتب عليه من كثافة سكانية عالية وبالتالي نمو أعداد بنسبة تفوق تطور أعداد الفصول، مما يؤدي إلى ظهور مشكلة ارتفاع كثافة الفصل وما يترتب عليها من سلبيات تؤثر على كفاءة تلك المؤسسات.

حُددت كثافة الفصل بمرحلة التعليم الثانوي بحوالي 25 طالبا، على أن تكون مساحة الفصل تتراوح من 2.5 : 3 متر مربع لكل طالب (المرافق، بدون تاريخ، صفحة 12)، وفي منطقة الدراسة كما هو مبيّن بالجدول رقم (1) وصل المعدل العام لكثافة الفصل 34 طالب وهذا معدل يعتبر عـــاليا إذ ما قورن بالمــعيار المحدد لكثافة الفصل المشار إليه سلفًا، غير أن هذا المعدل يتباين من مدرسة لأخرى فجاء أقل معدل بمدرسة الأمل 24 طالب للفصل، وأعلى معدل جاء بمدرسة أم المؤمنين حيث بلغ 54 طالبا للفصل، وهذا يشير بشكل عام إلى عدم قدرة المدارس على استيعاب عدد طلاب هذه المرحلة، إضافةً ألى سوء توزيع المدارس فيما بين أحياء المدينة ما جعل الطلاب يتركزون في مدارس دون غيرها.

سعة المدرسة:

يُعد مؤشر سعة المدرسة من المؤشرات التي اهتم بها كثير من البُحاث في العديد من المجالات العلمية، لما لها من تأثير على كفاءة أداء المؤسسة التعليمة، أي بمعني كلما زاد عدد الطلاب داخل المؤسسة التعليمية بدرجة تتجاوز المعايير المحددة من ذوي الاختصاص، كلما كان له سلبيات على أدائها، وفي هذه الورقة اعتمدنا على معيار كثافة الفصل في تحديد القدرة الاستيعابية للمدارس الثانوية بمنطقة الدراسة، من خلال الجدول رقم (2) اتضح أن سبع مدارس ثانوية في منطقة الدراسة تجاوزت القدرة الاستيعابية لها بصورة متباينة، منها مدرسة أم المؤمنين التي فاقت قدرتها الاستيعابية بحوالي 518 طالبة، ومدرسة الفارق بحوالي 295 طالبا، ومدرسة طبرق الثانوية 247 طالبا، ومدرسة الشعلة في حدود 131 طالبا، ويعزى هذا إلى توقف بناء مباني تعليمة تستوعب طلاب هذه المرحلة خاصة في الأحياء التي تفتقر لمثل هذه المدارس، كما توجد مدرستان عدد طلابهما أقل من قدرتها الاستيعابة ممثلة في مدرسة طلائع المستقبل، ومدرسة الأمل الأخضر.

جدول رقم (2) سعة المدرسة والاحتياج لكل مدرسة

المدارس	عدد الطلاب بالمدرسة	عدد الفصول	سعة المدرسة	الفرق فوق القدرة	الاحتياج من الفصول

خديجة الكبرى إناث	623	21	525	98	4
نسيبة بنت كعب إناث	515	18	450	65	3
الأمل الأخضر إناث	430	18	450	20	1+
أم المؤمنين إناث	968	18	450	518	21
الضاحية إناث	529	12	300	79	3
الشعلة إناث	706	23	575	131	6
طلائع المستقبل ذكور	337	18	450	113+	5+
طبرق الثانوية ذكور	522	11	275	247	10
الفاروق ذكور	745	18	450	295	12
المجموع	5375	157	3925	1450	58

المصدر: إحصائية قسم الامتحانات للعام الدراسي 2022 / 2023 م مراقبة تعليم طبرق.

سعة المدرسة = عدد الفصول × الحد الأعلى لكثافة الفصل

الفرق في القدرة = عدد الطلاب في المدرسة – سعة المدرسة

الاحتياج = الفرق في القدرة ÷ الحد الأعلى لكثافة الفصل

العوامل المؤثرة في توزيع المدارس الثانوية:

بعد اختبار عدد من المؤشرات التخطيطية والتربوية التي من شأنها تقيّيم التوزيع المكاني القائم للمدارس الثانوية بمنطقة الدراسة؛ تبيّن أن توزيعها لم يتقيد بالمعيار السكاني الذي ينبغي النظر إليه عند التفكير في إنشاء مدارس هذه المرحلة، حيث وصل عدد سكان الأحياء الواقعة غرب المدينة المتمثلة في: حي المختار، عمارات الحرية، حي صلاح الدين، حي الزهور، حي الحدائق، حي القدس إلى حوالي 66146 نسمة، والأحياء الواقعة جنوب المدينة والتي تشمل: حي إشبيلية، حي الحرية، حي النصر، حي الخليج التي يبلغ عدد سكانها حوالي 35489 نسمة[15]، رغم أن الأحياء سالفة الذكر بلغت المعيار السكاني المحدد لإنشاء مدرستين للمرحلة الثانوية إحداهما للذكور الأخرى للإناث، إلا أنها لم تُنشأ بها مدارس ثانوية إلى وقت كتابة هذا البحث، كما تجاوز عدد الطلاب طاقة المدارس الاستيعابية، علاوة عن ارتفاع كثافة الفصل بمعظم المدارس، إلا أن المسؤولين لم يكترثوا بإنشاء مدارس هذه المرحلة للتخفيف من حدة العجز الذي يعانيه المستفدون من هذه الخدمة، كما تبيّن عدم تحقق المعيار المساحي لإنشاء مدارس ثانوية بمنطقة الدراسة رغم توسع المدينة عمرانيًا في اتجاه الشمال والغرب والجنوب، ولكن هذا النمو العمراني الذي شهدته المدينة لم يرافقه إنشاء مدارس لتلك المرحلة، ليقتصر توزيع المدارس على المنطقة المركزية والأحياء المجاورة لها والتي تغطى ما نسبة 21% من إجمالي مساحة المدينة وفق ما أشير إليه سابقًا. ومن خلال البحث والتقصي اتضح أن توزيع المدارس الثانوية بمنطقة الدراسة، وتحديد أماكنها، وتوزيع الطلاب فيما بينها يخضع لقرارات عشوائية يصدرها المسؤولون عن إدارة هذه المرحلة مستغلين المباني التي أنشئت في

السبعينيات والثمانينيات من القرن المنصرم، دون الركون للمعايير التربوية والتخطيطة التي تنظم توزيع المدارس على الوجه الأمثل.

متطلبات الواقع:

تبيّن من العرض السابق للتوزيع المكاني للمدارس الثانوية بمدينة طبرق عجزها عن استيعاب طلاب هذه المرحلة، والبسبب الرئيس في هذا العجز هو عدم إنشاء مدارس ثانوية في معظم أحياء منطقة الدراسة، كما تجاوزت معظم المدارس قدرتها الاستيعابية من الطلاب، أضف إلى ذلك عشوائية توزيعها، وارتفاع الكثافة الطلابية بفصولها، لذا يمكن القول بإن المدارس القائمة حاليًا بمنطقة الدراسة لا تف بالغرض، وبناءً عليه تحتاج منطقة الدراسة في الوقت الراهن من هذا النوع من المدارس وفق ما هو مبيّن بالجدول رقم (2) إلى زيادة حوالي 58 فصلًا، أو إنشاء خمس مدارس ثانوية بواقع 12 فصلًا، وبسعة 300 طالب، على أن تكون مدرستان للذكور، وثلاث مدارس للإناث، وتكون أولوية إنشائها بالأحياء التي تفتقر لهذا النوع من المدارس، والبعيدة عن المدارس القائمة حاليًا، وعلى وجه الخصوص الأحياء الواقعة غرب وجنوب المدينة، مع مراعاة المعايير التخطيطية لإنشاء المدارس الثانوية.

النتائج :

من خلال ما تقدم من بحث ودراسة التحليل المكاني للمدارس الثانوية بمدينة طبرق باستخدام نظم المعلومات الجغرافية، سعياً للإجابة عن التساؤلات التي حُددت في مقدمة البحث؛ فإن أهم الاستنتاجات التي تم التوصل إليها البحث يمكن عرضها فيما يلي:

- بلغ عدد المدارس الثانوية بمنطقة الدراسة 9 مدارس منها ست مدارس خُصصت للإناث، وثلاث مدارس خُصصت للذكور.
- تركز توزيع المدارس الثانوية بخمس أحياء فقط من أحياء منطقة الدراسة، وانعدم توزيعها في بقية الأحياء البالغ عددها 21 حيًّا.
- تبيّن أن توزيع المدارس الثانوية بمنطقة الدراسة لا يخضع لمعايير ولا يتوافق مع النمو السكاني، ولا مع التوسع العمراني.
- باستخدام تقنية نظم المعلومات الجغرافية اتضح أن توزيع المدارس الثانوية اتخذ نمطًا عشوائيًا.
- بعد تحديد المركز الوسيط اتضح أن المدارس الواقعة شرقه أكثر تجمعًا من المدارس الواقعة غربه.

- بيّنت المسافة المعيارية أن 77% من مباني المدارس الثانوية تمركزت حول الوسيط المكاني في دائرة نصف قطرها 1500 م، وغطت حوالي 21% من مساحة المدينة فقط.
- باستخدام معيار نطاق التأثير اتضح تقاطع نطاق تأثير بعض المدارس مع بعضها، وفي كثير من الأحيان تطابقت بعض المدارس الأخرى مع بعضها.
- بلغ عدد الطلاب الدارسين في المدارس الثانوية التابعة للقطاع العام بمنطقة الدراسة حوالي 5375 طالبا وطالبة، منهم 3771 طالبة أي ما يمثل 70.2% من مجموع طلاب المرحلة، بينما بلغ عدد الطلاب الذكور 1604 طالبًا بنسبة 29.8% من مجموع الطلاب.
- بلغ عدد الطلاب المنتسبين للقسم العلمي بمرحلة التعليم الثانوي بمنطقة الدراسة حدود 2587 طالبا وطالبة، ما نسبتة 48% من مجموع طلاب المرحلة، وهذه هي النسبة الأعلى مقارنة بالطلاب المنتسبين للقسم الأدبي الذين بلغت نسبتهم 12% من مجموع طلاب المرحلة.
- تباين توزيع الطلاب فيما بين المدارس رغم التشابه من حيث التصميم الذي حظيت به معظم مبانيها، فنجد مدرسة طلائع المستقبل المخصصة للذكور يبلغ عدد طلابها 337 طالبًا، بينما بلغ عدد طلاب مدرسة أم المؤمنين المخصصة للإناث حوالي 968 طالبة.
- تبيّن أن المعدل العام لكثافة الفصل بالمدارس الثانوية بمنطقة الدراسة تجاوز المعيار المحدد له، حيث بلغ حوالي 34 طالبا للفصل، غير أن هذا المعدل تباين فيما بين المدارس، فأقل معدل للكثافة كان 24 طالبًا بمدرسة الأمل الأخضر، وأعلى معدل وصل إلى 54 طالبًا بمدرسة أم المؤمنين.

المقترحات:

خلص البحث إلى مجموعة من المقترحات التي سيكون لها أثر إيجابي، وستعالج الكثير من المشكلات لو أخذت بعين الاعتبار، منها:

- العمل على بناء مدارس بالأحياء التي تفتقر للمدارس الثانوية خاصة الأحياء الواقعة في غرب المدينة وشماليها وكذلك في الجنوب.
- يقترح عند بناء المدارس التقيد بالمعايير التخطيطية والتربوية والابتعاد عن القرارات العشوائية.
- يقترح البحث استخدام التقنيات الحديثة عند اختيار مواقع جديدة لإنشاء مدارس ثانوية بمنطقة الدراسة.

المراجع

1 – فاطمة عبد الله المنقوش. (2018). التحليل المكاني لتوزيع مدارس التعليم الثانوي في نطاق مصراتة المدينة لسنة 2018. *المجلة العلمية لكلية التربية*.

2 – زين العابدين على صفر: (2015) التحليل المكاني لخدمات التعليم الثانوي في مدينة كركوك باستخدام تقنيات نظم المعلومات الجغرافية، *Journal of Ttikrit University for Humanities*

3 – عمر أحمد الزاكي صالح: (2018). تقييم التوزيع المكاني لخدمات التعليم العام باستخدام تقنيات نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد (دراسة تطبيقية علي محلية بحري) ، *رسالة دكتوراه غير منشورة*.

4 – عبدالعزيز عبدالكريم بوحليقة: (2016). التحليل المكاني لتوزيع خدمات التعليم الآساسي بمدينة طبرق باستخدام نظم المعلومات الجغرافية. *مجلة العلوم الانسانية*.

5 – سعد محمد الزليتني. (1996). التعليم الأساسي بمدينة بنغازي دراسة في الجغرافية التطبيقية. بنغازي، ليبيا: كلية الآداب ، جامعة قار يونس، رسالة ماجستير غير منشورة.

6 – أسامة خير الله بو جافلة. (2005). التباين المكاني للخدمات التعليمية والصحية بمدينة المرج الجديدة. بنغازي، ليبيا: كلية الآداب، جامعة قاريونس، رسالة ماجستير غير منشورة.

7 – شعيب صالح جواد: مدير مكتب الامتحانات، مقابلة بتاريخ (14. 3. 2023). تطور التعليم الثانوي. (المحاور ، الباحث) طبرق، ليبيا

8 – عماد علي السويح، عبد المجيد الطيب شعبان. (ابريل 2014). أثر تطبيق نظام الثانويات التخصصية على تحصيل الطلاب في المرحلة الجامعية، دراسة تطبيقية على طلبة قسم المحاسبة بكلية الاقتصاد جامعة الزاوية. *المجلة الجامعية– العدد السادس عشر – المجلد الثاني*، ص 118.

9 – شعيب صالح عبد الجواد: مدير مكتب الامتحانات، مقابلة بتاريخ (14. 3. 2023) تطور التعليم الثانوي من واقع النتائج، المحاور الباحث، طبرق، ليبيا.

– ناظم أنيس عيسى، ومحمد صبري. (2006). المدخل إلى علم الجغرافيا، الطبعة الأولى10 دار الأندلس للنشر والتوزيع، ص 58

11– عبد القادر عبد العزيز علي: الإحصاء والكمبيوتر في معالجة البيانات الاجتماعية والجغرافيا خاصة، مطبعة طنطا، الطبعة الأولى، 2002م، ص206.

12– ناصر عبد الله الصالح، محمد محمود السرياني. (2000) الجغرافيا الكمية والإحصاء أسس وتطبيقات بالأساليب الحاسوبية الحديثة، الطبعة الثانية، الرياض، مكتبة العبيكان ص150.

13– ناصر عبد الله الصالح، محمد محمود السرياني. (2000) الجغرافيا الكمية والاحصاء أسس وتطبيقات بالأساليب الحاسوبية الحديثة، الطبعة الثانية، الرياض، مكتبة العبيكان ص212.

14 – محمد خميس الزوكة، محمد ابراهيم رمضان، (2004) الإحصاء والأساليب الكمية في العلوم الإنسانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص158.

15 – رحاب أنور خميس موسى، تحليل التوزيع الجغرافي لمدارس التعليم الخاص في أحياء مدينة طبرق، المؤتمر الجغرافي السابع عشر 28 فبراير ــ 2مارس 2023، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة بن وليد.

منهج المحاكاة التكاملي

(دراسة في فلسفة العلوم)

INTEGRATIVE SIMULATION METHOD

(STUDY IN PHILOSOPHY OF SCIENCE)

إعداد

الدكتورة /رضاء عبد الحليم جاب الله

أستاذ مساعد جامعة طبرق – كلية الآداب – قسم الفلسفة

Reda.mohamed@tu.edu.ly

العدد الثالث عشر – يوليو – 2023 م

الملخص

إن الطبيعة وماتحتوية من نظام كوني وكائنات تتميز بالمواجهة والتكيف للتعايش في تلك النظام، كانت المعلم الأول الذي درب الإنسان على أساليب التطور في عالمه المصنوع ، وذلك من خلال محاكاة تلك الطبيعة وكشف أسرار سيرورتها وتطبيقها بكيفية علمية تكنولوجية ، عرف من خلالها أن المحاكاة منهج علمي يهدف للوصول إلى الحقيقة المعرفية في كافة المجالات شأنه شأن باقي المناهج العلمية ، فهو يبدأ بالملاحظة والتخيل لينتهي بتنفيذ ذلك التخيل بصورة تجريبية علمية متطورة، ليكون ذلك المنهج الذي لا يقتصر على منهجاً أحادي التطبيق ، ولكنه منهج تكاملي بيني ، يقوم بدراسة الظاهرة ومحاكاتها متظافراً مع باقي المناهج من اجل الوصول إلى الحقيقة اليقينية ، لذا يُعد منهج المحاكاة التكاملي منهجاً علمياً فلسفياً هدفه الوصول إلى الحقيقة وتطور العلوم في كافة مجالاتها.

Abstract

Nature and what it contains of a cosmic system and beings characterized by confrontation and adaptation to coexist in that system, was the first teacher who trained man on the methods of development in his artificial world, by simulating that nature and revealing the secrets of its process and applying it in a scientific and technological manner, through which he knew that simulation is a scientific approach that aims In order to reach the truth of knowledge in all fields, like the rest of the scientific approaches, it begins with observation and imagination to end with the implementation of that imagination in an advanced scientific empirical way, to be that approach that is not limited to a single-application approach, but rather an integrated approach that studies the phenomenon and simulates it in concert with the rest of the approaches. In order to reach the certainty of truth, so the integrative simulation approach is a scientific and philosophical approach aimed at reaching the truth and the development of science in all its fields.

المقدمة:

المواجهة والتكيف؛ خاصيتان أساسيتان تتميز بهما الكائنات الحية في تحدي مصاعب صيرورة النظام الكوني والتعايش فيه، تلك الخاصيتان كانتا الدافع الأول للبحث عند الإنسان عن منهجية علمية فلسفية تكشف طبيعتهما ومحاكاتها من اجل تطوير آليات التعامل مع ظواهر الطبيعة المختلفة والتغلب على الصعاب التي تواجهه، فحاكي الإنسان تلك التفاعل العلائقي بين الطبيعة ومكوناتها في ثلاث مراحل ؛ ميتافيزيقية وسلوكية وحيوية للحفاظ على بقائه وفق منهجية علمية لا تقل أهميتها عن باقي المناهج العلمية متسائلاً:

– ما المقصود بالمحاكاة؟ هل المحاكاة تعني التقليد ؟ أم التقليد والتطوير؟
– هل تُعد المحاكاة منهجاً مستقلاً بذاته عن المناهج الأخرى؟
– هل هناك صلة بين منهج المحاكاة والمناهج الأخرى مثل : الاستقراء والاستنباط والفهم والتجريب؟
– إذا كانت هناك صلة، فما طبيعة تلك الصلة؟
– ما المجالات التي يمكن تطبيق منهج المحاكاة في دراستها؟

ومن مجمل تلك التساؤلات تكونت موضوعات البحث الذي تكمن أهميته في إيضاح التفسير العلمي لعملية التكيف البيئي للكائنات وتبيان كيفية محاكاتها بمنهجية علمية ذات أسس وفرضيات تجريبية، ناتجة من قدرتين وهما: القدرة على التخيل ، والقدرة على وضع التخيل موضع التنفيذ.

ولتوضيح طبيعة تلك الموضوعات استخدمنا المنهج التحليلي والوصفي والتاريخي، ولقد قسمت الدراسة إلى مقدمة وأربعة عناصر وخاتمة؛ يستعرض العنصر الأول: مفهوم المنهج ودلالاته، والعنصر الثاني: يتناول منهج المحاكاة وتاريخ تطوره ، أما العنصر الثالث يتضمن نظريات المحاكاة وهي تنقسم لنوعين: نظريات تحويلية ونظريات ترابطية، كما خصصنا العنصر الرابع لتطبيقات المحاكاة في العلوم الإنسانية والتطبيقية. ومن مجمل تلك العناصر نستخلص نقاط ختامية لأهم ما توصلنا إليه.

أولاً: مفهوم المنهج ودلالته .

يُعد المنهج العلمي في طليعة المفاهيم القيمية للخطاب الثقافي والعلمي معاً، لكونه آلية إيجابية فعالة لمواجهة الواقع، فهو الطريقة التي تجسد التفكير السليم والفعل السديد المثمر الذي يُسخر ليتعامل مع الواقع المتعين، من خلال التآزر والتحاور بين قدرات الذهن ومعطيات الحواس، وهذه الآلية كامنة في كل عقل بشري، ولكنها تبلغ أقصاها في البحث العلمي .

ويُعرف المفهوم الاستراتيجي لمصطلح المنهج بشكل عام بـ "أنه آلة الدقة الفاصلة والمفهوم المحوري الجدي والانضباطي الذي نصل من خلاله لما يُعرف بالمنهج العلمي" [1]، فلا يمكن تأسيس علم بدون منهجية تبين خطوات الوصول لحقائق موضوعاته.

والدلالة اللغوية والاشتقاقية للفظة "منهج " ؛ تعني نهجَ نهجاً، أي "اتخذ منهاجاً أو طريقاً للوصول إلى غاية" [2] فدلالة الوصول السريع للغاية تعني وضوح الطريق والطريقة، فكلما اتضح الطريق وانتظمت خطواته بنسق محدد سهل الوصول للغاية المرجوة. لذا استُخدم لفظ منهج في الفكر بمعنى الطريق، استمراراً لمعناه في الحضارة اليونانية القديمة، فقد استعمله أفلاطون وأرسطو بمعنى (البحث والنظر)، فكان يعني التفتيش والتقصي بطريقة منظمة ومنطقية تؤدي الغرض المطلوب بتخطي المصاعب والعقبات والوقوف على حلها [3]. وبذلك يكون المنهج هو الطريق الملتزم بنقلات منطقية تجسد الأسلوب السديد المنظم لحل المشكلة وإيضاحها من خلال التنقل من المقدمات التي تربطها علاقات منطقية بنتيجة وليدة الإجراءات المنظمة هدفها غايات

ومقاصد، وتدل هذه المقاصد على العمل العقلي وأركانه وأداته كمعيار للبرهان الصحيح ،وهو الجوهر المحدد والمحوري والمركزي للدراسات المقننة الذي نصل من خلاله للغايات المقصودة، وهذه الدلالة أيضاً تشير إليها المعاجم العربية في تعريفاتها بأن المنهج هو " الطريق الواضح المستقيم، الذي يفضي بصحيح السير فيه إلى غاية مقصودة" [4] .

وقبل الشروع في إيضاح العملية التطورية لتلك الآلية وسمات اختلافها، سيكون سبيلنا الأول إيضاح دلالة هذا المفهوم والوقوف على تعريفاً جامعاً مانعاً من خلال المقاربات التحليلية والتتبع التاريخي لتطور العقل العلمي منذ النشأ الفلسفي حتى العصر الرقمي ، متسائلين هل للعلم منهجاً واحداً لكل العلوم ؟ أم يختلف المنهج باختلاف موضوعات العلوم ؟ أم هناك عدة مناهج مشتركة لإثبات صحة علماً واحداً؟ وهل يُعد المنهج المعيار الأوحد لعلمية النظريات ؟ وما طبيعة هذا المعيار، والسمات الذي يتصف بها ليكون علمياً؟ . ومن البدهي أنه باختلاف الموضوعات والعلوم تتعدد أنواع المنهج المستخدم ، ليكون لكل نوع من هذه التعريفات له دلالته ومنهجية بحثه.

وفي هذا الصدد يكون باختلاف المنهج المتبع للوصول إلى الحل، يؤدي إلى حتمية اختلاف النتائج و الحلول، فهناك علوم حديثه لم يكن مبرر وجودها ظهور موضوعات جديدة مكتشفة ولا نظريات ولا قوانين جديدة بل طريقة جديدة لمنهج جديد امتلك القدرة التفسيرية الأكثر انسجاماً في التعامل مع طبيعة الموضوعات، وفي هذا يقول بيرسون:" تستند وحدة كل علم إلى المنهج لا إلى الموضوع ، فليست الوقائع في ذاتها هي التي تخلق وتصنع العلم، ولكنه المنهج الذي بواسطته تُعالج تلك الوقائع [5]

وبالتتبع التاريخي لاختلاف تعريفات مفهوم المنهج وفقاً لاختلاف الموضوعات البحثية، نجد أن أصل مفهوم المنهج(Curriculum) يعود إلى الكلمة اللاتينيةCurrier " وتعني يجري في مهرجانات أو دورات السباق التي تقام من وقت لآخر، ليكون هو المعنى التطبيقي للطريقة الصحيحة للفوز في السباقات الماراثونية، فاصبح للمفهوم علاقة بالواقع وما يحدث فيه من ظواهر مختلفة، وتطور الفكر اليوناني انتقل المفهوم من المعنى التطبيقي لمعنى تجريدي، وذلك بعدما أهتم أرسطو باللغة وعلاقتها بالفكر، فجعل منهجية الفكر العلمي عنده تقتصر على دراسة العلاقة بين الفكر وذاته من خلال اللغة باستخدام المنهج الاستدلالي في صوره قياس معرفاً منهجيته قائلاً: " أنه قول متى وضُعت فيه أشياء بعينها لزم عنها شيء آخر بالضرورة " [6]، لتكون العلاقة الزامية بين المقدمات من حيث الموضوع والمحمول من ناحية ، ومن ناحية أخرى بين المقدمات الكبرى والصغرى، وصولاً للنتيجة الصادقة، ليصبح صدق القياس مرهون بضرورة العلاقات، وليس نتيجة ارتباطها بالواقع، ليضحي المنطق الصوري بذلك منطق شكلي وعام ومطلق، مما جعل أرسطو يؤكد على أهمية البرهنة أكثر من القياس قائلاً: " فكل برهنة قياس ، وليس كل قياس برهنة" [7]

إن الهدف الكامن من وراء تلك الصورة المنطقية عند أرسطو، هو تفسير وتتبع العلاقات التي جلبت الصدق للنتيجة من خلال لغة قادرة على وصف الأنواع الأساسية من المواضيع المتطلبة لفهم كامل للواقع ، ولتحقيق

هدف تطوير النظرية المنطقية لابد من التوأمة بين تصور ما يوجد في العالم وكيفية فهمه، ومن هنا ألزم الاتجاه للواقع كعامل قياسي على صدق البرهان المنطقي بصورة مجردة على هيئة لغة وعلاقة معناها بالواقع.

وعلى الرغم من الاعتقاد السائد أن المنهج الأرسطي هو آلة التفكير الأولى للبشرية ، نجد سابقيه استخدموا آليات منها الاستنباطي الجدلي لتطهير العقل من الجهل عبر النقاش التحليلي مثل سقراط ومنهج الجدل الديالكتيك (التوليد) ، وكذلك الحضارات الشرقية القديمة نجد للمنهج أثر تطبيقي أكثر من كونه أسلوبي، فقد جادل الفكر القديم الطبيعة لتغلب على المصاعب التي تواجه بمنهج تطبيقي يخاطب المشاكل ووضع الحلول الأكثر ملائمة للتعامل مع الطبيعة. فكانت البداية الجدلية بين الفكر والمصاعب في العالم المعاش.

وبالنظر في المسار التطوري للمنهج للعصور الوسطى، والتحفظ على العامل الديني من ضمن أساسيات البحث العلمي، أضحى المنهج النقلي الاستنباطي نقل يوائم النص المقدس مع بعض التحفظ على المنهج الاستقرائي، ومع بداية القرن السادس عشر ظهرت دلالات المنهج المستقاة من الفلسفة اليونانية، فعرفت المناهج الفرضية والاستنباطية ، والاستقرائية، والتجريبية، التي كانت مطموسة بسبب الفكر الديني في العصور الوسطى.

وبنفس المسار التطوري عبر القرن السابع عشر والبحث عن منهج موضوعي ، وخاص ، ونسبي، يكون هدفاً ومطلباً لكل البحاث والعلماء الذين يسعون للبحث عن الحقيقة العلمية، كان منهج " فرنسيس بيكون " ذو المبادئ التجريبية الجديدة ، ليمثل الإرهاصات الأولى في عدم اقتصار الفكر على البحث النظري والمقدمات المنطقية ، وضرورة الاعتماد على التجريب والملاحظة للوقائع الخارجية الموضوعية وتنظيم المعطيات لتحديد ما هو جوهري منها وما هو عرضي، ومن ثم مقارنتها مع الفروض لمعرفة ما يؤيدها ومالا يؤيدها ثم وضع القوانين والتحقق من صحتها في ظروف تجريبية جديدة، ليصبح المنهج العلمي التجريبي هو ذلك المنهج الذي يبدأ بالملاحظة وينتهي بالتجريب والتحقق من صدق الفرضيات، وبذلك يخالف المنهج الاستنباطي؛ الذي يبدأ برهانه بقضايا مسلم بها، ويسير إلى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة دون الالتجاء إلى الملاحظة ثم الفرض وتحقيقه بواسطة التجربة، وصولاً للقوانين التي تكشف عن العلاقات بين الظواهر [8]هذا التطور الفكري دعا ديكارت لتعريف المنهج بأنه " قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق "

وعلى الرغم من تلك النقلات التطورية للمنهج ، ظلت إشكالية تبرير صدق نتائجه في العلوم الإنسانية والتطبيقية قائمة حتى بداية القرن التاسع عشر، الذي كان لانقسام المناهج تبعاً للموضوعات البحثية هي السمة السائدة لذلك العصر، برؤية معيارية تجد إن للتجربة أهمية قصوي في معيارية صدق الموضوعات ، لتكون الموضوعات التطبيقية هي الأقرب للصدق بحكم النتائج التجريبية التي أضفت عليها سمة اليقين ، فأدى هذا الانقسام بطبيعة الحال لانقسام المناهج المستخدمة إلى قسمين: مناهج خاصة للعلوم التطبيقية ، ومناهج للعلوم الإنسانية، مع الأخذ في الاعتبار باحتمالية اشتراكهما في المناهج ذاتها بما يتناسب مع طبيعة الموضوع

المدروس، لذا لم تقتصر التجربة على العلوم التطبيقية فحسب، بل استخدمت المناهج التجريبية في بعض العلوم الإنسانية ليُعرف هذا العصر بعصر التأسيس العلمي للدراسات الاجتماعية لاهتمامه باستخدام المنهج العلمي التجريبي للبحث في العلوم الإنسانية بمنهجية وأساليب مستخدمة في العلوم الطبيعية مع مراعاة اختلاف الظواهر بين العلمين ، كان هذا الاتجاه على يد أوجست كونت(Auguste comte1857 – 1798) فأصبحت الظواهر الإنسانية تدرس بطريقه وصفيه تحليليه منظمة لاستخلاص القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر، فتطور منهج العلوم الإنسانية أكثر فأكثر خاصة على يد أميل دور كايم ، وذلك بعدما وضع قواعد منهجية في 1901 للعلوم الاجتماعية [9]، إيماناً منه إن ظواهر العلوم الإنسانية لا تقل أهمية في استخدام المنهج التجريبي عن العلوم التطبيقية وذلك نتيجة لاختلاف وتعدد ظواهرها.

وبتعدد الظواهر الإنسانية تعددت المناهج فكان لكارل بوبر في هذا الصدد قول يوضح فيه ضرورة تعدد المناهج بتعدد العلوم وبتعدد الظواهر في العلم الواحد، إلا إنه يرى بالرغم من التعدد في تلك المناهج ولكنها تنتمي جميعاً لمنهج واحد علمي ، حيث ترجع جميعها إلى التفسير العلمي الاستنباطي والتنبؤ والاختبار [10]

والجدير بالذكر، إن توفر مجموعة من المبادئ والقواعد الخاصة لعلم ما أو ظاهرة معينة لا تعني بالضرورة أن ذاك العلم ملزم بالأخذ بمنهج واحد، فهذه المجموعة من المبادئ والقواعد للظاهرة يوجد لها عدة مناهج بالنسبة للعلم الواحد والظاهرة الواحدة فقد يلجأ البحاث لأكثر من منهج في دراستهم للظواهر، لكون المنهج ما هو إلا أداة لتحقيق الموضوعية، وبالأخذ بعملية البحث عن المناهج الأكثر مناسبة لطبيعة العلم ظهرت فكرة العلم البينيInterstitial science: العلم الذي يتضمن مجموعة من العلوم مثل ؛ علم الكيمياء وعلم الفيزياء، وعلم البيولوجيا، وعلم البيئة .... في دراسة الظاهرة ، لأثبات العلمية و الموضوعية الكاملة لدراسة الظواهر [11] وهي تعني بذلك تظافر المناهج في دراسة الظاهرة الواحدة، أي بمعنى تكامل وتفاعل المناهج المختلفة لدراسة ظاهرة من جميع جوانبها وفي كافة المجالات .

فالظاهرة التي تتعامل مع مناهج متعددة شريطة أن تلتزم تلك المناهج بأصول المنهج العلمي المستخدم ، تدخل في ركب الظواهر المدروسة علمياً على الرغم من تعدد مناهجها، لأن المنهج الذي يفسر الظواهر كافة طبيعية كانت أو تطبيقية هدفه التوصل إلى حقيقة الأسباب ووضع الحلول المناسبة لمواجهتها ، لكون المنهج العلمي ومنهجية البحث تقوم على دراسة الظواهر وكل ما يحيط بها من مسببات، أي لا تقتصر على جانب واحد فقط ، لذلك يحاول الباحثون دراسة الظاهرة بصورة تكاملية، من خلال اتخاذ المناهج المناسبة لكل جوانبها، من أجل إيضاح صورتها المنطقية ويتم ذلك بتبيان العلاقات التي تربط بين مكونات تلك المادة العلمية، في مفاهيمها، وفي قضاياها، والإشكاليات التي تثيرها ، في ظل هذا التكامل المنهجي وتظافره ظهرت منهجية علم محاكاة الطبيعة ، أو ما يعرف **بمنهج المحاكاة التكاملي** الذي يهدف من ورائه تحقيق الاستدامة في مجالات كثيرة منها: الهندسية بجميع تطبيقاتها ومجالاتها، والطبية وتقنيات معداتها، وعلم سلوك الإنسان الفلسفية والاجتماعية، والعالم الرقمي اللغة المعاصرة لكافة تلك المجالات .

مما سبق يتبين لنا أن المنهج العلمي الذي يقوم على استقراء الوقائع الملاحظة، والتجربة، والمقارنة والتأمل ،والاستنتاج، لا يعني أنه مجرد تقنية مادية نقوم باستخدامها لإيجاد حلول لإشكاليات الظواهر وتفسيرها، فالتعامل مع الظاهرة من خلال مظاهرها المادية فقط يجردها من أبعادها الفلسفية ومن مضامينها غير المنظورة، وعليه أصبح أهمية المنهج العلمي تكمن في دوره التطوري، الذي أدى إلى تطور العلوم، هذا الدور التطوري أصبح كامناً في العودة للطبيعة وفهم مكنوناتها للاستفادة منها في حياتنا التطبيقية ، وذلك من خلال ربط العلاقة بين تفسير الظاهرة وكيفية تطبيق منهجيتها ، فكانت بذلك الطبيعة هي المعلم الأول لتعليم القوانين ومبادئها ومن ثم تقليدها لحل المشاكل المعقدة عن طريق عدة مناهج تبنى على تلك المحاكاة، أي محاكاة الظواهر الطبيعية واستنباط منهجيتها، وتطبيق تلك المنهجية تقنياً، لربط علاقة الجانب التقني الطبيعي بالجانب التقني المادي، من خلال التفكير العلمي التأملي والتطبيقي التجريبي.

وفي هذا الصدد أصبحت الطبيعية هي المرشد الأول للمنهجية العلمية، فهي كائن حي منظم ذاتي التنظيم تتفوق في قدراتها المنهجية العديد من المجالات على قدرات الإنسان البشرية لذا فهي المصمم المتكامل الذي نستخلص منه حلولا للمشاكل التي تواجهنا لاكتشاف اتجاهات جديدة نتعايش بها في بيئاتنا في وحدة متكاملة كما تتعايش تلك الطبيعة مع كل ظواهرها في تكامل تام، من هنا كانت مشكلة البحث عن منهجيه تمكننا من الاستفادة من تلك التعايش هي الهدف الأسمى للباحثين، فظهر في العلم محاكاة تلك الطبيعة كأداة استراتيجية لتحقيق التعامل مع الواقع من خلال دراسة تطبيقاتها في مجالات متعددة كالتصميم والعمارة والبيولوجي للتوصل إلى فكر يضاهي ذلك التصميم ويحقق التوازن مع البيئة والدمج بين الطبيعة والتكنولوجيا.

ثانياً: منهج المحاكاة وتاريخ تطوره.

عندما نظر الإنسان للطبيعة وكل ما تشتمل عليه من جوانب فيزيائية وبيولوجية واجتماعية ، كعنصر أساسي للاستلهام، شيد الطبيعة الصناعية لعالمه، وذلك لما تمتاز به – الطبيعة – من ترابط عناصرها وتكاملها مع بعضها البعض، وهذا ما جعلها المجال المؤثر بفاعلية مستديمة والنموذج المنهجي للمحاكاة منذ القدم . فلم تكن تلك المنهجية وليدة الحاضر، بل حاكى الإنسان الطبيعة بكل مكوناتها منذ الأف السنين، واستلهم منها كيفية التغلب على كل مصاعب الحياة، ولنا في كيفية الدفن والغراب مثال، وباستمرار الصعاب تزايد الاكتشاف من خلال التأمل والتقليد، فعرف الإنسان الملابس من جلود الحيوانات وفروها، وأخذ منهجية مراقبته للطبيعة ومنظوماتها والحيوان وسلوكه والنبات ومكوناته أساساً لتكييف تعايشه مع الطبيعة ، لكونه عنصراً من ضمن عناصرها، ومع تزايد مواجهته المصاعب في التعامل مع ما يجهل من مكوناتها ، كانت الفرضيات هي الأسلوب الأمثل للتكيف فيها، ولنا في الأساطير وقصص التاريخ دليل على بدايات "علم محاكاة الطبيعة الافتراضي" ، فهو علم قديم في جذوره حديث في تطبيقاته، فقدم هذا العلم يلازم قدم الفلسفة وكذلك تطوره، فقد حاكت الحضارات الشرقية القديمة الطبيعة في كل مجالاتها الطبية والمعمارية والفنية ، فاستخدمت المواد التحنيطية للملوك الفرعونية من نباتات وتركيبات عشبية ، وجدو فيها ما يدل على محاربة

تلك النباتات للفيروس والبكتيريا، فقاموا باستخدامها للمحافظة على موتاهم، وكذلك الأشكال الهندسية والمعمارية للمعلقات والأهرامات وأبو الهول ماهي إلا انعكاسات تطبيقية لما في الطبيعة وتقليده، أما الفن والموسيقي ومحاكات الأصوات باختلاف أنواعها كانت الطبيعة بكل مخرجاتها هي المجال الأول المتناغم لتلك الفنون.

وبتتبع تلك المنهجية عبر العصور، نجدها في الفن عند الفلاسفة اليونانيين، فقد فسر أفلاطون الفن بأنه محاكاة، وتنقسم تلك المحاكاة إلى قسمين: قسم يعتمد على المعرفة ويصاحبها الصدق، وقسم لا تصحبه معرفة وثيقة بحقيقة الأصل الذي يحاكيه، وإنما هي نقل آلي يعتمد على التمويه ، لذلك لا تُعبر عن الجمال الفني الحق لأن أصحابها شغفوا بنقل الواقع كما يبدو لحواسهم، وابتعدوا عن العمق والمعقولية وإلتزام الأهداف الأخلاقية، فكانت محاكاة تبدوا للناظر أنها تشبه الحقيقة ولكنها خيال لا يشبه الحقيقة، مقابل المحاكاة الأولى المشابهة للحقيقة [12]، هذا ما أكده سقراط في محاورة جورجياس بقوله: " بأن المحاكاة التي لا تتعمق في معرفة طبيعة الشيء لا يمكن أن يكون لها قيمة" [13]، وهنا تلتقي المحاكاة الحقيقية بالفلسفة لخلق الفن الجيد الصحيح الذي يحاكي الأصل بقدر الإمكان وصولاً للمثالية، لا لصور شبيه بالحقيقة.

ونلاحظ أنه منذ نشأة مفهوم المحاكاة في الفن وهو يختص بالنظر للطبيعة والتعلم من انسجامها وتناسقها لتكوين الصور الفنية التي تعكس المنظور العقلي لتلك المحسوسات، فهذا الإدراك للعالم الحسي ومحاكاته نظر إليه أرسطو بأنه غريزة فطرية منذ الطفولة، لذلك رأي أن الفنان المبدع عندما يحاكي الطبيعة ، لا يحاكي مجموع الكائنات المكونة للعالم الطبيعي بل القوة الباطنة المحركة للكائنات حركة تلقائية تنشد بها كمال صورها ليكمل بها الطبيعة ، وذلك من خلال تجاوزه لها بحثاً عن المثل الأعلى. [14]

وبذلك تكون المحاكاة عند أفلاطون وأرسطو تصوراً خاصاً، ففي كتاب الجمهورية كان أفلاطون قد انتقد الفن فاعتبره مجرد محاكاة لمحاكاة، فمثلا قد يصنع الصانع سريرا، مقلداً لفكرة مجردة أبدية، أما الرسام فلا يهتم إلا بما هو ظاهر خارجي، ولا يحاكي إلا ما صنعه الصانع. فالمقصود بالمحاكاة عند أفلاطون هو النسخ، أما أرسطو في كتابه فن الشعر، فلخص نظريته حول المحاكاة "في أن مبدأ كل الفنون يقوم على محاكاة الطبيعة لا بوصفها شكلاً أو مثالاً وإنما لما فيها من مظاهر عامة دائمة تصلح لكل زمان ومكان، وذلك ما يميز الفنان أو الشاعر في رأيه عن المؤرخ الذي لا يهتم إلا بدقائق الأمور وحوادثها التفصيلية" [15] وقد أدى المفهوم الأرسطي دوراً مهما في تطور مدارس الأدب بأوروبا منذ عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

بهذه التحليلات لمفهوم المحاكاة في الفلسفة اليونانية يتبين لنا من حيث المبدأ ، أن المحاكاة بمفهومها اليوناني لا يختلف عن علم محاكاة الطبيعة المعاصر، فتكرار أو محاكاة العديد من العمليات والظواهر الحيوية الموجودة في الطبيعة لا يتأتى إلا من خلال معرفة القوة المحركة لتلك الكائنات الحية وظواهرها كما أشار أرسطو في المحاكاة الفنية ،أي العودة للطبيعة وفهم مكوناتها للاستفادة منها في جميع مجالات حياتنا، لذلك

كانت للأجهزة والأنظمة التقنية التي ظهرت منذ مئات السنين دوراً هاماً في تطور منهجية المحاكاة، وأول محاولة تقنية كانت دراسة الطيور للأخوين رأيت : ORVILLE AND WILBUR WRIGHT'S, اللذان اخترعا أول أثقل طائرة تحاكي طريقة طيران الحمام الزاجل، وفي عام 1960 م طور "جاك ستيل" مصطلح " البيولوجيا الإلكترونية" [16]ويعني به محاكاة أنظمة الطبيعة التطبيقية، لذلك تُعد المحاكاة قديمة في جذورها حديثة من حيث التطبيق العملي التقني.

ولهذا يُعرف مفهوم المحاكاة لغوياً في القاموس العربي بأنه الْمُمَاثَلَةُ، الْمُشَابَهَةُ، التَّقْلِيدُ، فهو مصطلحٌ ذات طابع ميتافيزيقيٌّ، يونانيُّ الأصل قديم قدم الفلسفة ، مشتق من مجموع كلمتين الأولى (bios) والتي تعني الحياة في اللغة الإغريقية و كلمة (mimesis) والتي تعني المحاكاة [17]، وهي تعني تكرار أو تقليد العديد من العمليات والظواهر الحيوية الموجودة في الطبيعة ضمن إطارٍ فلسفي علمي يعكس الشكل والطريقة والمنظومة التي في الطبيعة وتحاكيها بتطبيق المباشر في كثير من حقول العلوم التطبيقية والصناعية بهدف إنتاج منتجات صناعية و بآليات صنعية (من صنع الإنسان) مشابهة وتحاكي مثيلاتها الطبيعية .

وفي المقابل نجد البروفسور توماس شبيك يؤكد على أن المحاكاة ليس نقلاً كربونياً عن الطبيعة، ولكنه ابتكار جديد مستوحى من أمثلة طبيعية، فهو يمر بعدة مراحل قبل أن يصل إلى المنتج النهائي" [18] وهنا يؤكد أن الطبيعة وما تتميز به من خاصية التطور المتعدد من المواد الأولية هي ما يجب أن يحاكيه الإنسان ، لكون عملية التطور الدائم أساسها التأقلم مع كل الظروف والتغلب عليها واكتشاف ما هو جديد مما يمتلك وهذا ما يحتاجه للاستمرارية، فمثلاً بياض البيض مكون من عدد قليل من الجزيئات، 20 حمض أميني على وجه التقريب، ولكن يَنتج عدداً ضخماً من المواد، فقد استلهم الإنسان هذه الخاصية في صناعة النسيج: فالخيوط تصنع من الألياف، ومن الخيوط تنتج الأقمشة. وبمشاهدة الطبيعة يجد الإنسان أن الأمر لا يتوقف على سيقان النبات المكونة من الألياف، إذ أن العظام أيضا مكونة من الألياف، وتحليل هذه التركيبات الطبيعية للمواد المختلفة، ثم نقلها وتحويلها لتقنية جديدة يفتح مجالاً كبيراً من التطبيقات، وبذلك يكون الهدف من عملية المحاكاة ، ليس إعادة إنشاء موقف معين أو مجموعة من المواقف بكافة تفاصيلها ،لتقديم نموذج مقلد للطبيعة، ولكن خلق الطاقات الجديدة المقلدة ليصل بها العلم إلى تكنولوجيا مستقبلية متناغمة ومتسق لخدمة الإنسان.

كما أن قدرات الطبيعة تتفوق في العديد من المناحي والمجالات على قدرات الإنسان البشرية في التكيف والتغلب على مصاعب البيئة، فقد استلهم العلماء هذه الخاصة فمن محاكاة نباتات "البوص" التي تنمو في منطقة البحر المتوسط ، وقدرتها على الاحتباس البخاري، وكذلك قدرة نبات ذنب الخيل بالقنوات الوظيفية التي تفتح في جدار العود، تم محاكاة تلك القدرة في مد توصيلات الوقود و المياه والكهرباء عبر القنوات، ولن تتوقف قدرات الطبيعة في التغلب على مصاعب البيئة عند هذا الحد، فخاصية الالتئام الذاتي، أي إصلاح الذات من أهم القدرات لدى المكونات الطبيعية، فعندما يجرح الإنسان أو ينكسر عود النبات يقوم بإصلاح ذاته، فأمكن تقليد هذه الخاصية في المعمل، وإصلاح ثقوب في أنسجة تصل إلى 5 ملليمترات باستخدام

الوسيلة نفسها التي تستخدمها الطبيعة، كما حاكى العلماء طريقة نبات اللبان المتسلق الذي ينقل المياه حتى مسافة 1 كيلومتر في إمكانية نقل السوائل إلى اعلى بدون مضخات، ولقد ساعد تطبيق هذه التقنية في الزراعة على الاقتصاد في المياه المطلوبة ومنع تبديد كميات المياه.

ونتيجة لما سبق، تُعد الطبيعة مجالاً خصباً يساعد على الابتكار الإبداعي لكونها مصدر الإلهام ، هذا المجال يندرج تحت Bio – mimicry ويعرف بأنه الإلهام الطبيعي لابتكارات مجالات مختلفة، من خلال محاكاة وظائف الطبيعة ، مقابل مجالات أخرى للطبيعة ومحاكاتها مثل: Bio–morphism الذي يحاكي الشكل الجمالي لمظاهر الطبيعة حتى وأن كان ليس طبيعياً، ليلهمنا بشكلها الجمالي وتقليده في حياتنا من حيث الألوان وتناسقها ، وأحجامها ، وانسجامها وتناغمها بشكل مادي ليس بالطبيعي، كما أن هناك نوع آخر من المحاكاة، هو استخدام الطبيعة بذاتها Bio – utilization وهو استخدام المحاكاة لخدمة البشرية في صورة تكنولوجيا، هذه المجالات في مجملها تنظر للطبيعة بأنها مصدر إلهام، وجميعها بينها تناغم ، ولكننا نركز في بحثنا على Bio – mimicry ، أي كيف نتعلم من الطبيعة ونطبقها في حياتنا شريطة إلا نكون مثلها ، ولكن مقلدين لها ؟ وما الأشياء المقصودة في الطبيعة كمصدر للإلهام والمحاكاة؟ وما دور الطبيعة في عملية المحاكاة؟.

إن ما نعنيه أن الطبيعة مصدر إلهام، أن بها أشياء تمثل هذا الإلهام لذلك تُعد الطبيعة نموذجmodel ؛ أي أنها النموذج الأمثل الذي نستنبط منه الأشكال والأنماط التي تستخدم والاستراتيجيات التي نتعلم منها والعمليات التي تقوم بها الطبيعة فتلهمنا بأفكار إبداعيه جديدة ومستدامه، الطبيعة مرشد mentor ؛ أي مصدر المعرفة فنسعى باحتراف للاستفادة من عبقريتها في أعمالنا التطورية، لتطوير المجتمع والتصاميم الطبيعة مقياسmeasure؛ أي أنها نقطة مرجعيه نرجع إليها لنُقيم انفسنا ومعايير النجاح مقارنة بنظامها الإبداعي، وبذلك تكون الطبيعة كنموذج ومرشد ومقياس لعملية المحاكاة، ولو تساءلنا عن الأشياء التي نتعلم منها في عملية المحاكاة ، لوجدنا اقتصارها على (الشكل والطريقة والنظام) المتخذ في الطبيعة لكائناتها: فمن شكل Form منقار الطير ذو القوة والإتقان لمجابهة البيئة وتلبية حاجاته منها، استلهم شكل مقدمة القطارات ووسائل المواصلات ، ومن الطريقة Process في تأسيس المواد الأساسية التي تحميها من مجابهة مصاعب الطبيعة، وتجعلها مزدهرة ولها القدرة على العيش في بيئتها ومستمرة، من خلال إفراز مواد كيميائية على أجسامها تحميها من إشاعة الشمس الضارة، وطريقة التي تقوم بها كي تقوم بتصنيع تلك المواد، ومن طريقتها الهندسية في بناء منازلها وخلاياها، وكيفيتها التنظيمية في عملية البناء والانسجام والتناغم في العمل ، من مجمل هذه الطرق نتعلم وتتم عملية المحاكاة، وكذلك نحاكي في الطبيعة المنظومة System التي تقوم بها في البيئة لعملية التفاعل والتعاون مع بعضها البعض بالرغم من اختلافها لتعيش في توازن وانسجام.

ثالثاً: نظريات المحاكاة .

هناك نوعان من نظريات التقليد (المحاكاة)،التقليد عند الإنسان والتقليد عند الحيوان.

أولاً التقليد عند الإنسان .

أ – النظرية التحويلية:

تشير النظريات التحويلية إلى أن عملية المحاكاة (تكرار السلوك) يتم إنشاءها داخليا من خلال العملية الإدراكية لمراقبة السلوك، وهذه المراقبة تجعل عامل التكرار ممكناً ، أي تتولد لدي الإنسان القدرة على التكرار نتيجة الإدراك الناشئ من التركيبة الدماغية ، وتُعد النظرية الإدراكية الاجتماعية **في التعلم بالملاحظة والتقليد لألبرت باندورا Albert BANDURA** أحد الأمثلة على النظرية التحويلية: فقد بين باندورا بنظرية التعلم الاجتماعي، أن عملية التعلم تتم من خلال تقليد نموذج معين، وهذا النموذج لا ينحصر في شخص ما، وذلك عندما يدرك الإنسان مدى قدرته على محاكاة تلك السلوك المُدرك، أي عملية المحاكاة تتكون من جزأين هما: وجود قدوة وملاحظتها وتقليد سلوكها ، ونظام نفسي للفرد يمثل إحساس الفرد بقدرته على تقليد السلوك (مفهوم الفرد عن قدراته) [19].

وبذلك يبين أن عمليات المحاكاة تبدأ داخلياً ومن ثم يتحول هذا الشعور لمراقبة النموذج وتقليده، لذا تنطلق هذه النظرية من افتراض رأي مفاده أن الإنسان كائن اجتماعي يعيش ضمن مجموعات من الأفراد يتفاعل معها ويؤثر ويتأثر فيها، فهو يلاحظ سلوكيات وعادات واتجاهات الأفراد الآخرين ويعمل على تعلمها من خلال الملاحظة والتقليد. حيث يعتبر هؤلاء الآخرين بمثابة نماذج (Models) يتم الاقتداء بسلوكياتهم، وتتم عملية التقليد وفق ما يتوسط الملاحظة من عمليات معرفية تُمكن المُلاحظ من التنفيذ وهو ما يعرف بـ "التعليم الكامن" [20]، وبجانب هذا الجانب المعرفي يوجد الجانب الانتقائي ، الذي يقوم بانتقاء السلوك المُقلد من النموذج بناءً على المستوى الدافع والعمليات المعرفية لدى الفرد المُلاحظ.

ومن هنا أشار باندورا أن التعلم بالملاحظة يتضمن ثلاث آليات رئيسية هي: أولاً العمليات الإبدالية" **Reciprocal processes** وهي تأثير سلوك النموذج على نحو بديلي في سلوك المُلاحظ ، ثانياً: العمليات المعرفية " **Cognitive Processes** " ، وهي عملية قائمة على انتقاء السلوك المراد تقليده بعد ملاحظته بناءً على معرفته ، ثالثاً: عمليات التنظيم الذاتي " Self – Regularity Processes [21] وتأتي هذه العملية كمرحلة تنظيمية للأنماط السلوكية المستطاع القيام بها والمتوقعة نتائجها.

ب – النظرية الترابطية: ترى أن عملية محاكاة السلوك لا تأتي من داخل أنفسنا ولكن فقط من محيطنا أو الخبرات المكتسبة، وبذلك تنفي أن يكون للإحساس الداخلي دور في عملية المحاكاة، لكونها تقوم على فرضية أن المعرفة موجودة في العالم وليس في رأس الفرد بشكل مجرد، لقد أطلق عليها اسم نظرية التعلم في العصر الرقمي [22]، الترابطية: نتيجة تأثير التكنولوجيا على معيشة الناس، و كيفية تواصلهم وطريقة تعلمهم ، فقد وصفها ستيفن داونز " بأنها المعرفة الموزعة عبر شبكة من الاتصالات والتي تظهر من خلالها قدرة المتعلم

على بناء واجتياز تلك الشبكات [23]." لذا تُعد النظرية الترابطية هي انعكاس لطبيعة التطور المتسارع للعالم، لكننا نلاحظ أن هذه النظريات تختص بالإنسان لكونه هو الوحيد الذي يتميز بعمليتي التحويل والترابط في عملية المحاكاة.

ثانياً: نظريات التقليد عند الحيوان.

أما فيما يخص نظريات التقليد عند الحيوانات، فقد عرفت بنظريات باتسيان نسبة إلى العالم هنري والتر باتسيان (1825–1892) الذي قام عام 1861 م بتقديم نتائج الأبحاث على الفراشات بناء على نظرية تشارلز داروين عن التطور، موضحاً أن المحاكاة عند الحيوانات هي حالة من حالات المحاكاة الوقائية أو الدفاعية، حيث يكون المحاكي أفضل من خلال تجنب المواجهات مع مستقبل الإشارة، وذلك بعدما قام بدراسة مجموعة من سلوكيات الفراشات وباستخدام نظرية الانتقاء الطبيعي لداروين استنتج باتسيان أن التطور له دور في مجتمعات المحاكاة في الحشرات .

كما كان للتقليد عند مولريان نظرية تري أن التقليد هو شكل من أشكال المحاكاة حيث يظهر حيوانان خطران لا علاقة لهما بمظهر مماثل كجهاز واقي مشترك، أي تتشبه مجتمعات كاملة من الأنواع ببعضها البعض بيولوجياً لتجنب الحيوانات المفترسة والوقاية من الخطر وتسمي بالتبادل المنفعي للحماية، **مثل محاكاة** فراشة ساعي البريد الحمراء وفراشة ساعي البريد الشائعة التي تظهر موضعًا مماثلًا تقريبًا للنقاط على الأجنحة مثل ما يوجد على أجنحة فراشة ساعي البريد الحمراء للحماية. كما تعتمد الحيوانات على محاكاة البيئة للتخفي، مثل بعض اليرقات التي تستقطب اللون الأخضر من الأشجار التي تعيش عليها[24] .

وحيث أن الإنسان من بين تلك الكائنات الموجودة في الطبيعة ويسعى دائماً للعيش فيها براحة وسعادة، عليه أن يلتمس ذلك لمواجهة صعابها من محاكاته لتلك الكائنات واستخدام منهجيتها في التغلب والتكيف مع كل الصعاب التي تواجهه ، فقام بتطبيق تلك المنهجية لتحسين حياته ومن النماذج التطبيقية في المجالين الإنساني والتطبيقي نقف لنعطي بعض الأمثلة كنماذج وتبيان أهمية تلك المنهجية في أساسيات حياة الكائن الحي .

رابعاً: تطبيقات المحاكاة .

إن علم محاكاة الطبيعة هو العلم الذي يهتم بالمحاكاة البينية لكل العلوم التطبيقية والإنسانية، مستخدماً لذلك أحدث المقاييس التطورية، ابتداءً من المقاييس الماكروية وانتهاءً بالمقاييس النانويةً التي تُعد العامل الأساسي لتطور العلوم وتقدمها خاصة العلوم التطبيقية والهندسية والصناعية والحيوية ، وفي إطار فلسفي سنقف عند أهم تلك التطورات المنهجية ، لتبيان التطبيقات المباشرة لمحاكاة الطبيعة في كافة المجالات

العلمية، مقتصرين على بعض النماذج كأمثلة في العلوم الإنسانية الاجتماعية ؛ مثل المحاكاة في علم النفس الاجتماعي، وعلم النفس العام . أما العلوم التطبيقية ، سنفرد لها بحثاً مستقلاُ نتناول فيه منهج المحاكاة في المجالين المعماري والتكنولوجي.

أ – العلوم الإنسانية :

تستعمل كلمة محاكاة في سياقات عديدة لكافة الكائنات بأشكال متفاوتة ، فهي سلوك متقدم يأتي بعد المراقبة والتكرار أي التقليد، لذا تُعد شكل من أشكال التعلم الاجتماعي الذي يسمح بنقل السلوكيات والعادات وغيرها بين الأفراد وانتقالها إلى الأجيال، وسبق وأن تناولنا مصطلح التقليد بمعنيين : الأول ؛ المحاكاة بمعنى مطابقة الفعل الأصلي وتُعد بذلك تقليداً، والثاني ؛المحاكاة بمعنى تقليد الفعل مع تطويره بما يتناسب مع الظاهرة وتُعد تطويراً.

أما ثورندايك فقد عرف المحاكاة على أنها " تعلم عمل فعل من رؤيته يُعمل" فربط بين المثيرات والاستجابات لتكون من أهم دعائم التعلم عند الإنسان والحيوان على حد سواء، موضحاً أن التعلم بالمحاولة والخطأ أفضل نموذج للمحاكاة، واضعاً لذلك عدة قوانين : قانون الأثر الطيب، قانون التدريب أي تكرار العمل ولهذا القانون شقين هما :الاستعمال المتكرر وعدم الإهمال، وقانون الاستعداد النفسي، وبجانب تلك القوانين وضع مجموعة من القوانين الثانوية، وبصدد ذلك تكون المحاكاة هي طريقة تعليمية قائمة على الملاحظة والتكرار والاستفادة من المحاولات الخطأ وصولاً إلى العمل المُقلد الأصلي. ولم يقتصر المعنى على ذلك فقط، بل هناك بعض النظريات التي ترى أن كل الكائنات تحاكي أفكاراً من حضارات أو بعض الكائنات الأصلية، على سبيل المثال ، نظرية الانتشار التطوري، ترى أن الحضارات تؤثر على بعضها، لكن هناك أفكاراً متشابهة يمكنها أن تظهر بمعزل عن بعضها، لتشكل تفاعل قائم على محاكاة السلوك الفردي لمجموعة الكيانات الاجتماعية وتكرارها.

فقد انطوت مقدمة ابن خلدون على الكثير من الأفكار الخاصة بتأثير التقليد أو المحاكاة في الحياة الاجتماعية, مما جعله يطلق على هذه العملية مصطلحات كثيرة مثل المحاكاة, والتشبه, والاقتدار والتقليد, فقد بدأ قوله بأن التقليد ظاهرة قديمة قدم الإنسان ذاته فهو صفة عريقة في الآدميين, وبعبارة أخرى أن المحاكاة للإنسان طبيعة معروفة، كما أرجع أبن خلدون التقليد إلى أسباب نفسية أو ذاتية موضحاً الدافع إلى التقليد هو نزعة داخلية تدعو الأفراد إلى تقليد بعضهم البعض. [25] وبذلك حظيت فكرة المحاكاة أو التقليد أو النقل التاريخي باهتمام كبير عند مفكري علم الاجتماع بداية من ابن خلدون حتى القرن التاسع عشر, وخاصة عند إيميل دور كايم ، فقد دار حوار بينه وبين جابريل تارد تناولا فيه أثر المحاكاة في الحياة الاجتماعية، وقد طرحا من خلال هذا الحوار قضية العلاقة بين علم الاجتماع وعلم النفس، موضحين مدى التأثير المتبادل بين المتغيرات الاجتماعية والنفسية على الوظائف التي تُؤدى في المجتمع.

وفي هذا الصدد، انتقل مفهوم المحاكاة من مجال الفنون والأدب كمفهوم فردي إلى السلوك الاجتماعي ،أي الدراسات السيسيولوجية ، خاصة بعد صدور كتاب قوانين التقليد عام 1890 م لجابريل تارد Gabriel Tarde(1843–1904) الذي فسر فيه الأنماط السلوكية وعلاقتها بالمحاكاة عند الأفراد، فالمحاكاة حسب تارد لها علاقة بكل أنواع السلوك الاجتماعي سواء أكانت سلوكيات مرتبطة بعادات اجتماعية نافعة ومقبولة أو عادات اجتماعية سلبية شاذة مثل الجريمة، فالمحاكاة تتناول الأفكار والعقائد والقيم والمهارات واللغة، مشيراً في كتابه لأهمية اللغة في الأعراف الماضية، ونقل أثر الخبرات على اختلاف مستويات تنظيمها عبر الأجيال وعبر عقول الأفراد رغم أنها ليست الوسيلة الوحيدة [26].

أما دوركايم فقد أشار في كتابه "تقسيم العمل الاجتماعي" لنوعين من المجتمعات: النوع الأول مجتمع آلي ؛ وفيه الأفراد المجتمعين غير قادرين على تغيير أوضاعهم، والنوع الثاني مجتمع عضوي ؛ وهو المجتمع الحديث ذو الوظائف المتباينة بين الأفراد فيكونوا شبه تابعين بعضهم البعض [27]، وبالتالي ينشأ من تقسيم العمل أشكال جديدة ومختلفة من التضامن تتأسس حول التبعيات المتبادلة بين أفراد المجتمع.

من هذا المنطلق هناك نوعان للمحاكاة: الأول يحاكي فيه الفرد الأشياء القديمة كما في المجتمعات القبلية ، والثاني في المجتمع الحديث الذي يؤسس على التتابع المتباين المتطور، وفي كلا المجتمعين يكون الفرد هو جزء مكمل للجماعة، وتكون المحاكاة عبارة عن سلوك فردي يقوم على التقليد والمتابعة أو المشابهة. إذ ينتقل هذا السلوك من فرد إلى فرد، ثم من الفرد إلى الجماعة، ثم من الجماعة إلى المجتمع، فهي فردية قبل أن تكون اجتماعية، فلا تكون المحاكاة إلا في الجماعة كما وصفها تارد وخاضعة لعدة قوانين تراتبية كنظام تصاعدي يكون فيه التقليد من أعلى إلى الأسفل وليس العكس فالموظف يقلد مديره والفقير يقلد الغني، قوتها تتعلق بمتانة العلاقة الاجتماعية الجدلية بين الفرد والمجتمع (تأثير والتأثر) [28] ، الأنماط السلوكية متداخلة وتتغير بفعل الزمن، ليكون بذلك منهج المحاكاة اجتماعي أكثر من كونه منهج فردي.

ولمنهج المحاكاة الاجتماعي دوراً هاماً في تطور المجتمع، فهو بديلاً عن منهجي الاستقراء والاستنباط التقليديين ؛ لأنه قائم على فكرة التحليل والملاحظة والتتبع التي تنتج كميات كبيرة من البيانات يمكن تحليلها ، وهذه البيانات دقيقة ومخصصة، فبالمحاكاة يكون تحليل الهياكل والعمليات الاجتماعية بعد فهم المحلل بنية وعمليات النظام ، ويصفه بالصلاحية البنيوية ويجعله أحد العناصر الثلاثة في تقييم صحة النموذج، وبذلك تستطيع المحاكاة الاجتماعية تقديم التحليل العلمي للظواهر وتوفر تفسير للسلوكيات الجديدة المتطورة في المجتمع و بناء مجتمعات مصطنعة .

وقد تتناول الدراسات الإنسانية و الاجتماعية في محاكاة العلوم الطبيعية مناهج تجريبية اصطنعتها لنفسها تناسب دراسة أحوال الإنسان وظواهره ، لذلك استخدمت أدوات وأجهزة للبحث خاصة للارتقاء بالعلوم الإنسانية ليصبح لها من النفع في المجال العلمي وخدمة البشرية ما للعلوم الطبيعية والرياضية من سيادة وتفوق في فهم الظواهر الطبيعية التي اكتشفت ، وذلك انطلاقاً من الاعتقاد بأهمية المنهج التجريبي. فعرفت العلوم الإنسانية

المحاكاة الحاسوبية للظواهر الاجتماعية كنظام تجريبي معاصر في دراسة الظواهر وذلك في عام 1994 م [29]، عندما تم نقل السلوكيات والآليات والعمليات من الواقع الاجتماعي لأجهزة الكمبيوتر كنشاط منطقي لتنفيذ هذه الآليات، وبذلك دعم نظام الحوسبة منهجية المحاكاة من خلال توضيح المناهج النظرية والمساهمة في تقييم النظريات البديلة وإلقاء الضوء على الظواهر الاجتماعية الرئيسية في العلوم الاجتماعية وتبيان كيفية انبثاقها من الفعل الفردي، وبهذا التقدم اشتملت عملية المحاكاة على شقين: دراسة الظواهر الاجتماعية بمنهج تجريبي، واستخدام نظام الحوسبة في دراسة الظواهر الاجتماعية، ليكون بذلك منهج المحاكاة في العلوم الإنسانية يضاهي التطور المنهجي في العلوم الطبيعية، وقد لعب الكمبيوتر دورًا مهمًا في تحليل تلك الظواهر الاجتماعية، و قدم بعض علماء الاجتماع دراسات محاكاة متطورة لحل بعض الظواهر الاجتماعية (مثال محاكاة هجرة الجراد وحل ظاهرة الازدحام المروري)

اتخذ منهج المحاكاة الاجتماعي من هجرة الجراد حلاً لمشاكل المرور، فقد أثبتت الأبحاث العلمية أن الجراد يقدم للمجتمعات الحل الأمثل لتفادي الحوادث ، فعلى الرغم من سفر الجراد أظهروا أنهم لا يصطدمون أبدًا مع بعضهم البعض ، نتيجة قدرة الجراد على ارسل إشارة إلكترونية إلى أي جسم يقترب منهم فيقوم بتحديد موقع ذلك الجسم و تغيير اتجاه سيره ، ووفقا لذلك تجرى الأبحاث فى تطوير حساسات السيارات لمحاكاة تلك الطريقة التي يستخدمها الجراد من أجل تفادي حوادث السير [30]

كما تُعد المحاكاة في علم النفس هي إعادة للفعل تحت تَأْثِيرِ عَوَامِلَ **نَفْسِيَّةٍ** لِحَرَكَاتٍ وَأَعْمَالٍ المُدرك، لذا تُعرف بإنها العلم الذي يبحث فِي طَبَائِعِ ذَاتِ الْإِنْسَانِ رَغَبَاتُهَا وَإِحْسَاسُهَا وَانْفِعَالاَتُهَا لمعرفة أسباب المحاكاة[31] ، فقد أثبتت الدراسات العلمية إن الإنسان لدية القدرة على المحاكاة لما يمتلكه من أنظمه دماغية تمكنه من محاكاة السلوك ، وهذا ما أقره .Hugo Karl Liepmann عام 1908 من خلال نموذجه الهرمي الذي أكد من خلاله : أن الأفعال المُخططة والمهيمنة تُحَضَّر في الفص الجداري من نصف الدماغ والفص الأمامي أيضاً، هذه النتيجة كانت الخلاصة التي توصل إليها بعدما أقام تجربته على المصابين بآفات في الدماغ ، فتوصل بإنها ليس لديهم القدرة على محاكاة سلوك الآخرين، أي تعذر الأداء [32]

وعند تحليل السلوك وجده نتيجة لانفعال داخلي أساسه الإحساس والرغبة، والإدراك ومن ثم المحاكاة أو التقليد ، وهو ما يعرف بالسلوك الخارجي، وبذلك يكون هناك انفعال فكري وانفعال حركي للمحاكاة، في هذا الإطار المعرفي للخلايا العصبية اكتشف.Liepmann الخلايا العصبية المرآتية: وهي عبارة عن شبكة عصبية في القشرة الجبهية السفلية والقشرة الجدارية السفلية لها خاصية معينة وهي تفعيل مهام التقليد، وقد سميت بالمرآة لتشابه وظيفتها في المحاكاة بنقل الصور في المرآة [33]

وقد كان هذا الاكتشاف سبق وأن قام باكتشافه عالم الأعصاب .راماشاندران أثناء تجاربه على قرود المكاك وتقليدها لسلوك البشر[34] ، لذا يُعد اكتشاف الخلايا العصبية المرآتية أهم تقدم في علم الأعصاب الإنساني ، لكونه أداة هامة للإنسان تمكنه من اكتساب المهارات المعقدة مثل اللغة،

وبذلك تكون الوظيفة الأساسية للخلايا العصبية المرآتية ، هي وظيفة إدراكية للتعلم والتقليد، وهذا الإدراك هو التواصل الخارجي مع مجتمعه وشرائحه المختلفة، فيكون الإدراك هو المحصلة للانفعال والرغبة في التقليد ، وبصدد ذلك يكون علم النفس الاجتماعي علم موضوعه الإنسان من حيث هو كائن حيّ يرغب ويُحسّ ويدرك وينفعل فيبحث في انفعالات النَّفس ووقائعها ،ومدى تأثرها بالمجتمع الذي يعيش فيه ويستعين به ، ولكنه قادر على أن يتخذه مادة لتفكيره وأن يؤثر فيه [35] وبذلك يكون للأحداث السيكولوجية ناحيتين : داخلية ذاتية وناحية خارجية موضوعية ، فالظاهرة السيكولوجية ماهي إلا سلوك الإنسان من حيث هو وحدة لا تتجزأ أي متكاملة (جسد ونفس) ، لذلك لها علاقة وثيقة بعلمين؛ علم الحياة وعلم الاجتماع ولا يفسر السلوك الإنساني إلا بتلاقي مجمل هذه العلوم : البيولوجية والاجتماعية والسيكولوجية لكونه وحده متكاملة لا تتجزأ ، وتُعد الخلية العصبية – التي تقوم بتنسيق وظائف الإنسان– حلقة الاتصال بين علم الحياة وعلم النفس ، بينما تُعد اللغة في علم الاجتماع هي حلقة الوصل الثانية مع علم النفس [36]، وبذلك تلتقي تلك العلوم في عمل بيني لتفسير السلوك الإنساني، وتدرس الظاهرة الإنسانية خارجياُ بالمنهج الموضوعي البيولوجي والاجتماعي، بينما داخلياُ أو ما يعرف بالاستبطان وهو إحساس الإحساس وتأمل ما يجول في الذهن وانعكاسه، فيكون عن طريق علم النفس، وبصدد ذلك يُعرف علم النفس الاجتماعي بانه:": فرع من فروع علم النفس يبحث في سلوك المجموعات وتأثير العوامل الاجتماعيّة على الفرد" وعندما نتطرق لسؤال سبق طرحه فيما يتعلق بالمحاكاة وهل هي خاصية إنسانية استثنائية أم هي خاصية تشمل الحيوانات أيضاً ؟ نجد عالم النفس كينيث كاي kenneth kayeيقول: أن للأطفال الرُضع قدرة على مجاراة الأصوات أو الإيماءات لشخص بالغ ، وذلك نتيجة العملية التفاعلية من أخذ الدور في حالة تتابعها ، حيث يلعب السلوك الغريزي للشخص البالغ دورا بأهمية دور السلوك الغريزي للرضيع.بينما في عام 1952 قام هايز وهايز بوصف وتوضيح أداء الشمبانزي الذي تربى في المنزل عمره 3 سنوات في مجموعة متنوعة من مواقف اختبار التقليد .أظهرت المقارنات أن الشمبانزي متساوي في هذا الصدد مع عدد من الأطفال بعمر 3 سنوات [37]،

وسبق وأن اشرنا إن قرود المكاك القديمة هي السبيل لاكتشاف الخلايا العصبية المرآتية للإنسان ، نتيجة ما تتملكه من قدرة على التقليد ، كما جُمِعت أدلة على أن دلافين تستخدم المحاكاة لتتعلم الصيد وغيرها من المهارات من الدلافين الأخرى.وقد شوهدت القرود اليابانية تبدء بغسل البطاطا تلقائيا بعد رؤية بشر يقومون بغسله[38].

لذا يُعد الجزم بالقول أن المحاكاة خاصية يتميز بها الإنسان دون غيره من الكائنات ، أو يفوق القدرة في التقليد عن غيره ، لقول يحتاج للأثبات العلمي، فكثيراً ما تثبت الدراسات البحثية أن الكائنات التي غيرت بيئتها استطاعت أن تحاكي الواقع الجديد، لتجعل من الملائمة هي الصفة السائدة للتغلب على كل الصعاب ، لذاك لا نستطيع الجزم بإن القدرات الإنسانية المتمثلة في العقل هي الأداة الوحيدة القادرة علي المحاكاة ومن ثم كان الإنسان الأقدر على ذلك ، لكن علينا النظر لهذه القدرات بإنها متفاوتة وهذا الاعتقاد هو الأقرب إلى الصواب ، فهناك من الحيوانات من استطاعت أن تنسج من وبر الصوف بيوتاً تناسب أعشاش الشجر المعتادة

على السكن فيها فجمعت تلك الأجزاء وصنعت منها بيوتاً تحاكي بيوتها في الطبيعة ، لذا تتفاوت القدرات بين الإنسان والحيوانات ، كما تتفاوت قدرات المحاكاة بين إنسان وآخر، وهذا ما أكدته دراسة جديدة أن القرود من فصيلة "مار موست" تتكيف بسرعة مع اللهجات عندما تنتقل من بيئتها إلى بيئة جديدة وتحاكي هذه اللهجات في غضون أسابيع قليلة.

وفي هذا الصدد صرحت الدكتورة جوديث بوركارت لصحيفة" الاندبندنت:"."إنهم مثل البشر، عندما تنتقل إلى مكان جديد وبيئة جديدة فإننا نقوم باستيعاب لهجات جديدة، إنه لأمر مدهش لأننا لطالما اعتقدنا أن التواصل الاجتماعي مهم ولكن ليس بهذه الصورة." وأضافت: "غيرت القردة التي انتقلت إلى بيئة جديدة لهجتها كما أنه من المحتمل أن المجموعة الأصلية ساعدتها أيضا وفعلت نفس الشيء."وكان العلماء يدركون من قبل أن النداءات بين "المار موست " تختلف من منطقة لأخرى لكنهم لا يعرفون السبب وراء ذلك. واعتقدوا أنه يمكن أن يكون السبب وراثيا أو نتيجة عوامل بيئية أو اكتسبوها من خلال التعليم الاجتماعي. وقد أكد الدكتور إيفون زورشر بعد أبحاثه لعدة مستعمرات للقرود في بيئات مختلفة بقوله : "يمكننا أن نقول بأن اللهجات هي مكتسبة ويتم تعلمها اجتماعيا، لأنه إذا كانت وراثية فالانتقال لن يؤثر عليهم ولا يمكن أيضا تفسير التغييرات بالاختلافات البيئية" (39).

" كما نشرت الصفحة الرسمية لـ China News" خبراً يبين كيف لقرد الشمبانزي في حديقة حيوانات في منطقة تشونغ كينغ في الصين.يحاكي سلوك البشر في غسل الملابس بالماء والصابون بعدما شاهد ذلك العمل.

وهذا ما أكدته الدراسات البحثية التي تم نشرها في مجلةScience Advances" لجامعة كاليفورنيا وهارفارد، كارنجي بأنه بالرغم من أن البشر والقرود لا يتحدثون نفس اللغة بيد أن طرق تفكيرهم متشابهة ، وخاصة في عملية التقليد إذا تكرر العمل أمامهم مع ملاحظة عدم تكرار الخطأ عند المكافئة

وهذا لا يعني أن عملية المحاكاة لا تقتصر على الإنسان كما إنها غير شبيها بالمحاكاة عند الحيوان ، ولكن سمة التفاوت في القدرات هي السائدة لتلك العملية المنهجية ، فإننا بتتبع منهجية المحاكاة لدي الإنسان نلاحظ

أن الكثير من فهم الأطفال مستمد من التقليد الحركي قبل المحاكاة اللفظية، فتقليد للطفل هو بمثابة النشاط العقلي الذي يساعده على صياغة مفاهيم العالم، ويبدأ هذا النشاط الذهني بتقليد الحركي منذ الولادة ، فقد أشارت العالمة أندرو ميلتزوف من خلال دراستها لحديثي الولادة : " أن تقليد حركات الجسم يبدأ في عمر مبكر جداً وهو عمر الولادة". فالرضع قادرون على محاكاة التعابير الوجهية في الأيام الأولى من حياتهم، مثل مُحاكاة ابتسامة، تقطيبه ، استياء، كما كثيراً ما يقلد الأطفال أطفالاً صغاراً وهو ما يعرف بالتقليد المتبادل ، وبداية من عمر العامين يبدأ مع الطفل ما يعرف بالتقليد اللفظي ، وتختلف المقدرة على المحاكاة بين الأطفال فقد أثبت الدراسات البحثية: إن الأطفال ذوي العامين أظهروا تقليداً لأفعال حركية أكثر من الأطفال ذوي ثلاثة

الأعوام، في حين أظهر الأطفال ذوو ثلاثة الأعوام تقليداً لفظياً واقعياً أكثر من الأطفال ذوي العامين. كما أظهر الذكور تقليداً حركياً أكثر من الإناث.

وتوالت محاكاة ظواهر الحيوانات إلى الاستفادة من آلية دفاع ثعبان البحر الكهربائي Electrophorus electric's وقدرته بتغطية ثلثي جسمه الذي يبلغ طوله مترين في 5000 إلى 6000 لوحات منتجة للكهرباء تنتج 550 فولت / 2 أمبير من الكهرباء يكفي لصعق الأسماك حتى متريْ .[40] فقام العلماء باستخدام تلك الآلية الدفاعية . هذا فيما يخص المحاكاة البشرية للطبيعة، ولكننا عندما نتساءل عن الكيفية المعاكسة لعملية المحاكاة ،أي هل المحاكاة عند البشر لها نظير عند الحيوانات؟

وعند التطرق لتعريف المحاكاة القائل : " أعمل كما أعمل " لوجدنا أن المحاكاة بمعناها التقليد قد مارسه الكثير من الحيوانات ، فقد حاكت قرود الشمبانزي المدربة سلوكيات النماذج الناتجة من التكرار، ودعم ذلك هايز وزملاؤه عندما قدموا دليلاً على المحاكاة عند الجرذان التي دفعت رافعة في الاتجاه نفسه كما فعلت النماذج، وبطريقة أكثر منهجية قام كوستانس وزملاؤه بتقديم نموذج اختياري "الفاكهة الاصطناعية" حيث يوجد شيء صغير يمكنه أن يُفتح بطرق مختلفة للحصول على الطعام الموضوع بالداخل–لا يختلف عن فاكهة ذو قشرة صلبة .باستخدام هذا النموذج، استطاعت قرود "ape" عديمة الذيل تقليد سلوك النموذج وصولاً للهدف والحصول على الطعام ،. وبذلك أثبتت الدراسات البحثية أن ما يتعلمه الحيوانات عن طريق المحاكاة لا يكون بالضرورة الأنماط السلوكية التي تلاحظ، فقد تتعلم الحيوانات بعض التأثيرات البيئية مثل : كيف تتحرك الأداة، أو كيف يعمل الجهاز وهو ما يعرف بـ "التعلم بالمراقبة " وهذا ما أشار إليه كارل زيمر عندما أراد معرفة مدي تفاوت منهجية المحاكاة بين الإنسان والحيوان، فقام بإجراء نفس الدراسة على ست عشرة طفلاً وأتبعوا نفس الخطوات السابقة وحالما رأى الأطفال كيف عُملت، قاموا بإتباع الخطوات نفسها، وبذلك أثبت منهجية المحاكاة عند الإنسان والحيوان، وهنا سؤال يطرح ذاته ما مدى القدرة الاستيعابية لمنهجية المحاكاة لكليهما؟ أي هل نستطيع القول بتساوي مفهومية وادراك المحاكاة لديهما؟ وللإجابة لزم التطرق للجانب النفسي لعملية الإدراك والمحاكاة ومعرفة آليتها.

ب– العلوم التطبيقية

لقد اتخذ من سونار الخفاش نظاماً لتحديد الطريق في الظلام الدامس ، ففي الآونة الأخيرة ، اكتشف الباحثون كيف يستطيع الخفاش البني الحشري ، Eptesicus fuscus، معالجة مليوني صدى متداخل في الثانية . علاوة على ذلك ، يمكنه إدراك هذه الأصداء بدقة 0.3 ملم فقط (80/1 من البوصة) ، ووفقاً لهذه الأرقام ، فإن سونار الخفافيش أكثر حساسية بثلاث مرات من نظيره من صنع الإنسان، فعملت وزارة الدفاع الأمريكية على تخصص ميزانية لمحاكاة تلك الطريقة لخدمة المجتمع ، فأدت هذه المحاكاة تطوير مهارات الملاحة للطائرات في الظلام ،كما قدمت الأبحاث التي أجريت باستخدام كاميرات التصوير الحراري بالأشعة تحت الحمراء وأجهزة الكشف بالموجات فوق الصوتية معلومات مهمة حول كيفية طيران الخفافيش بحثًا عن الفريسة

في الليل .يمكن للخفافيش أن تصطاد حشرة من الجو حيث ترتفع الحشرة عن العشب .حتى أن بعض الخفافيش تغرق في الأدغال لالتقاط فرائسها .ليس من السهل الاستيلاء على حشرة تطن في الهواء باستخدام الموجات الصوتية المنعكسة فقط .لكن إذا اعتبرت أن الحشرة من بين الشجيرات ، وأن الموجات الصوتية ترتد من جميع الأوراق المحيطة بها ، فسوف تدرك ما لها من مهمة مثيرة للإعجاب يقوم بها الخفافيش في الواقع. في وضع مثل هذا ، تقلل الخفافيش من صريرها السونار ، لمنع ارتباكها بسبب أصداء من النباتات المحيطة . ومع ذلك ، فإن هذا التكتيك في حد ذاته لا يكفي لتمكين الخفافيش من إدراك الأشياء بشكل فردي ، لأنها تحتاج أيضًا إلى التمييز بين وقت وصول واتجاه الأصداء المتداخلة [41]. تستخدم الخفافيش أيضًا السونار عند الطيران فوق الماء للشرب ، وفي بعض الحالات ، لالتقاط الفريسة من الأرض .يمكن رؤية قدرتها الخبيرة على المناورة عندما يطارد خفاش آخر .إن فهم كيفية القيام بذلك سيسمح لنا بإنتاج مجموعة واسعة من المنتجات التكنولوجية ، وخاصة معدات الملاحة والكشف بالسونار .علاوة على ذلك ، فإن نظام السونار عريض النطاق للخفافيش يتم تقليده اليوم أيضًا في تكنولوجيا كنس الألغام[42]

وكذلك عندما قام العلماء بإلقاء نظرة فاحصة على الدلفين ، وعلى كيفية تحديد الموقع بالصدى، فدلفين يستطيع أن يحدد الموجات الصوتية تحت سطح البحر وسرعتها التي تعادل 1500 متر في الثانية ؛بدون إجراءات حسابية فقط عن طريق الإلهام ، فعمل العلماء على محاكاة تلك القدرة في الغواصات والرادارات البحرية كطريقة أمنة للجنود[43]

لاتزال المحاكاة الحيوية تتطلب المزيد من الاستكشاف والابتكار والإبداع ، ولكن من خلال العمل على استخدام المنهج البيني في التفكير و النظر إلى الطبيعة للحصول على الإلهام و المحاكاة 58 وبالفعل هذا ما قامت به العديد من الشركات، إذ جعلت ضرورة عمل المهندسين الإلكترونيين والميكانيكيين جنبًا إلى جنب مع علماء الأحياء للمساعدة باكتشاف مدي قدرة الخفاش في الرؤى الليلية و محاكات تلك المقدرة لمساعدة ضعاف البصر، وبالفعل قام المهندسون المتأثرون بسونار الخفافيش بتركيب وحدة سونار صغيرة على زوج من النظارات بعد فترة من التعرف على النظارات ، أصبح بإمكان المعاقين بصريًا الآن تجنب العقبات وحتى ركوب الدراجات، وهذا لا يعني أن هذا النظام يحل محل عين الرؤية البشرية كما أنه لن يكون وظيفيًا مثل تلك الموجودة في الخفاش[44] ولكنه يساعد على إمكانية التغلب على بعض الصعاب أفضل من السابق.

ولم تتوقف أبحاث محاكاة الخفاش عند هذا الحد، بل عمل الباحثون في جامعة إد نبرة روبوتاً يستخدم أذنيه الذكية ليجد طريقه عن طريق تحديد الموقع ، تمامًا مثل الخفاش ، وقد أطلق خوسيه كارمينا على هذا الاختراع اسم ."RoBat" تم تجهيز RoBat بمصدر صوت لا مركزي يقوم بنفس وظيفة فم الخفاش ، وجهازي استقبال ثابت على مسافة يمكن مقارنتها بآذان الخفافيش .أخذين في الاعتبار عند تصميم .RoBat تحرك الخفافيش آذانها لاكتشاف أنماط التداخل في الصدى، وبالتالي ، يمكنها بسهولة تجنب العقبات أمامها ، والتنقل ومطاردة الفرائس، تم تجهيز الربات بأجهزة استشعار صوتية ذكية تحاكي قوة الاستشعار في أذان الخفافيش ، وبفضل هذه المستشعرات الصوتية المستوحاة من الطبيعة ، استخدمت شركات تصنيع السيارات

مثل مرسيدس وبي إم دبليو أجهزة استشعار فوق صوتية لمساعدة السائقين على الرجوع للخلف.يتم من خلالها تنبيه السائق إلى مدى قربه من السيارة أو أي عائق آخر خلفه [45].

الخـاتـمة :

ومما سبق يمكن استخلاص النتائج الآتية:

أولاً: إن كانت الدلالة المباشرة للفظة المحاكاة تعني التقليد، فإن ذلك لا يكون في المستوى المطلق للدلالة، حيث أنها تدل من المنظور البحثي على منهج علمي يهدف إلى الوصول لنتائج استكشافية معرفية في مجالات العلوم المختلفة.

ثانياً: يبدأ منهج المحاكاة بملاحظة الكائنات الحية وكذلك الطبيعة بهدف استنباط المعارف والمعلومات المختصة بقدرات هذه الكائنات لتوظيفها في ابتكارات تكنولوجية، وأيضاً معرفة جوهر آليات النظام الكوني في الطبيعة لتوجيه المسار التقاربي بينه وبين النظام المصنوع من قبل الإنسان، والأمر نفسه لفهم العمليات السلوكية النفسية بين الأنماط المشتركة للكائنات الحية بأنواعها المختلفة لتحسين السلوك الإنساني.

ثالثاً: لا يعد منهج المحاكاة منهجاً مستقلاً بذاته عن المناهج الأخرى، بل يستخدم من خلال المنهج البيني التكاملي مع المنهج الاستقرائي والاستنباطي والتجريبي وأيضاً منهج الفهم الخاص بالعلوم الإنسانية.

رابعاً: يستخدم منهج المحاكاة التكاملي في جميع مجالات العلوم المختلفة سواء في مجال العلوم الطبيعية أم العلوم الإنسانية مع الاحتفاظ بالمناهج الخاصة بطبيعة كل علم على حدة، متضمنة مبدأ تكامل وتضافر المناهج العلمية البحثية

الهوامش [i] :

1. **يمنى طريف الخولي.** مفهوم المنهج العلمي. القاهرة : مؤسسة هنداوي، 2020. ص 20
2. **مجمع اللغة العربية.** المعجم الفلسفي. القاهرة : المطابع الأميرية، 1979. الصفحات 195, . المجلد الأولى.
3. **عبد الرحمن بدوي.** مناهج البحث العلمي. مكان غير معروف : وكالة المطبوعات، 1977,. صفحة ص 10. المجلد الثالثة.
4. **جميل صليبا.** المعجم الفلسفي. الأول. بيروت : دار الكتاب اللبناني ، 1973. صفحة 21. المجلد الأولى.
5. **إبراهيم خليل أبراش:.** المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الاجتماعية. عمان ، : دار الشروق،، 2008 م. صفحة 65. المجلد الأولى.
6. **تد هندرتش.** دليل أكسفورد في الفلسفة. [المترجمون] نجيب الحصادي. الجزء الأول (أ - غ). المنامة : هيئة البحرين للثقافة والآثار، 2021. صفحة 106. المجلد الأولى.
7. **المرجع السابق ، ص 107.**
8. **إبراهيم خليل أبراش: المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الاجتماعية، مرجع سبق ذكره، ص 69.**
9. **المرجع السابق ، 73.**
10. **المرجع السابق ، ص 74.**
11. **محمد محجوب.** العلم البيني. بنغازي : الشركة الليبية الدولية للدعاية والإعلان، 2021. صفحة 3. المجلد الأولى.
12. **أميرة حلمي مطر.** فلسفة الجمال. القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع. صفحة 40. المجلد الثانية.
13. **المرجع السابق ، ص 41.**
14. **المرجع السابق ، ص 62.**
15. **مجدي وهبة - كامل المهندس.** معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،. مكان غير معروف : مكتبة لبنان،، 1984. صفحة ص ، 339. المجلد الثانية، .
16. **Department of Pure and Applied Chemistry.** (IOSR Journal of Applied Chemistry (IOSR-JAC). (Sep. – Oct, 2013.

17. **Ibid .P (70)**
18. **Articles.** biomimicry in architecture. 30 July, , 2021.
19. **ع عبد المجيد سيد أحمد منصور و آخرون :.** علم النفس التربوي. القاهرة : , دار الأمين للطباعة و النشر ,، 1997م. صفحة .ص (236). المجلد الأولى.
20. **ناصف مصطفي.** نظريات التعليم، دراسة مقارنة،. [المترجمون] على حسين حجاجص. ج.2. مكان غير معروف : عالم المعرفة،، ، 1986م. الصفحات ص .133,.
21. **صالح محمد علي أبو جادو.** علم النفس التربوي. عمان، : دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 1998م. صفحة ص 180 . المجلد الأولى.
22. نظرية التعلم للعصر الرقمي،. لمجلة الدولية لتكنولوجيا التعليم والتعلم عن بعد،. المجلد. 2 رقم 1، 1 يناير, 2005.
23. **هاتشينز،.** كيف تتذكر قمرة القيادة سرعتها. العلوم المعرفية. 19 يناير, (1995)،. الصفحات 265-288, .
24. **Batesian،. "** Encyclopædia Britannica. 13 Oct, 2011.
25. **Harper ،G. R ؛Pfennigof .** Mimicry on the edge: Why do mimics vary in resemblance to their model "" ، "in different parts of their geographical range?". 274، .2007، 162.
26. **جمعة سيد يوسف،.** سيكولوجية اللغة والمرض العقلي،. يناير, 1990،، لعدد 145، صفحة 14.
27. **الدكتور معن خليل،.** علم المشكلات الاجتماعية. عمان، الأردن : دار الشروق للنشر والتوزيع،، 1998. صفحة 30. المجلد الأولى.
28. **عصام توفيق قمر،.** المشكلات الاجتماعية المعاصرة، مداخل نظرية، أساليب المواجهة. مصر : دار النهضة، 2000. صفحة 43. المجلد الأولى.
29. **عدلي السمري ومحمد الجوهري، طالب عبد.** العلم الاجتماع والمشكلات الاجتماعية،. القاهرة : ، دار المعرفة الجامعية، 1998. صفحة 87. المجلد الأولى.
30. **Harun yahya.** BIOMIMETICS:Technology Imitates Nature. GLOBAL PUBLISHING : Istanbul/Turkey، 2006. صفحة 115. المجلد 1.
31. **Stanford Encyclopedia of philosophy.**
32. **Mazziotta ؛JC ،Rizzolatti . G** ؛ "Cortical Mechanisms of Human Imitation. Science. 286، (1999)، 5449.
33. **Rizzolatti ،Giacomo ؛Craighero :.** ("The Mirror-Neuron System". Annual Review of Neuroscience. (2004). الصفحات 169–92.
34. " Mirror Neurons and imitation learning as the driving force behind 'the great leap forward' in human evolution"". **Ramachandran ،V.S.** 8 march, 2019.
35. مبادئ علم النفس. صفحة 10.
36. **المرجع السابق ، ص 12.**
37. **Hayes ،Keith J ؛Hayes ،Catherine" . .** Imitation in a home-raised chimpanzee .Journal of Comparative and Physiological Psychology.9–450 الصفحات .، 45 ،5 المجلد ،1952 .
38. Learning and Instinct in Animals .**William Homan .**London : Thorpe.1963 ,8 21 ،،
39. **عزيزة محمد فؤاد الشرابي، د مني محمد الدوسري.** .أساسيات عامه في سلوك الحيوان،. مكان غير معروف : دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، 2008. صفحة ص65. المجلد الأولى.
40. Bilim ve Teknik**") .Iste Doga** ،.1 **."**، march, 1985.
41. **Harun yahya. BIOMIMETICS:Technology Imitates Nature .**Ibid,P,51 .
42. **P(69) Ibid .**
43. **Ibid .**P,70.
44. — .P , 71 .
45. **I Ibid .**P, 74 .

جدول المحتويات:

العنوان	الصفحة
الملخص	2
المقدمة	3

أولاً: مفهوم المنهج ودلالاته	4
ثانياً : منهج المحاكاة وتاريخ تطوره.	8 – 11
ثالثاً: نظريات المحاكاة. **أ – النظرية التحويلية** **ب – النظرية الترابطية**	12 - 18
رابعاً : تطبيقات المحاكاة. **أ – العلوم الإنسانية** **ب – العلوم التطبيقية**	13 – 19
الخاتمة	20
الهوامش	21

أثر التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية: فهم الواقع أنموذجًا

THE IMPACT OF THE COGNITIVE INTEGRATION BETWEEN THE LEGAL AND HUMAN SCIENCES: UNDERSTANDING THE REALITY AS A MODEL

إعداد

الدكتور / عبد النبي الردلي

المغرب– أكاديمية فاس مكناس

dardari.abdou@gmail.com

العدد الثالث عشر – يوليو – 2023 م

الملخص:

الغرض من هذا البحث إبراز أثر التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية والإنسانية في فهم الواقع وتحقيق مناطاته، إذ هو الضامن الأساس لتنزيل مراد الله تعالى تنزيلا سليما، وبذلك نجعل العلوم الشرعية قادرة وحاضرة في موكب التدافع الكوني تسهم فيه ولو بمقدار في ظل هاته التحولات والظروف القاهرة التي لا ترحم من تخلف عن الانفتاح على هاته العلوم. وتوصل البحث إلى نتائج، منها: أن العلوم الشرعية والإنسانية تتكامل معرفيا ومنهجيا في رصد الواقع، فالثانية تساعد الأولى باعتبارها أداة كاشفة عن خبايا الواقع، والأولى تساعد الأخيرة في تطوير مناهجها حتى تحقق هذا الهدف المنشود، وهذا التكامل يساعد المجتهد على تصوير الواقع تصويرا محكما ويؤهله لتنزيل مراد الله على أتم وأحسن وجه.

الكلمات المفتاح: – التكامل – المعرفة – علوم شرعية – علوم إنسانية – الواقع.

Abstract

The purpose of this research is to highlight the impact of the cognitive integration between the legal and human sciences and in understanding reality and achieving its implications. It is the basic guarantor of good downloading of the will of Allah. Thus, we make the legitimate sciences capable and present in the procession of the cosmic scramble to contribute to it in light of these transformations and compelling circumstances that are merciless for those who failed to open to these sciences. The search came up with results including that the legal and human sciences are integrated cognitively and methodologically in monitoring reality, the second helps the first as a revealing tool for the mysteries of reality, and the first help the latter in developing its curricula until it achieves this desired goal. This integration helps the diligent to portray reality tightly and qualifies him to download Allah's will in the most complete and best way.

Keywords: Integration - Knowledge - Legal Sciences - Human Sciences - Reality.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد:

المعرفة بوجه عام لها مصدران أساسان لا ثالث لهما، الأول: الوحي بشقيه قرآنا وسنة، الثاني: الكون وما فيه من عوالم مختلفة، والقرآن الكريم لفت انتباهنا في أول ما أشرق من أنوار هذا الوحي الخاتم على دنيا الإنسان إلى الجمع بين القراءتين، وهو قوله سبحانه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾[i]

، فـ"اقرأ" الأولى: إشارة إلى القراءة الكونية في الكتاب المنظور، بدءا بقراءة الذات الإنسانية من بداية الخلق إلى نهاية الحياة بأطوارها المختلفة، مرورا بقراءة الكون والآفاق، ومعرفة العلوم المختلفة التي استنتجتها البشرية من خلال هاته القراءة. والثانية: إشارة إلى القراءة الشرعية في الكتاب المسطور (القرآن الكريم)، فليس هناك تكرار بين الأمر بالقراءتين، بل لكل قراءة معناها المراد بها، ولكل منهما خصائصها، ومجالها ومتعلّقها، ومناهجها وكيفياتها وميادينها، ومؤشرات تقويمها، ولا بد في قراءة آيات وبصائر الكون أن تكون موجهة ومرشدة بآيات وبصائر القرآن لتأتي القراءتين أكلهما. وهاته الإشارة القرآنية اللطيفة تؤسس لفكرة التكامل المعرفي بين العلوم الدينية، والعلوم الكونية وخاصة العلوم الإنسانية منها، كعلم الاجتماع وعلم النفس، إذ لهما أثر بالغ في فهم الواقع وملابساته فهما سليما، حتى يتسنى للفقيه تنزيل الحكم الشرعي منزلته الصحيحة في مراعاة لكافة مقتضيات السياق.

وهذا يحتم ضرورة على علماء الشرع الانفتاح على العلوم الانسانية بفروعها المتعددة والإفادة منها، لبعث وإحياء العلوم الدينية وتجديدها حتى تتفاعل مع مستجدات العصر، في ضوء مقاصد وفلسفات العلوم كما يقرها القرآن الكريم في أبعادها الإنسانية والكونية والتواصلية دون نزوع نحو هيمنة أو استبداد معين.

وهذه الورقة جاءت بعنوان: "**أثر التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية: فهم الواقع أنموذجاً**"، وانطلقت من إشكالية مفادها: ما مدى إسهام فلسفة التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية في فهم الواقع وملابساته؟

ويتفرع عن هذا الإشكال عدة أسئلة جزئية وهي: ما المراد بالعلوم الشرعية؟ ما المراد بالعلوم الإنسانية؟ وما أوجه التكامل بين العلوم الشرعية والإنسانية انفراداً واجتماعاً؟ وأي أثر لهذا التكامل في تحقيق جودة الفهم للواقع وحسن تنزيل الأحكام على الوقائع؟

من خلال هذا الإشكال يمكنني تحقيق الأهداف التالية:

إدراك أهمية التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية والوقوف على عوامل التأثير والتأثر فيما بينها.

بيان أثر هذا التكامل في خدمة العلوم الشرعية فهما وتنزيلاً.

إدراك أدلة اعتبار العلوم الإنسانية عند تنزيل الأحكام على الوقائع.

حاولت الإجابة عن إشكال هاته الورقة في مبحثين هما:

المبحث الأول: العلوم الشرعية والإنسانية: المفهوم وأوجه التكامل

المبحث الثاني: أثر التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية والإنسانية في فهم الواقع

وقد عالجت هذا الموضوع وفق منهج الاستقراء لاستنباط أوجه التكامل المعرفي بين هاته العلوم انفرادا واجتماعا، وكذا منهج التحليل والمقارنة لاستخلاص النتائج التي تسهم في الإجابة عن تساؤلات البحث وتحقيق أهدافه.

المبحث الأول: العلوم الشرعية والإنسانية: المفهوم وأوجه التكامل

المطلب الأول: العلوم الشرعية: المفهوم والتكامل.

أولاً: تعريف العلوم الشرعية: يتوقف تعريف العلوم الشرعية على تعريف هذا الموصوف وصفته، فالموصوف هو العلوم، والصفة هي الشرعية.

التعريف بالموصوف: العلوم جمع علم، والعلم لغة: نقيض الجهل، يقال: علمت الشيء أعلمه عرفته[2]، ويطلق في الاستعمال على أمور ثلاثة:

الأول: إدراك الشيء على حقيقته التي هو عليها في الواقع.

الثاني: الشيء المدرك، أي المسائل المدركة نفسها، فعلم الفقه مثلا، يطلق ويراد به نفس المسائل والمباحث التي تكوّن منها هذا العلم.

الثالث: الملكة التي يقتدر بها على إدراك مسائل وقواعد العلم مع حسن توظيفها واستثمارها[3].

التعريف بالصفة: الشرعية: نسبة إلى الشرع الإسلامي، وهو ما شرعه الله لعباده من أحكام على لسان أنبيائه ورسله[4]. وقد تنسب هاته العلوم إلى "الدين"، فيقال: "العلوم الدينية"، إلا أن الاستعمال الأول أكثر تداولا، لأنه أخص بالإسلام، والثاني أعم لأنه يشمل سائر الديانات، فبينهما عموم وخصوص من وجه، فكل علم شرعي علم ديني، دون عكس.

تعريف العلم الشرعي: عرفه ابن حجر بقوله: "هو الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص"[5]. وعرفه عليش بتعريف أوسع يشمل العلوم الأساسية والعلوم الخادمة حيث قال: "هو ما يحتاجه الشخص في نفسه ومعاملته، من فقه وأصوله وحديث وتفسير وعقائد، وما تتوقف عليه كنحو ولغة وصرف وبيان ومعان"[6]. إلا أنه أدرج بعض العلوم المساعدة كعلم أصول الفقه ضمن العلوم الأساسية.

ثانياً: أقسام العلوم الشرعية: قسم علماء المسلمين العلوم الشرعية إلى تقسيمات مختلفة، منهم الإمام الغزالي حيث قسمها إلى أربعة أضرب فقال:

الضرب الأول: الأصول: وهي أربعة كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة.

الضرب الثاني: الفروع: وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبّه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره، وهذا على ضربين، أحدهما: يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه، والثاني ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه.

والضرب الثالث: المقدمات: وهي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

الضرب الرابع: المتممات: وذلك في علم القرآن، فإنه ينقسم: إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير، وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه، ويتناول السنة أيضاً، وأما المتممات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم[7].

ويمكن اختزال هاته الأضرب في ضربين أساسين:

الضرب الأول: علوم أصلية (علوم الغاية): وهي فقه القرآن الكريم والسنة النبوية، أما الإجماع وآثار الصحابة وعلم الفقه، فكل ذلك ناتج عن الفهم للقرآن والسنة، لأن الإجماع يكون مستندا إلى دليل خفي من القرآن أو السنة، وكذا الفقه وآثار الصحابة فهي أحكام مستنبطة من هذين الأصلين.

الضرب الثاني: علوم خادمة للعلوم الأصلية (علوم الآلة): ويندرج فيها علوم اللغة، وعلوم القرآن والقراءات، وعلوم الحديث، وعلم أصول الفقه، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وعلم المنطق.

ثالثاً: التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية: العلوم الشرعية وحدة متكاملة لا تتجزأ ولا تتبعض، وإنما يخدم بعضها بعضا لتحقيق غاية واحدة وهي: الفهم السليم لنصوص الوحي وتنزيلها تنزيلا صحيحا في واقع الناس، والعلوم الخادمة لا تقل أهمية عن العلوم الأصلية، لأنه لا يمكن الإفادة من القرآن والسنة إلا بواسطتها.

أما بالنسبة للقرآن والسنة فهما وحدة متكاملة المعنى فلا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر، لأن السنة هي المفسرة للقرآن والمبينة لأحكامه، والتوصل إلى مراد الله لا يتم إلا بالنظر الكلي فيهما.

وأما علوم اللغة بفروعها المختلفة فلها تعلق بالقرآن والسنة تعلق الوسيلة بالغاية، لأن القرآن الكريم نزل بلغة عربية، ومن ثم فلا يمكن فهمه حق فهمه إلا بواسطة هاته اللغة، فهي مفتاح أسراره ومكنوناته[8].

وعلوم القرآن كالعلم بالمكي والمدني وأسباب النزول، تساعد على فهم القرآن وتفسيره تفسيرا صحيحا، والعلم بالناسخ والمنسوخ يتوصل به إلى معرفة الآيات المنسوخات من الآيات المحكمات حتى لا تختلط الأحكام.

وأما علم أصول الفقه ومقاصد الشريعة فهما السّلم الذي نرقى من خلاله إلى استنطاق النص الشرعي واستنباط ما فيه من أحكام وحكم، كما يساعدان على إيجاد الأحكام للنوازل والمستجدات التي لم يرد فيها نص بواسطة القياس أو التقدير المصلحي.

وإذا تأكدت هاته القضية فلابد من الإلمام بهاته العلوم كلها أصولا وفروعا، حتى نخرّج من محاضن العلوم الشرعية علماء يمتازون بجودة الفهم وحسن الاستنباط أثناء معالجتهم للقضايا المستجدة داخل هذا المجتمع المتغير.

المطلب الثاني: العلوم الإنسانية: المفهوم والتكامل

أولاً: مفهوم العلوم الإنسانية: يتوقف مفهوم العلوم الإنسانية على تعريف هذا الموصوف وصفته، فالموصوف هو العلوم، والصفة هي الإنسانية، وقد تقدم آنفا التعريف بالموصوف.

التعريف بالصفة: الإنسانية: لغة: اسم مؤنث منسوب إلى إنسان، وقيل: مصدر صناعي من إنسان، وهي ضد الحيوانية أو البهيمية، وتعني الصفات التي تُميّز الجنس البشري عن غيره من الأنواع، ويراد بها أيضا: مجموع أفراد النوع الإنساني أو الجنس البشري[9].

تعريف العلوم الإنسانية في الاصطلاح: عرفت العلوم الإنسانية بعدة تعاريف نذكر منها الآتي:

– تعريف مصلح الصالح: "هي نظم تختص بدراسة الحياة الإنسانية أو السلوك الإنساني أو التجربة الإنسانية على مستوى الأفراد والجماعات وتشمل الموسيقى والفن، ويمكنها معالجة مسائل خارجة عن نطاق العلم مثل القضايا الميتافيزيقية والأخلاقية وتقابل العلوم الطبيعية"[10].

– تعريف مصطفى سانو حيث قال: هي المعارف التي تعنى بدراسة الإنسان وواقعه المعيش في بعده النفسي والتربوي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والتاريخي قصد تقديم تفسير معقول لسائر الظواهر المؤثرة في توجيه الإنسان وفي تطلعاته، ومعتمدها كل الوسائل والسبل المعنية على إدراك حسن وتقويم الواقع[11].

فالعلوم الإنسانية محورها الإنسان وواقعه المعيش في كل أبعاده قصد توفير الأمن والاستقرار الشامل له في كافة المجالات، ويندرج تحتها مجموعة من العلوم، أبرزها: علم النفس الذي يعالج الإنسان فرداً، وعلما التاريخ والاجتماع اللذان يعالجانه في إطار الجماعة، وعلوم الاقتصاد الذي تضبط نشاطه المعاشي، وعلوم الإدارة التي تستهدف دراسة وتنظيم مؤسساته العامة، وعلوم السياسة التي تنسق علاقاته العامة والخاصة، وعلوم القانون التي تحمي حقوقه وتنظم واجباته، والآداب والفنون التي تتابع رؤيته الجمالية ونشاطه التعبيري.

فهاته العلوم تتكامل فيما بينها لخدمة الإنسان وتوفير سبل الراحة له على المدى القريب والبعيد، قصد تحقيق الخلافة المنوطة به على أتم وأكمل وجه، وتعمير الكون ماديا بالبناء والعمران، ومعنويا بالإيمان والعمل الصالح، وبذلك يتحقق النهوض الحضاري للأمة، وهذا لا يتم إلا إذا كان الاشتغال بهاته العلوم موجها ومرشدا بآيات وبصائر القرآن، إذ العلم المؤسس على الإيمان يكون معمرا، وإذا أسس على غير الإيمان أصبح مدمرا، والواقع شاهد على ذلك

المطلب الثالث: أهمية التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية

إذا كان المصدر المعرفي للعلوم الشرعية هو الوحي بشقيه قرآنا وسنة، فإن مجال تطبيقها هو الواقع والكون والإنسان، وهو مجال بحث العلوم الإنسانية، وهذا التلاحم القائم بين العلمين يؤكد على وحدة العلوم والمعارف مصدرا وغاية، فمصدر العلوم كلها واحد وهو الله سبحانه وتعالى، سواء أكانت وحيا أوحى الله به للإنسان بأساليب الوحي المعروفة، أم يسر للإنسان اكتشافها واكتسابها وتطويرها بأساليب البحث والفكر والنظر، وغايتها واحدة وهي خدمة الإنسان فردا كان أو جماعة من أجل تحقيق مصلحته وتطوير حياته نحو الأفضل.

وقد أسس القرآن الكريم لحقيقة التكامل المعرفي بين هاته العلوم حيث شاءت حكمته أن تكون أول آية نزلت على قلب رسول الله تأمرنا بالقراءة المزدوجة قراءة الوحي وقراءة الكون، كما دعتنا كثير من الآيات القرآنية إلى التأمل والتدبر في آيات الآفاق والأنفس (علوم الكون وعلوم النفس)، فبهاتين القراءتين المتلازمتين يتحقق التكامل المعرفي الذي هو أساس التقدم والرقي الحضاري للأمة المسلمة.

ونظرا لذلك فقد أكد كثير من العلماء على ضرورة هذا التكامل في تحصيل العلوم، يقول الغزالي: على المتعلم أن لا يدع فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم فالأهم، فإن العلوم كلها متعاونة ومرتبط بعضها ببعض ويستفيد منه في الحال حتى لا يكون معاديا لذلك العلم بسبب الجهل به[12].

ويقول اليوسي: "وليعلم أن العلوم داخل بعضها في بعض، وليس أحد يكمل في شيء على ما ينبغي وهو جاهل بالبواقي"[13].

وقد أكد ابن عاشور حاجة الأمة إلى العلوم الإنسانية وأن إهمالها يفضي إلى ضعف الفقه الإسلامي بحيث لا يستطيع مواكبة المستجدات، قال: إن من أسباب ضعف الباحث الفقهي عدم عنايته بعلوم الاجتماع مع حاجة الأمة إليه[14]. بل إن السعدي رحمه الله أدرج العلوم الكونية في علوم الدين حيث قال: "وأن العلوم الكونية والفنون العصرية الصحيحة النافعة داخلة ضمن علوم الدين وأعماله ليست منافية لها"[15].

والدعوة إلى هذا التكامل بين العلمين لم تكن نظرية فقط، بل كانت عملية أيضا حيث نجد علماء مسلمين موسوعيين حققوا هذا التكامل المعرفي في أعلى صوره وأرقى مظاهره، سواء داخل العلوم الإسلامية نفسها رغم تشعبها وتنوع فروعها، حيث نجد عددا كبيرا منهم كان متمكنا منها ومستوعبا لها أصولا وفروعا، وهذا يظهر من خلال مؤلفاتهم الجامعة التي تزخر بها المكتبات الإسلامية اليوم، ومن هؤلاء ابن تيمية وابن العربي المعافري وابن دقيق العيد، وغيرهم كثير، في حين نجد عددا منهم جمعوا بين العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الكونية، كالطب والهندسة وعلم النفس وعلم الاجتماع، منهم ابن رشد الحفيد الذي جمع بين الفقه والفلسفة والطب، والرازي الذي جمع بين الشريعة والطب، وابن خلدون الذي جمع بين علوم الشريعة وعلم الاجتماع.

فهذا التكامل المعرفي والمنهجي الذي أسس له القرآن الكريم وحث عليه العلماء أصبح في العصر الراهن واجبا شرعيا وضرورة واقعية لتجاوز الأزمات التي تعاني منها العلوم الشرعية، مما جعلها تنأى كليا أو جزئيا عن هموم المجتمع ومشكلاته التي يزخر بها الواقع، لكن ينبغي التنبيه إلى أمرين مهمين عند مراعاة هذا التكامل المعرفي:

الأول: التكامل بين هاته العلوم المختلفة لا يعني أن نجعلها كلها في مرتبة واحدة من حيث علاقتها بالحقيقة، أو من حيث أهميتها وأولويتها، فالعلوم الشرعية الأصلية علوم حقيقية لا مجال للنسبية فيها فهي ثابتة بالنص القطعي الثبوت أو الدلالة أو هما معا، وكذلك العلوم المتفرعة عنها فهي مبنية على قواعد علمية قطعية أو ظنية مستمدة من النقل والعقل، فتنتج حقائق علمية قطعية أو ظنية، بينما "النتائج التي تقدمها العلوم الإنسانية على مختلف فروعها لا تقتضي التعميم فالكثير منها نسبي محتمل لكونها علوما خاضعة لهيمنة المؤثرات الغربية وفيها قدر كبير من التحيز فكرا وواقعا"[16]، أي في أبعادها الفلسفية أو في نظرياتها أو في تطبيقاتها العملية، مما يقتضي الحذر في دراستها والاستفادة منها.

أما من حيث أهميتها فالعلوم الشرعية متصلة اتصالا وثيقا بالوحي فهي أشرف العلوم وأزكاها، لأنها تعرف الإنسان بخالقه جل وعلا، أما العلوم الإنسانية فهي علوم مساعدة للعلوم الشرعية وخادمة لها فقط، فالأولى مقصودة أصالة والثانية مقصودة تبعا.

الثاني: مناهج العلوم الإنسانية الحديثة ونظرياتها ومسلماتها الأساسية التي تقوم عليها تلك العلوم في صورتها الراهنة، تتضمن كثيرا مما يتعارض أو يتناقض مع التصور الإسلامي الصحيح للإنسان والمجتمع والوجود[17]، لأنها وافدة من الغرب ولا يمكن أن تؤتي أكلها داخل الحقل المعرفي الإسلامي إلا بعد أسلمتها[18] وإخضاعها للتصورات والمبادئ الإسلامية للكون والإنسان والحياة، وبذلك تصبح علوما نافعة تحقق مصلحة إنسانية للأمة، و"هذا يحتاج إلى العالم الباحث الذي يستلهم هداية الله سبحانه في فهم مقاصد النصوص والأحكام، وكيفية تنزيلها على الوقائع والأحداث، ضمن إطار ثقافي حضاري معاصر[19].

وبهاته الأسلمة ستتجاوز الأمة المسلمة إحدى اثنتين قد تأتيان عليها كأمة متميزة، الذوبان في الغير، أو العزلة الكلية عن الاستفادة من تقدمه[20].

المبحث الثاني: أثر التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية والإنسانية في فهم الواقع

من أبرز سمات الواقع المعاصر التركيب والتداخل والسرعة أفرزت لنا إشكالات جديدة ومعقدة يحتاج كل منها إلى حكم شرعي خاص، وهذا يطرح أمام علماء الشريعة ثلاث مشاكل رئيسة:

الأولى: هي كيف يفقه النص، وما هي آليات وضوابط فقه دينامي متجدد ووظيفي للنص؟

الثانية: هي كيف يفقه الواقع بكل سماته وبكل تمظهراته البالغة التعقيد والتركيب والتشابك، دون أن يكون هناك جور على أي سمة من السمات؟

الثالثة: في كيفية تنزيل أحكام النص المطلق المتجاوز المهيمن، بطريقة متوازنة، على هذا الواقع المتقلب العيني المشخص تحقيقا لقصد الشارع من جلب المصالح للناس ودرء المفاسد عنهم؟[21].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما حدود إفادة علماء الشرع من العلوم الإنسانية في حل مشكلي الفهم والتنزيل؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المبحث.

المطلب الأول: أهمية مراعاة الواقع عند تنزيل مراد الخالق

المشكل الأول الذي تحدثت عنه آنفا هو فهم النص الشرعي فهما سليما، وهذا الفهم يحتاج إلى قواعد تفسير النصوص واستنباط الأحكام، وقد تكفل بذلك علماء الأصول من خلال قواعدهم الأصولية والمقاصدية، إذ هي السلم الذي يعرج من خلاله الفقيه لاستنطاق النص الشرعي وفهم المراد منه، إلا أن هاته الأحكام المستخرجة بواسطة هاته القواعد غالبا ما تكون متّسمة بالتجريد والعموم، وفي ذلك يقول ابن تيمية: "فإن الأمر المشروع هو عام لا يخص به شخص دون شخص فإن الشيء إذا كان مباحا لشخص كان مباحا لكل من كان على مثل حاله"[22].

وهذا يحتم على المجتهد بعد استنباطه للحكم أن يجتهد اجتهادا ثانيا في فهم الواقع وملابساته قبل إنزال الحكم الشرعي، لأن جميع القضايا والمستجدات التي تحدث يجب أن تتصور ابتداء تصورا محكما لا غبش فيها، حتى إذا عُرفت حقيقتها، وشخصت صفاتها، وتصورها المجتهد تصورا تاما، بذاتها، وظروف نشأتها، وحيثياتها، كان تنزيل الأحكام الاجتهادية المبنية على ذلك أسلم وأقرب إلى المقصود الشرعي، ومن القواعد المقررة عند العلماء: الحكم عل الشيء فرع عن تصوره، ولا شك أن الخطأ في التصور والفهم يفضي إلى الخطأ في التأصيل والتنزيل، قال الحجوي الثعالبي: "وأكثر أغلاط الفتاوى من التصور"[23]، فكم من مفت حافظ للفقه، واسع الدراية فيه، أوتي من جهة غفلته عن حقيقة الواقعة، أو تصورها على وجه مجاف للواقع، فأحل حراما، وحرم حلالا، وضيقا واسعا، مما يفضي في نهاية المطاف إلى إهدار المصالح بالتفويت، وجلب أضدادها في العاجل أو الآجل[24]. لذا قرر الفقهاء ومنهم ابن القيم "أن المفتي لا يتأتى له الحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم، أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر"[25].

ففهم الواقع يعد شطرا ثانيا لمنظومة الأحكام إضافة إلى فهم النصوص التي لم تأت إلا لتخاطب الواقع وتتنزل فيه على أحسن حال وأفضل منهج وأقوم سبيل.

وفهم الواقع هو المعبر عنه عند الأصوليين بتحقيق المناط، وقد أوله عناية خاصة ومنهم الإمام الشاطبي حيث قسمه إلى نوعين: مناط عام: وهو العلم بالواقعة الجديدة وفحص طبيعتها وملامحها، وعرفه بقوله: "ومعناه أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي لكن يبق النظر في تعيين محله"[26]، أي في تطبيقه على جزئياته وحوادثه الخارجية. ومناط خاص: وهو النظر في كل مكلف بالنسبة إلى ما وقع عليه من الدلائل التكليفية، بحيث يتعرف منه مداخل الشيطان والهوى. وهو النظر فيما يصلح بكل مكلف في نفسه بحسب وقت دون وقت، وحال دون حال، وشخص دون شخص، إذ النفوس ليست في قبول الأعمال الخاصة على وزان واحد.

فصاحب هذا التحقيق الخاص هو الذي رزق نورا يعرف به النفوس ومراميها، وتفاوت إدراكها، وقوة صبرها وتحملها للتكاليف، ومعرفة التفاتها إلى الحظوظ العاجلة أو عدم التفاتها، فهو يحمل على كل نفس من أحكام النصوص ما يليق بها، بناء على أن ذلك هو المقصود الشرعي في تلقي التكاليف[27].

المطلب الثاني: أثر التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية في فهم الواقع

لا يختلف اثنان في أن الواقع اليوم أصبح مؤلفا من مجموعة من الظواهر المعقدة في ساحة الفكر والسياسة والاقتصاد والطب والأخلاق، نحتاج في فهمها إلى توظيف أدوات معرفية ومنهجية ملائمة مع تلك الظواهر، وهذا يستدعي غالبا الاستعانة بمناهج متعددة تساعد على فك شفرات هذا الواقع، لمعرفة أحوال هاته الوقائع ودقائقها وخلفياتها ودوافعها مما يجلي حقيقتها ويحرر طبيعتها ويساعد على إيجاد الحلول المناسبة لها، ومن العلوم التي يمكن الاستعانة بها في هذا الباب: العلوم الإنسانية، "لأن المناهج التي تتبعها الدراسات في هاته العلوم تعنى بدراسة الواقع وكل تمظهراته وتشكلاته في السياقات المختلفة، ولقد تطورت هذه المناهج في الحقل المعرفي الغربي بشكل جعلها تسهم في فهم واقع تلك المجتمعات، والتحكم في الكثير من الظواهر، وحل العديد من المشكلات الاجتماعية؛ لذلك: فالقوة المعرفية لعلوم الإنسان لا تأتي من بناءاتها الإبستيمية بقدر انطلاقها من فهم الواقع والعودة إليه، تحليلا واستيعابا وتجاوزا"[28].

فإذا كان قصد العلوم الشرعية هو ضبط الواقع وتقنينه، فإن هذا الواقع المتغير لا يمكن فهمه حق الفهم إلا بالاستنجاد بهاته العلوم، يقول قطب الريسوني: "وإنما يستوفى النظر في الواقعة المجتهد فيها بالتريث في الاستبطان، والغوص على الجزئيات، والاستفصال، والمشاورة، والرجوع إلى أهل العلم والخبرة، والتزود من العلوم الإنسانية المعينة على الفهم وتحليل الواقع"[29].

فمن الأدوات المعرفية الكاشفة عن خبايا الواقع والتي ينبغي أن يلمّ بها مجتهد العصر: المعرفة الإنسانية بفروعها المختلفة، مثل علم الاجتماع الذي يتكفل بدراسة المجتمع والسلوك الاجتماعي من خلال دراسة المجموعات والمؤسسات والنظم الاجتماعية والسياسات والتنظيمات المتبعة والظواهر الاجتماعية والنسق الاجتماعي، ونتائج هاته الدراسات من شأنها أن تساعد مجموعة من الفقهاء والمربين والمهتمين بحل المشاكل الاجتماعية والقانونية التي يعرفها الواقع، يقول د. عبد الوهاب سليمان: تقدمت الدراسات الاجتماعية في الوقت الحاضر تقدما هائلا في أساليب الدراسة، كالإحصاءات والاستبيانات وقدمت أنماطا من التحليل الكمي والنوعي يساعد على تفهم الواقع أو المشكلة تفهما سليما، وفي ضوء ذلك تعرف الأسباب، وتقدم النتائج والحلول، وبذلك يصبح للفقيه تصور تام عن الواقعة يؤهله لإصدار الأحكام الفقهية عن بينة ودراية[30].

وعلم النفس العام الذي يهتم بدراسة سلوك الإنسان وشخصه وتفكيره دراسة علمية بواسطة أدوات ومفاهيم ومقاييس وطرق معروفة في هذا العلم[31]، وهذا بلا شك يساعد الفقيه في فقه حال الإنسان الذي يعتبر مناطا ومدارا لتنزيل الأحكام.

وعلم الاقتصاد الذي يبحث في كيفية التوفيق بين احتياجات الإنسان اللامحدودة وموارده النادرة، قصد التوزيع الأمثل لها[32]. كما يسهم التحليل العلمي الاقتصادي لعقد من العقود، أو موضوع من موضوعات النتاج، أو الاستهلاك، أو المداولات وشرح جوانبه وأبعاده، في إمداد الفقيه بتصور سليم تام للمشكلة الاقتصادية، يتبين من خلالها الجوانب التي تتلاءم مع مقاصد الشريعة وأهدافها وقواعدها، والأخرى التي تتعارض معها[33].

وعلم التاريخ الذي يبحث في هوية الإنسان وجذوره وصيرورة الأحداث المؤثرة في تكوينه، وأحوال الأمم وأسباب صعودها وهبوطها، كما يساعد على رسم معالم استشراف المستقبل والتخطيط له.

وعلى ذلك فقس سائر المعارف الإنسانية من علوم طبية وتربوية وسياسية وتواصلية التي تعتبر بحق أداة للغوص على فهم الواقع وحل شفراته، وإذا غاب عن المجتهد معرفته لبعض هذه العلوم أو قل اطلاعه عليها، قد تصدر منه فتاوى فقهية، لا تتناسب مع مقتضيات عصره ومتطلبات مجتمعه، خصوصا في الأمور المستجدة الطارئة، قال الإمام القرافي: "وكم يخفى على الفقيه والحاكم الحق في المسائل الكثيرة بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة فينبغي لذوي الهمم العلية أن لا يتركوا الاطلاع على العلوم ما أمكنهم"[34]. وإن تعذر على الفقيه الإلمام بهاته العلوم ساغ له أن يشاور أهل العلم والخبرة، ونظرا لندرة العلماء الموسوعيين في هذا العصر تم الانتقال من الاجتهاد الفردي إلى الاجتهاد الجماعي، حيث ضم إلى المجامع الفقهية، ومجالس الإفتاء، والهيئات الشرعية، خبراء اقتصاد وقانون وطب وبيئة للاستعانة بهم في تصور المسائل تصورا محكما، قصد التأصيل الشرعي السليم للقضايا والمستجدات الراهنة.

وقد أدى الفصل بين هذين العلمين والتمييز بينهما باسم ما يعرف بالتخصصات إلى ظهور صنفين من الفقهاء:

الأول: فقهاء نص لا دراية لهم بالتحولات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي يعج بها العصر، ولا علم لهم بسبل تفعيل الشرع، وتحقيق قيوميته على الواقع.

الثاني: فقهاء واقع يعوزهم الفهم لمعاني النصوص ومقاصدها، والدراية بتنزيل المراد الإلهي فيها على الوقائع الحية، مع حظهم الوافر من المعرفة الواقعية الإنسانية.

وهذا التمييز بين هذين العلمين بدعة لا يعرف لها نظير في التاريخ العلمي لدى المسلمين، إذ كان فقهاء النص وفقهاء الواقع كيانا واحدا وذاتا ملتحمة[35].

وهذا الانفصام النكد بين هذين العلمين – بالإضافة إلى عوامل أخرى– أدى إلى انحسار وظائف العلوم الشرعية وعدم ملاحقتها لمستجدات العصر حيث أصبح الواقع في واد والعلوم الشرعية في واد آخر، فلا بد إذن من الخروج من ضيق التخصصات العلمية إلى رحاب التكامل المعرفي حتى نفهم الواقع وملابساته ونحسن تنزيل مراد الله في هذا الواقع، وبذلك نجعل العلوم الشرعية قادرة وحاضرة في موكب التدافع الكوني الراهن تسهم فيه ولو بمقدار في ظل الظروف وتحولات قاهرة لا ترحم المتخلف عنها.

وإذا كانت العلوم الإنسانية تساعد العلوم الشرعية على فهم الواقع، فإن هاته الأخيرة تساعد الأولى في تطوير مناهجها حتى تحقق هذا الهدف المنشود، حيث تزودها بفرضيات بحثية تساعد الباحثين في دراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية، ومن العلوم الشرعية التي قامت بتطوير مجموعة من الآليات: منهج علم أصول الفقه، ومن الأدوات القادرة على تحقيق هذا الأمر: الاستحسان الأصولي، والاستصلاح والاستصحاب والعرف والاستقراء، ومناهج المفاهيم (مفهوم الموافقة والمخالفة)، ومبحث دلالات الألفاظ، ومنهج التعارض بين الأدلة، فهاته المناهج يمكن استخدامها في الدراسات الإنسانية والاجتماعية المعاصرة من أجل التوصل إلى حسن تفسير الظواهر الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والقانونية التي تطرأ على حياة الفرد والجماعة[36].

فالعلوم الشرعية والإنسانية تتكامل معرفيا ومنهجيا لرصد الواقع ومجرياته، وإذا تمكن الفقيه من استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها، وتمكن من فهم تام للواقع بواسطة هاته العلوم وغيرها، فإنه سيكون مؤهلا لمعرفة فقه الواقع الذي يراد به: "معرفة حكم الله سبحانه في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتطبيق ذلك عل الوقائع الحاضرة والمسائل المعاصرة"(37).

وبتحقيق هذا النوع من الفقه نصل إلى أمرين:

الأول: إيجاد فقيه موسوعي قادر على التركيب والتأليف بين المعلومات المطلوبة في الوقت المطلوب، وتحليلها وتعليلها ونقدها، والإفادة منها في إدراك أحكام التشريع ومقاصده وتنزيلها في بيئتها كما أرادها الخالق جل وعلا.

الثاني: نضمن الاستمرارية والاستيعاب والصلاحية لهاته الشريعة المباركة كي تتفاعل مع كل المستجدات والنوازل عبر الأمصار والإعصار.

المطلب الثالث: التأصيل الشرعي لاعتبار العلوم الإنسانية عند تنزيل الأحكام على الوقائع

استنطاق النص الشرعي واستخراج أحكامه وحِكَمه، وفهم الواقع والكشف عن مكنوناته، شرطان أساسيان لتنزيل الأحكام الشرعية على محالّها، والخلل في هذين الشرطين أو في أحدهما يخل بعملية التنزيل التي هو المقصود الأساس من إرسال الرسل وإنزال الكتب، لأن الغرض من التشريع هو إصلاح الواقع الاجتماعي، ولا سبيل إلى ذلك إلا باستبطان العلوم الإنسانية التي تعتبر أداة للكشف عن هذا الواقع، والمتأمل في نصوص الوحي قرآنا وسنة يجد صورا واقعية ونماذج حية تؤسس لهذا الغرض، وفيما يلي شواهد على ذلك:

من القرآن الكريم: نجد اعتبار الواقع الاجتماعي والنفسي في تحريم الخمر: فالخمر كان شربها معتادا عند العرب وكانت جزءا من ثقافتهم يفتخرون بها في مجالسهم ومناسباتهم، وكان تشكل لهم رواجا في أسواقهم، فاقتضى الشارع الحكيم أن يتدرج في تشريع حكمها وذلك مراعاة للحالة النفسية والاجتماعية التي كان عليها المخاطبون، إذ ليس من الحكمة أن يفاجئهم بقوله تعالى: (فاجتنبوه)، ويصدر عقوبة الجلد مثلا، إذ حمل النفوس على ترك المألوف يقتضي تبصرا بأحوالها في الأفراد والمجتمعات.

من السنة النبوية: نجد عدة إجراءات من ذلك:

امتناعه صلى الله عليه وسلم من هدم الكعبة وبنائها مراعاة للجانب النفسي والاجتماعي للمخاطبين: عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بشرك، لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين: بابا شرقيا، وبابا غربيا، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة"(38).

ففوت صلى الله عليه وسلم مصلحة إعادة إقامة الكعبة على قواعد إبراهيم حتى لا يجلب مفسدة هي أرجح من هاته المصلحة، أي افتتان الناس، لأن الكعبة كانت مقدسة عندهم، والناس لا يزالون مرتبطين بعالم الأشياء.

اعتبار الحالة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية في النهي عن ادخار لحوم الأضاحي: إذ كان الأصل في الأحوال العادية جواز الأكل والادخار، فلما طرأت أحوال خاصة آنذاك على المجتمع المدني اقتضى الأمر أن يتغير الحكم الشرعي ليناسب الوضع الاجتماعي والإنساني المتمثل في قدوم المساكين على المدينة أيام الأضحى فكان الحكم

بمنع الادخار ليتحقق مقصود التكافل والتضامن الاجتماعي، ولما زالت هاته العلة رجع الحكم إلى حاله من جواز الادخار.

فهذا الحكم جاء مراعيا للواقع الاجتماعي في بعده النفسي من جهة ما قد يعتري النفوس من أثرة وشح بما تشتهيه نفوسهم، وراعى في البعد الاقتصادي حاجة الناس إلى الانتفاع بما يدخر من الودك والجلود للأسقية وغيرها مما هو مستثنى من حكم عدم الادخار، فهذا التنزيل للحكم على مناطه المناسب إنما جاء نتيجة لرصد ظواهر الواقع الإنساني والاجتماعي، وهو ما يؤسس لضرورة اعتبار الأدوات المعرفية المعينة على القراءة الصحيحة للفعل الإنساني الصادر عن الإنسان بما هو فعل اجتماعي يعبر عن سلوك اجتماعي ما يحتاج إلى توجيه وتقويم شرعي[39].

وبناء على هاته التشريعات وغيرها كثير أسس الأصوليون رحمهم الله مجموعة من القواعد التي تسهم في فهم الواقع وتحقيق مناطاته سواء في إطاره العام أو الخاص وتؤهل المجتهد لتنزيل الأحكام الشرعية على الوقائع، من ذلك: قواعد العرف والعادة وتغير الأحكام بتغير الزمان والمكان والحال، وفقه المآلات، وقاعدة الاستقراء، يقول القرافي وهو يتحدث عن الفرق الثامن والعشرين بين قاعدة العرف القولي الذي يقضى به على الألفاظ ويخصصها وقاعدة العرف الفعلي لا يقضى به على الألفاظ ولا يخصصها: "وعلى هذا القانون تراعى الفتاوى على طول الأيام فمهما تجدد في العرف اعتبره ومهما سقط أسقطه ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تجره على عرف بلدك واسأله عن عرف بلده واجره عليه وأفته به دون عرف بلدك والمقرر في كتبك فهذا هو الحق الواضح والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين"[40].

فلا بد للفقيه من أن يكون مخالطا لواقع الناس مخالطة عميقة لمعرفة عوائدهم وأحوالهم ونفوسهم ومنغمرا في همومهم ومشاكلهم لمعرفتها أولا، ثم الاجتهاد لإيجاد حلول وظيفية وعملية لها انطلاقا من النسقين المعرفي والقيمي الإسلاميين.

الخاتمة:

توصلت من خلال هذا البحث إلى مجموعة من الخلاصات والنتائج أهمها:

– أن العلوم كلها متحدة مصدراً وغاية، فمصدر العلوم واحد وهو الله تعالى، سواء كانت وحيا من الله، أم يسّر للإنسان اكتشافها وتطويرها عن طريق الفكر والنظر، وغايتها واحدة وهي خدمة الإنسان وتوفير سبل الراحة له قصد تحقيق الخلافة المنوطة به على أتم وأكمل وجه والمتمثلة في تعمير هذا الكون ماديا بالبناء والعمران، ومعنويا بالإيمان والعمل الصالح.

– الانفتاح على العلوم الإنسانية والإفادة منها أصبح في هذا العصر المتقلب باستمرار في أحداثه ونوازله واجبا شرعيا وضرورة واقعية لبعث إحياء العلوم الدينية وتجديدها حتى تتفاعل مع مستجدات هذا العصر، إلا

أن هذا الانفتاح لا يؤتي أكله إلا بمقدمة أساسية وهي أسلمة هاته العلوم وإخضاعها للتصورات والمبادئ الإسلامية للكون والإنسان والحياة.

– أ تنزيل مراد الله في الواقع رهين باستنطاق النص الشرعي استنطاقا سليما واستخراج ما فيه من أحكام وحِكَم، وفهم الواقع وحل شفراته، والخلل في هذين الأسين أو أحدهما يفضي إلى الخطإ في التأصيل والتنزيل.

– إن العلوم الشرعية والإنسانية تتكامل معرفيا ومنهجيا في رصد الواقع، فالثانية تساعد الأولى باعتبارها أداة كاشفة عن خبايا الواقع، والأولى تساعد الأخيرة في تطوير مناهجها حتى تحقق هذا الهدف المنشود، وهذا التكامل عندما يلم به الفقيه في اجتهاده الفردي أو الجماعي يساعده على تصوير الواقع تصويرا محكما ويؤهله لتنزيل مراد الله على أتم وأحسن وجه.

– أن رصد الواقع وفهم معالمه وطبيعته وسماته بواسطة العلوم الإنسانية له ما يشهد له في القرآن الكريم والسنة النبوية، وبناء على ذلك قعّد علماء الشريعة مجموعة من القواعد لتحقيق هذا الغرض، منها قواعد العرف والعادة، وقاعدة تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان والحال، وفقه المآلات، والاستقراء وغيرها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

قائمة المصادر والمراجع:

1) القرآن الكريم برواية ورش.
2) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، تحقيق: أحمد شاكر، دار الآفاق الجديدة.
3) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
4) أدوات النظر الاجتهادي المنشود في ضوء الواقع المعاصر، مصطفى سانو، ط1، 1421هـ– 2000م، دار الفكر المعاصر، بيروت.
5) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، ط1، 1411هـ– 1991م، دار الكتب العلمية – بيروت.
6) أليس الصبح بقريب لمحمد الطاهر ابن عاشور، ط1، 1427هـ– 2006م، دار السلام، مصر.
7) أنوار البروق في أنواء الفروق لشهاب الدين القرافي، عالم الكتاب، بيروت.
8) التكامل بين الفكر المقاصدي ومناهج البحث في العلوم الإنسانية لقطب مصطفى سانو، مجلة "تفكر"، معهد إسلامية المعرفة، السودان، 2021م.
9) حلية اللب المصون لأحمد الدمنهوري على شرح الجوهر المكنون، دار الفكر.
10) الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي، ضمن مجموع أعمال العلامة السعدي، التفسير وعلوم القرآن، ط1، 1432هـ– 2011م، وزارة الأوقاف– قطر.
11) دور التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الإنسان في فهم الواقع، د. عبد الحليم مهور باشة، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، عدد 1، خريف 2016.
12) دور العلوم الإنسانية في ترشيد الاجتهاد التنزيلي، د. نبيل موفق، مجلة الشهاب، مجلد 8، عدد 1، 2022م.

13) الشامل– قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، د. مصلح الصالح، ط1، 1420هـ– 1999م، دار عالم الكتب، الرياض– السعودية.
14) صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
15) صناعة الفتوى في القضايا المعاصرة معالم وضوابط وتصحيحات د. قطب الريسوني، ط1، 1435هـ– 2014م، دار ابن حزم، بيروت– لبنان.
16) علم النفس العام لعبد الرحمن العيسوي، ط 2000م، دار المعرفة الجامعية.
17) الفتاوى الكبرى لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ط1، 1408هـ– 1987م، دار الكتب العلمية.
18) فتح الباري لأحمد ابن حجر العسقلاني، ط 1379، دار المعرفة، بيروت.
19) فقه الاقتصاد الإسلامي لكمال يوسف، ط 1988م، دار القلم، الكويت.
20) فقه الواقع بين النظرية والتطبيق لعلي بن حسن الحلبي، ط3، 1420هـ، شركة النور للطباعة والنشر، فلسطين.
21) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، ط1، 1416هـ– 1995م، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.
22) القانون في أحكام العلم وأحكام العالم والمتعلم لأبي الحسن اليوسي، ت: حميد حماني، ط1، مطبعة شالة –الرباط.
23) لسان العرب لابن منظور، ط3، 1419هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
24) مدخل إلى إسلامية المعرفة، د. عماد الدين خليل، ط1، 1427هـ– 2006م، دار ابن كثير، دمشق– بيروت.
25) معالم التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، إبراهيم رجب، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 3، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت.
26) معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، ط1، 1429هـ–2008م، عالم الكتب، القاهرة.
27) منح الجليل لمحمد عليش، ط 1409هـ– 1989م، دار الفكر، بيروت.
28) منهج البحث في الفقه الإسلامي لعبد الوهاب أبي سليمان، ط1، 1416هـ– 1996م، المكتبة المكية، دار ابن حزم.
29) منهجية التكامل المعرفي مقدمات في المنهجية الإسلامية، فتحي حسن ملكاوي، ط1، 1432هـ– 2011م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية.
30) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، ط7، 1426هـ –2005م، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.
31) الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي، د. أحمد العبادي، ط1، 1434هـ– 2013م، دار النيل، مصر.

الهوامش

i- سورة العلق، الآيات: 1– 5.

2– ينظر: لسان العرب لابن منظور، مادة: "علم"، ط3، 1419هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

3– ينظر: حلية اللب المصون لأحمد الدمنهوري على شرح الجوهر المكنون، ص: 31، دار الفكر.

4- ينظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، تحقيق: أحمد شاكر 1/ 46، دار الآفاق الجديدة.
5- فتح الباري لابن حجر العسقلاني 1/ 141، ط 1379، دار المعرفة، بيروت.
6- منح الجليل لمحمد عليش 3/ 137، ط 1409هـ- 1989م، دار الفكر، بيروت.
7- ينظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي 1/ 16- 17، دار المعرفة، بيروت.
8- ينظر: الموافقات للشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز 2/ 49- 50، ط7، 1426هـ -2005م، دار الكتب العلمية، بيروت.
9- ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، ص: 130، ط1، 1429هـ-2008م، عالم الكتب، القاهرة.
10- ينظر: الشامل- قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، د. مصلح الصالح، ص: 261، ط1، 1420هـ- 1999م، دار عالم الكتب، الرياض- السعودية.
11- ينظر: أدوات النظر الاجتهادي المنشود في ضوء الواقع المعاصر، مصطفى سانو، ص: 130، ط1، 1421هـ-2000م، دار الفكر المعاصر، بيروت.

12- ينظر: إحياء علوم الدين 1/ 51.
13- القانون في أحكام العلم وأحكام العالم والمتعلم لليوسي، ت: حميد حماني، ص: 385، ط1، مطبعة شالة –الرباط.
14- ينظر: أليس الصبح بقريب لابن عاشور، ص: 174، ط1، 1427هـ- 2006م، دار السلام، مصر.
15- الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي، ضمن مجموع أعمال العلامة السعدي، التفسير وعلوم القرآن 3/ 470، ط1، 1432هـ- 2011م، وزارة الأوقاف- قطر.
16- دور العلوم الإنسانية في ترشيد الاجتهاد التنزيلي، د. نبيل موفق، مجلة الشهاب، ص: 382، مجلد 8، عدد 1، 2022م.
17- ينظر: معالم التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، إبراهيم رجب، مجلة إسلامية المعرفة، ص: 58، العدد 3، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت.
18- عرف د. إسماعيل راجي الفاروقي أسلمة المعرفة بأنها: إعادة صياغة المعرفة على أساس من علاقة الإسلام بها. أي إعادة تحديد وترتيب المعلومات، وإعادة النظر في استنتاجات هاته المعلومات وترابطها، وإعادة تصور الأهداف، وأن يتم ذلك بطريقة تمكن من إغناء وخدمة قضية الإسلام. (ينظر: إسلامية المعرفة، ص: 32، ط1983، دار البحوث العلمية، الكويت).
19- منهجية التكامل المعرفي مقدمات في المنهجية الإسلامية، فتحي حسن ملكاوي، ص: 27- 28، ط1، 1432هـ-2011م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية.
20- ينظر: مدخل إلى إسلامية المعرفة، د. عماد الدين خليل، ص: 15، ط1، 1427هـ- 2006م، دار ابن كثير، دمشق- بيروت.
21- ينظر: الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي، د. أحمد العبادي، ص: 172، ط1، 1434هـ-2013م، دار النيل، مصر.
22- الفتاوى الكبرى لابن تيمية 6/ 133، ط1، 1408هـ- 1987م، دار الكتب العلمية.
23- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي 2/ 571، ط1، 1416هـ- 1995م، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
24- ينظر: صناعة الفتوى في القضايا المعاصرة معالم وضوابط وتصحيحات د. قطب الريسوني، ص: 298- 299، ط1، 1435هـ- 2014م، دار ابن حزم، بيروت- لبنان.

25- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم 69/1، ط1، 1411هـ- 1991م، دار الكتب العلمية – بيروت.

26- الموافقات 4/ 65.

27- ينظر: المصدر نفسه 4/ 70- 71.

28- دور التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الإنسان في فهم الواقع، د. عبد الحليم مهور باشة، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، ص: 204، عدد 1، خريف 2016.

29- صناعة الفتوى في القضايا المعاصرة، ص: 299.

30- ينظر: منهج البحث في الفقه الإسلامي، ص: 98، ط1، 1416هـ- 1996م، المكتبة المكية، دار ابن حزم.

31- ينظر: علم النفس العام لعبد الرحمن العيسوي، ص: 10، ط 2000م، دار المعرفة الجامعية.

32- ينظر: فقه الاقتصاد الإسلامي لكمال يوسف، ص: 8، ط 1988م، دار القلم، الكويت.

33- ينظر: منهج البحث في الفقه الإسلامي، ص: 98.

34- أنوار البروق في أنواء الفروق للقرافي 11/4، عالم الكتاب، بيروت.

35- ينظر: صناعة الفتوى في القضايا المعاصرة، ص: 352.

36- ينظر: التكامل بين الفكر المقاصدي ومناهج البحث في العلوم الإنسانية لمصطفى سانو، مجلة "تفكر"، ص: 20، معهد إسلامية المعرفة، 2021م، السودان.

37- فقه الواقع بين النظرية والتطبيق لعلي بن حسن الحلبي، ص: 24، ط3، 1420هـ، شركة النور للطباعة، فلسطين.

38- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم 1333، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

39- ينظر: دور العلوم الإنسانية في الاجتهاد التنزيلي، ص: 378- 379.

40- أنوار البروق 1/ 177.

مقاصد العقوبات الشرعية في الشريعة الإسـلامية

إعداد

الأستاذ / علي الرماح بشير اكرير

طالب بمرحلة الدكتوراه بالمعهد العالي لأصول الدِّين – جامعة الزيتونة – تونس

العدد الثالث عشر – يوليو – 2023 م

الملخص .

في ظل ظهور الدعوات المنحرفة، والمناهج المضادة للشريعة، وأحكامها، وكذلك الأصوات المنادية بالانسلاخ، والتجرد من القيم، والفضيلة، ومحاسن الأخلاق، وظهور الجرائم التي يمتهن أصحابها القتل، والسرقة، والسطو، والحرابة، وغير ذلك من المنكرات، والمخالفات التي أصبحت من المشاهد اليومية في حياتنا، دون معالجة حقيقة لذلك الواقع، وذلك بسبب الضعف السائد، والظروف التي تمر بها الدول الإسلامية.

وهذا البحث محاولة لبيان مقاصد العقوبات الشرعية في الشريعة الإسلامية، وبيان المنافع، والآثار الحسنة المترتبة على ذلك . مع الاستدلال بنصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية، وما قاله بعض الفقهاء، والأصوليين في ذلك .

الكلمات المفتاحية : مقاصد العقوبات . الشريعة الإسلامية، الحدود .

Abstract

The emergence of deviant calls, and anti-Sharia approaches and its rulings has caused the spread of dissociation, stripping away from values, virtue, and the virtues of morals. Furthermore, many crimes like murder, theft, robbery, and violations have become daily scenes in our lives. Unfortunately, there has not been truly addressing to this reality, due to the prevailing weakness, and the conditions that Islamic countries are going through.

This research is an attempt to clarify the purposes of legal punishments in Islamic law, and to explain the benefits and positive effects of such punishments. All of this will be explained in light of the Holy Qur'an, and the Sunnah of the Prophet, as well as what some jurists and fundamentalists said in this regard.

Keywords: the purposes of punishments, Islamic Law, Limits

المقدمة :

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدّين كلِّه، ولو كره الكافرون، وأشهدُ أن محمداً عبد الله، ورسوله إمام المتقين، عليه أفضل الصلاة، وأتم التسليم، وآله، وصحبه أجمعين، ومن اتبع هداه إلى يوم الحشر، والدِّين .

أما بعد : فإن العقوبات الشرعية في الشريعة الإسلامية لها مقاصد عظيمة، ومنافع جليلة، يتجلى، ويتحقق أثرها في المجتمع المسلم الذي آمن بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد –صلى الله عليه وسلم– نبيّاً، ورسولاً،فلا يتحقق استقرار المجتمعات، ولا يزدهر، ولا ينهض إلا بوجود ولاية قوية، ولا تقوى هذه الولاية إلا بوجود عقوبات شرعية رادعة للمعتدين، والمفسدين، والظالمين، والجناة متى ما تعدَّ ضررهم على الغير ليعمَّ الأمن، والاستقرار، وتقوى الأواصل، والروابط الإسلامية، وتحصل الطمأنينة، والألفة، واجتماع الكلمة، وهذا من الأسس، والدعائم التي يتحقق من خلالها الأمن في الأبدان، والسلامة في الأوطان.

فالبشرية كانت في جاهلية جهلاء، وظلمة ظلماء، يعبدون غير الله، و يسفكُ بعضهم دماء بعض، ويقتلُ بعضهم بعضاً، ويأكلون أموالهم بينهم بالباطل،ويتحاكمون إلى العادات الجاهلية، والأعراف الدنيئة، فأدَّى ذلك إلى سوء المعيشة، واضطراب الأحوال، وعدم الأمن، وانتشار الفوضى، وانقطاع السُّبُل، وغير ذلك من الفساد العريض في الأرض، إلا من رحم الله، فجاء النبيُّ – صلى الله عليه وسلم– من عند الله –تعالى– بهذه الرسالة الربانية الشاملة الكافية الشافية الوافية الكاملة من كل الوجوه لتضع الأسس، والأصول، والأحكام لكل المستجدات، والنوازل، والقضايا، والمعضلات، والإشكالات على كافة الأصعدة دون استثناء، ولتبيّن السُّبُل الشرعية للبشرية قاطبة رحمة بهم مع بيان الطريق المستقيم الموصل إلى رب العالمين، فكان لزاماً أن تشرع الأحكام لتنظم الحياة في كل الجوانب فشرع اللهُ –عز وجل–الحدود لجلب المصالح، ودرء المفاسد، وتحقيق أعلى درجات الأمن في المجتمع المسلم،ولذلك لحفظ كيان الأمة، وأمنها، وقوتها حتى تتحقق العبودية لله وحده،وهذه هي مقاصد العقوبات الشرعية في الإسلام. فالدراسة تهدف إلى بيان مقاصد العقوبات الشرعية في الشريعة الإسلامية، وبيان معرفتها، وضرورياتها في الفقه الإسلامي، وما لها من مصالح عظيمة في حياة المسلمين قاطبة، فالموضوع من الأمور الواجبة التي نحتاجها في حياتنا، فالباعث، والسبب لهذا الموضوع هو الضرورة إلى ذلك، لأنه واجب شرعي يجب علينا معرفة أحكامه، ومقاصده، والحاجة إلى تطبيقه عملياً لا سيما في بلادنا الإسلامية. وكون هذا الأمر يؤدي إلى حفظ الأمة في دينها، وأمنها، واستقرارها، ومعاشها، وكافة أحوالها، وشؤونها، فهذه الدراسة وفق المنهج الوصفي التحليلي .

المبحث الأول : تعريف المقاصد، وبيان أقسامها، وأدلتها :

تعريف المقاصد لغة، واصطلاحاً :

في اللغة : المقاصد جمع مَقْصد، والمقصد مصدر من الفعل (قَصَدَ) يقصد قصداً، فهو قاصدٌ .[1]ومنها استقامة الطريق كما في قول الله –تعالى– : (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) .[2]

وفي الاصطلاح : هي المعاني، والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع، أو معظمها، بحيث لا تختصّ ملاحظتُها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة. فيدخل في هذا أوصاف الشريعة، وغايتها العامة.[3]
قال في قواعد الأحكام : "ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح، ودرء المفاسد، حصل له من مجموع ذلك اعتقاد، أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها إجماع، ولا نص، ولا قياس خاص، فإن فهم نفس الشرع يوجب ذلك.[4]

أقسـام المقاصد الشرعية :

تنقسم المقاصد الشرعية إلى ثلاثة أقسام :

باعتبار قوتها في ذاتها تنقسم إلى ما هي في رتبة الضرورات، وإلى ما هي في رتبة الحاجات، وإلى ما يتعلق بالتحسينات، والتزيينات .[5]

فيعلم من خلال هذا التقسيم المذكور أن مقاصد الشريعة الإسلامية ثلاثة : مقاصد ضرورية، وهي موضوع، ومدار هذه الكتابة، ومقاصد حاجية أيضاً، ومقاصد تحسينية . وسنتحدث عن هذه المقاصد، ومفهومها –إن شاء الله–.

فأمَّا المقاصد الضرورية : فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين، والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج، وفوت حياة .[6] ومن شواهد ذلك : الأمر بأركان الإيمان الستة، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له بما شرع من العبادات، والفرائض، وإقامة الشعائر التعبدية، وكذلك الأمر بإحياء النفس المؤمنة، والمعصومة، والحث على التناسل للمساهمة في تعمير الكون، وكذلك تحريم كل المسكرات، أو أي سبب يفضي إلى زوال العقل، وذهابه ، والأمر بوجوب التعلم، والحث على التأمل، والتفكر

وأمَّا المقاصد الحاجية: هو ما يتعلق بالحاجة العامة، ولا ينتهي إلى حد الضرورة.[7] فالحاجيات فمعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة، ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج، والمشقة، واللاحقة بفوت المطلوب؛ فإذا لم تراع دخل على المكلفين على الجملة الحرج، والمشقة؛ ولكنه لا يبلغ مبلغ الفاسد العادي المتوقع في الصالح العامة، وهي جارية في العبادات والعادات، والمعاملات، والجنايات .[8]

وأمَّا المقاصد التحسينية :فهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتَجنب الأحوال المدنِّسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويَجْمع ذلك قسم مكارم الأخلاق، مثل: أخذ الزينة ، والتقرب إلى الله بنوافل الخيرات، ومثل آداب الأكل والشرب في العادات، ومنع بيع النجاسات في المعاملات.[9]

أقسام المقاصد الضرورية، وأدلتها :

تنقسم المقاصد الضرورية في الشريعة الإسلامية إلى خمسة أقسام : حفظ الدين، وحفظ النفس, وحفظ النسل، وحفظ المال، وحفظ العقل .[10]

أدلتهـا :

من الأدلة التي دلت على ذلك قول الله –جل شأنه– : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ).[11] فهذه الآية الكريمة صريحة، وجامعة لمقاصد الشريعة الضرورية، وتعتبر دليل من القرآن العظيم في باب المقاصد الضرورية في الشريعة، فقوله –تعالى– : (أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا) وهو إقامة التوحيد، ونبذ الشرك،وهو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا مقصد حفظ الدِّين. وقوله : (وَلَا يَسْرِقْنَ) وهذا مقصد حفظ المال . وقوله : (وَلَا يَزْنِينَ) وهذا مقصد حفظ النسل . وقوله : (وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ) وهذا مقصد حفظ النفس، ويدخل فيه العقل .

المبحث الثاني : مقصد حفظ الدِّين :

تعريف مقصد حفظ الدَّين : هو : ما يقيم به الدِّين، لتثبيت قواعده.[12]

هذا التعريف يُعدُّ تعريفاً جامعاً مانعاً لمقصد حفظ الدِّين، فقد اشتمل على إقامة الدِّين، وتثبيته، أي إقامته من جانب الوجود، وتثبيته من جانب العدم .فالدَّين الإسلامي دين منزل من رب العالمين فهو الأصل، والعماد،وهو متضمن لأحكام الشريعة، والأوامر إلهية،ولأوامر، والتوجيهات النبوية، وفيه ما يحتاجه المؤمنون في كافة شؤونهم الدينية، والدنيوية، وما يترتب على ذلك من مصالح عامة في حياتهم، وبعد مماتهم، فالله –جل جلاله– حفظ هذا الدِّين، ونَزَّههُ، وصانه من التبديل، والتحريف، قال –تعالى– : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).[13]فهو محفوظ بحفظ الله من أي قادح، أو ناقض، أو عارض، أو غير ذلك، وإن مما جاءت به الشريعة هو لحفظ الضرورات، وتحقيق المصالح الدَّينية، والدُّنيوية .

أدلة مقصد حفظ الدَّين :

لقد دلت أدلة القرآن الكريم على هذا المقصد العظيم، وبيان ضروريته، وأنه أول الضروريات . قال الله –تعالى– : {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}.[14]وقال –سبحانه وتعالى– : {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} .[15] فهاتين الآيتين دليلين قاطعين في بيان مقصد حفظ الدّين، والقيام به .

مقصد حفظ الدِّين من جانب الوجود، والعدم :

1) من جانب الوجود :

مقصد حفظ الدِّين من حيث الوجود هو الإيمان بالله –سبحانه وتعالى– إيماناً جازماً لا شك فيه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر، والنطق بالشهادتين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الشعائر الإسلامية. يقول

الإمام الشاطبي المالكي[16] –رحمه الله– في هذا السياق : "أصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جانب الوجود، كالإيمان، والنطق بالشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وما أشبه ذلك" .[17]

وسائل حفظ الدين من جانب الوجود :

أ) تربية الناشئة على تعاليم الشريعة الإسلامية :

فتربية الناشئة على أوامر الشريعة الإسلامية له الأثر العظيم في حفظ الدّين من جانب الوجود، ويتعين هذا الأصل على الجميع، وهو دور الآباء، والأمهات اتجاه أبنائهم، وبناتهم، وكذلك دور المدرسين، والمدرسات، والواعظ، والخطباء، وأئمة المساجد، ومحفظي القرآن الكريم، فيجب تربية الشباب، والشابات تربية إسلامية وسطية لا إفراط فيها، ولا تفريط، وربط المسلمين بالعقيدة الإسلامية المستمدة من كتاب الله، ومن سنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– حتى يقوم الجميع بمسؤوليته الشرعية اتجاه هذا الدِّين، وحفظه من جانب الوجود. يقول النبي –صلى الله عليه وسلم– :((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهْوَ مَسْؤُولٌ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَهْوَ مَسْؤُولٌ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهْيَ مَسْؤُولَةٌ....)) .[18] الحديث . فالكل هنا من الألفاظ العموم تشمل الذكر، والأنثى، والعالم، والداعي إلى الله، وغير ذلك، فالمسؤولية هنا تقع على عاتق الجميع .

ب) العلماء والدعاة إلى الله :

وهو القيام بما أوجب الله عليهم من بيان هذا الدِّين، وأحكامه، وبيان أركانه، وأصوله، وفروعه، ومقاصده، ومحاسنه، وتعليمه للمسلمين تعليماً صحيحاً، وبيانه لغير المسلمين بياناً شافياً وافياً، والصبر على ذلك. قال الله – عز وجل– : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .[19] وقال –تعالى– : (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .[20] فحاجة الأمة للعلم الشرعي عظيمة، فمسؤولية العلماء، وطلاب العلم، والدعاة إلى الله عظيمة في حفظ الدين من جانب الوجود .

2) من جانب العــدم :

مقصد حفظ الدِّين من جانب العدم هو تثبيت أركان الإسلام، وصيانته، وسدِّ الأبواب التي تفضي إلى ذهابه بالكلية، أو تضعفه عند المسلمين، فلهذا جاءت الشريعة الإسلامية بحدِّ الرِّدة حتى تحفظ الملة، وتصان الشريعة من الشبهات، والانحرافات، والعقائد الزائغة، وغير ذلك، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في الحديث : ((مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ)) .[21]قال جماعة من أهل العلم :"أن حكم من ارتد عن الإسلام حكم الحربي الذي بلغته الدعوة .....، وإنما تشرع الاستتابة لمن خرج عن الإسلام" .[22]وقد قرر المالكية هذا الأصل العظيم حيث قرروا ذلك في كتبهم الفقهية. قال الإمام ابن عبد البر[23] –رحمه الله– : "ومن ارتَّد عن الإسلام استتيب ثلاثاً بعد أخذه فإن تاب، وإلا قتل وقتله أن تضرب عنقه" .[24] والأمثلة، والشواهد في مؤلفات، ومصنفات المالكية كثير . وتطبيق حدّ الردة من اختصاص ولي الأمر المسلم المتمثل في السلطات القضائية بالدولة بعد توفر الشروط، وانتفاء الموانع، وهو على هذا القيَّد، وليس الأمر على إطلاقه .

فالشريعة ليست بنكاية، وأن جميع تصرّفاتها تحوم حول إصلاح حال الأمة في سائر أحوالها، وأن الزواجر، والعقوبات، والحدود ما هي إلا إصلاحٌ لحال الناس . ويجب أن نبسط القول هنا في مقصد الشريعة من العقوبات، من قصاص، وحدود، وتعزير . وذلك أن من أكبر مقاصد الشريعة هو حفظ نظام الأمة، وليس يُحفظ نظامُها إلا بسدّ ثلمات الهرج والفتن والاعتداء.[25]

وسائل حفظ الدين من جانب العدم :

أ) تحكيم الشريعة الإسلامية :

من أعظم، وأقوى الوسائل لحفظ الدين من جانب العدم تحكيم الشريعة الإسلامية في كل الأمور، فهو أمر واجب أوجبه اللهُ –سبحانه تعالى– على عموم المسلمين، رجالاً، ونساءً، عرباً، وعجماً، حكاماً، ومحكومين، وغير ذلك، قال –تعالى– : {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} .[26]وقال –تعالى– : {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} .[27]وقال –جل شأنه– : {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} .[28] فهذه الآيات تدل دلالة قطعية، وصريحة على وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية في جميع الأمور، دقها، وجلها، كبيرها، وصغيرها، وأنه لا حكم إلا حكم الله–سبحانه وتعالى–، فالمؤمن يسلم لجميع أحكام الله امتثالاً لأوامر –جل شأنه– .

ب) العلماء، والقضاة :

دور العلماء، والقضاة عظيم في التصدي للحركات الفكرية الهدامة، والدعوات المنحرفة التي تدعو للانحراف العقدي، وتعمل على زعزعة الثقة في نفوس المسلمين، أو تشكيكهم في عقيدتهم، ويكون ذلك الدور وفق منهجية علمية رصينة تحت مضلة الدولة المتمثلة في أجهزة القضاء، والإفتاء، ومؤسسات البحوث العلمية المتخصصة في المجال الشرعي، أو من له الأهلية العلمية من أهل العلم في بيان الأحكام الشرعية بالحجة، والبرهان. فالمسؤولية كبيرة، وكبيرة جداًلا سيما في هذه الأوقات التي كثرت فيها الفتن، والمحن، والشبهات، والملذات، والشهوات مع انتشار الجهل، والضعف العلمي، والانحلال الأخلاقي، وبروز الحركات، والمنظمات المشبوهة التي تدعو للفساد، والإفساد، والانحراف عن الصراط المستقيم .

المبحث الثالث : مقصد حفظ النَّفس :

تعريف النَّفس :

في اللغة : هي الرُّوح، فيقال : خرجت نفس فلان، أي روحه . ومعناها أيضاً عين الشيء، وجوهره، وتطلق كذلك على جملة الشيء، وحقيقته .[29]

وفي الاصطلاح : النفس هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة، والحس، والحركة الإرادية، وسماها الحكيم الروح الحيوانية، فهو جوهر مشرق للبدن.[30]

ولقد أورد الإمام الشاطبي –رحمه الله– تعريفاً جامعاً مانعاً، فقال : "وحفظ النفس حاصله في ثلاثة معان، وهي: إقامة أصله بشرعية التناسل، وحفظ بقائه بعد خروجه من العدم إلى الوجود من جهة المأكل، والمشرب، وذلك ما يحفظه من داخل، والملبس والمسكن، وذلك ما يحفظه من خارج، وجميع هذا مذكور أصله في القرآن، ومبيّن في السنة، ومكمله ثلاثة أشياء، وذلك حفظه عن وضعه في حرام كالزنى، وذلك بأن يكون على النكاح الصحيح، ويلحق به كل ما هو من متعلقاته؛ كالطلاق، والخلع، واللعان، وغيرها، وحفظ ما يتغذى به أن يكون مما لا يضر أو يقتل أو يفسد، وإقامة ما لا تقوم هذه الأمور إلا به من الذبائح، والصيد، وشرعية الحد، والقصاص، ومراعاة العوارض اللاحقة، وأشباه ذلك" .[31]

أدلة مقصد حفظ النَّفس :

لقد دلت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة على هذا المقصد العظيم، وأنه من أعظم المقاصد الضرورية .يقول الله –تعالى– : (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) .[32] وقوله –تعالى– : (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ).[33] وقال رسول –صلى الله عليه وسلم– : ((كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ)) .[34]فحرَّم اللهُ قتل النفس إلا بالحق، وذلك لإبقائها لتعمر الأرض حتى يُعبد اللهَ وحده لا شريك له كما في قوله–تعالى– : (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) .[35]

مقصد حفظ النَّفس من جانب الوجود، والعدم :

1) من جانب الوجود :

نفس المؤمن في ميزان الشريعة الإسلامية غالية، ولها مكانتها الرفيعة، وقدرها العظيم، فإحيائها مقصد شرعي دلت عليه نصوص الكتاب، والسنة، ودعت إليه الفطرة، قال الله –سبحانه وتعالى– : (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا).[36] فالمحافظة على النفس له درجات، ومواقع، أولها : موقع السعة، واليسر، وهو ما أباحه الله للمؤمنين من الحلال الطيب من وسائل الكسب المشروعة، كالتجارة، والزراعة، والصناعة، وغير ذلك، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : ((أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بما أمر به المرسلين. فقال: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) .[37] وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) .[38]ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ. أَشْعَثَ أَغْبَرَ. يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ. يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وغذي بالحرام. فأنى يستجاب لذلك)) .[39] وثانيها : موقع الحاجة وما يترتب عليه من مشاق، ففي هذا الموضع خفَّف الشارع الحكيم عن بعض المكلفين ببعض الرخص الشرعية . وثالثها : موقع الضرورة، وهو ضرر أو أذى بالنفس، فحينئذ يتعيَّن، أو يشرع الانتقال من هذا الموقع إلى موقع السعة، واليسر، أو إلى موقع الحاجة، وهذا من كمال التشريع، ومحاسن الإسلام .

وهذه الأحوال المذكورة قد استوعبت كل ما يطرأ للإنسان من حوادث، ومتغيرات، وكذلك انسجمت معه انسجاماً تاماً بما يكفل بقائه، ووجوده إلى أن يشاء الله، فالشريعة الإسلامية قد شرعت الأحكام، ووضعت الضوابط لكل حالة من الحالات الثالثة في الموضع الذي فيه المصلحة الدينية، والدنيوية، وذلك بما يتوافق مع طاقة الإنسان، ويتماشى مع قواعد الشريعة كقاعدة لا ضرر ولا ضرار، وقاعدة الضرورة تقدر بقدرها، دون إفراط، ولا تفريط، فهي

مستوعبة لكل القضايا، والنوازل، والمستجدات في كل الأوقات، والأحوال. قال –تعالى– : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .[40]

وسائل حفظ النفس من جانب الوجود :

أ) الحث على النكاح، والتكاثر، والترغيب في ذلك :

إن الشريعة الإسلامية حثت على النكاح، ورغَّبت فيه، لما فيه من المنافع المتعددة، والفوائد العظيمة، والتي تعود على المسلم بالخير، والنفع في دينه، ودنياه، قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– : ((يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ. فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ.....)) الحديث.[41]فأساس الأسرة المسلمة يبدأ باختيار الزوجة الصالحة صاحبة الدَّين، والخُلُق المطيعة لربها –سبحانه وتعالى– وهو ما بيَّنهُ النبيُّ –عليه الصلاة والسلام– كما في قوله : ((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ)) .[42]فالغاية من النكاح الشرعي طاعة الله، ورسوله –صلى الله عليه وسلم– مع المحافظة على الأنفس، وحفظها، والإكثار من سواد هذه الأمة، أمة الإجابة، وهو ما أمر به رسول –صلى الله عليه وسلم–أمته كما في قوله : ((تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ)) .[43]

ب) النفقة على الزوجة، والأبناء :

من وسائل حفظ النفس من جانب الوجود النفقة على الزوجة، والأبناء الذين يستوجب النفقة عليهم في جهة المأكل، والملبس،لقول الله –عز وجل– : (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) .[44]ويقول النبيُّ –عليه الصلاة والسلام– :((وإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا أُجِرْتَ حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ ...)) .[45]وقال –صلى الله عليه وسلم– : ((دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ في سبيلِ اللَّه، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ في رقَبَةٍ، ودِينَارٌ تصدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ علَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذي أَنْفَقْتَهُ علَى أَهْلك)) .[46]فمن يسر الشريعة، وحرصها على الإنسان أنها رخَّصت للزوجة الأخذ من مال زوجها بدون علمه إذا كان شحيحاً على جهة الزوجة،والأبناء في الأمور الضرورية، فيجوز للزوجة حينئذ سراً، ولكن بضابط محدد، وهو قدر الكفاية فقط دون الزيادة، والمبالغة، لقوله –صلى الله عليه وسلم–: ((خُذِي أَنْتِ وَبَنُوكِ مَا يَكْفِيكِ بِالْمَعْرُوفِ)).[47]فهذه النصوص الشرعية المذكورة لها مقصد شرعي، وهو حفظ النفس من حيث الوجود، والإبقاء، وتدل دلالة قطعية على مراعاة المصالح، ودرء المفاسد، ودفع الضرر على المكلفين بحسب الحال، والمآل.

2) من جانب العدم :

شرعَ اللهُ –عز وجل– أحكاماً شرعية لحفظ الأنفس من جانب العدم، فمقاصد، وغايات تلك الأحكام هي الحفاظ على الأنفس البشرية، فحرَّم –سبحانه وتعالى– كل سبب، أو وسيلة تؤول إلى هلاك النفس بغير حق أشدّ تحريماً بعد الكفر، والشرك بالله، وتوعَّد مرتكبيها بالعقوبة في الآخرة، فقال –تعالى– : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) .[48]وهذه من مقاصد الشريعة لحفظ النفس،

وصيانتها، فأمرُ ذلك قائمٌ على ما نهى اللهُ ، ورسولهُ –صلى الله عليه وسلم–عنه .فهذا المقصد فيه رد صريح على دعاة حقوق الإنسان القائلون زوراً، وبهتاناً، بأن الإسلام دين عنف، وإرهاب، وسفك دماء .وهو في حقيقة الأمر جهل مركب بمقاصد الشريعة، وغاياتها، ومحاسنها من أولئك المفترون الحاقدون على الشريعة، وأهلها . فالإسلام دين العدل، والرحمة، والإحسان . لا كما يصوره أصحاب النفوس المريضة، والقلوب الخبيثة .

وسائل حفظ النفس من جانب العدم :

أ) إقامة حدِّ القصاص :

من أعظم الوسائل المعينة على حفظ النفس من جانب العدم إقامة حدّ القصاص ، لقول الله–تعالى– : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .[49]فلهذا شرع الله حدَّ القتل، لما فيه من الفوائد العظيمة على الفرد، والمجتمع،الأمر الذي يعود بالاستقرار،فحدِّ القصاص مقصد شرعي لحفظ الأنفس المعصومة .قال بعض أهل العلم : "جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتُل، فتمنعه مخافة أن يُقتل" .[50] ومن المعلوم أن إقامة حدَّ القتل، وغيره من الحدود من خصائص ولي الأمر المسلم . قال الإمام ابن تيمية : "الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية، فإن الله ينزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وإقامة الحدود واجبة على ولاة الأمور، وذلك يحصل بالعقوبة على ترك الواجبات، وفعل المحرمات" .[51]

ب) توفير الأمن، وتعزيزه :

يتعيَّن على ولي الأمر المسلم حفظ الأمن، وتعزيزه، وتحقيقه، وذلك بإقامة المؤسسات الأمنية الرسمية، ودعمها، وتقويتها، وتدريب كوادرها حتى تقوم بدورها على الوجه المطلوب، والمشروع لتوفير الأمن للرعية، والمقيمين، والمعاهدين، والمارة، والزوار، وغير ذلك، ونشر السكينة حتى يعيش المجتمع في أجواء آمنة، ومستقرة يسودها الوئام، والعيش الكريم، فالأمن مقصد شرعي، ومطلب إنساني، تأنس فيه النفوس، ويُقام به الدِّين، ويردع به المجرمين، وتندثر به الجرائم، وبه تصان الأعراض، والأموال، وتحفظ –إن شاء الله– فإبراهيم –صلى الله عليه وسلم– دعا ربَّه –عز وجل– أن يرزق بلده الأمن، كما أخبر الله بذلك، فقال –تعالى– : (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا) .[52]ونبينا –عليه الصلاة والسلام– قال : ((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)) .[53]فهنا تكمن حاجة الأمن، وأهميته في حياة المسلم، وفي كافة شؤونه العامة، والخاصة .

المبحث الرابع : مقصد حفظ النسب :

تعريف النَّسب :

في اللغة : النَّسب: هو نسب القرابات، وهو واحد الأنساب. وقد قيل : النِّسْبةُ والنُّسْبَةُ والنَّسَبُ: القرابة؛ وقيل: هو في الآباء خاصة، وقيل: النِّسْبَةُ مصدر الانتساب .[54] قال في الصحاح تاج اللغة : "ونَسَبْتُ الرجل أَنْسُبُهُ بالضم نِسْبَة، ونَسَباً، إذا ذكرتَ نسبه" .[55] فالنون، والسين، والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء. منه النَّسَبُ، سمي لاتصاله وللاتصال به. تقول : نَسَبْتُ أَنْسبُ" .[56]

وفي الاصطلاح :النسب : هو عبارة عن مرج الماء بين الذكر، والأنثى على وجه الشرع. فإن كان بمعصية كان خلقاً مطلقاً، ولم يكن نسباً محققاً، ولذلك لم يدخل تحت قول : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ) .[57]بنته من الزنا؛ لأنها ليست ببنت .[58]

أدلة مقصد حفظ النَّسب :

لعظم، وأهمية النَّسب في الإسلام دلت الأدلة الشرعية من القرآن الكريم عليه، ومنها قول الله –سبحانه وتعالى– : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) .[59]فالشعوب، والقبائل لها أنساب، ولحفظ هذا النسب من مواضع الخلل، والفوضى جاءت نصوص القرآن الكريم محذرة من ذلك، قال –تعالى– : (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) .[60]فالزنا سبب رئيس في فقدان الأنساب، واختلاطها، وضياعها .

مقصد حفظ النَّسب من جانب الوجود، والعدم :

1) من جانب الوجود :

حفظ النَّسب، أو النَّسل، أو العرض له أسساً، ومنطلقاً شرعياً، ومقصداً عظيماً جاء لمصلحة الأمة الإسلامية، سواء كانوا أفراد، أو جماعات، تتمثل في تحقيق المحافظة على النسب، فالشارع الحكيم أمر بكل أمر يحفظ الأنساب، ويقويها، ويدعمها، ويقوي الروابط الاجتماعية بين المسلمين، ويضع الأمور في نصابها الشرعي الصحيح لتحقيق الغايات، والمقاصد الشرعية التي تحفظ لهذه الأمة أنسابها، وذلك وفقاً لتوجيهات الشريعة الإسلامية السمحة .

وسائل حفظ النَّسب من جانب الوجود :

أ) النكاح الشرعي :

لقد أمر اللهُ عباده المؤمنين بالنكاح أمر استحباب، فقال تعالى : (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) .[61]وقال –عز وجل– : (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .[62] فمن أهم الوسائل التي يتحقق من خلالها المحافظة على النَّسب من حيث الوجود النكاح الشرعي لأن بذلك يتصل النسب اتصالاً محضاً. فهناك اليوم، أنكحة، وبأسماء مختلفة، ولكنها في الحقيقة هي أنكحة باطلة أبطلها الإسلام جملة، وتفصيلاً، وبيّن حرمتها، منها نكاح المتعة، ونكاح الشغار، والنكاح العرفي، والنكاح السري، وغير ذلك، ففي الصحيحين : ((نَهَى عَنِ الْمُتْعَةِ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ زَمَنَ خَيْبَرَ)) .[63]وعن ابن عمر –رضي الله عنهما– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ((نَهَى عَنِ الشِّغَارِ)) . والشغار: أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق .[64]

ب) الزوجة الصالحة :

الزوجة الصالحة هي التي تخشى الله –تعالى– في زوجها، وتراقب الله في سكناتها، وفي خلواتها، وفي سائر أحوالها،وتحفظ فرجها، وتطيع زوجها، لتُنجِب الذرية الطيبة المباركة، ، فبها يحفظ النسب، ويصان، وقد بيّن اللهُ– سبحانه وتعالى– صفات تلك الزوجة الكريمة، وسلوكها الحسنة، ومنهجها الطيب، وما له من الأثر الحسن في الإسلام، فقال –عز وجل– : (فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ) .[65]وقدقِيلَ لِرَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النِّسَاءِ خَيرٌ ؟ قَالَ : «الَّتِي تَسُرُّهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ)) .[66] وقد تقدم معنا ذكر الأحاديث التي ترغّب في اختيار الزوجة الصالحة .

ت) تعلم النسب، وصلة الرحم:

من وسائل حفظ النَّسب من جانب الوجود معرفة الأنساب، وصلة الأرحام، لما في ذلك من تثبيت النَّسب، وحفظه بصلة الرحم، يقول النبيُّ–صلى الله عليه وسلم– : ((تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي المَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ)) .[67]قال في تحفة الأحوذي :"أي من أسماء آبائكم، وأجدادكم، وأعمامكم، وأخوالكم، وسائر أقاربكم (ما) أي قدر ما (تصلون به أرحامكم) فيه دلالة على أن الصلة تتعلق بذوي الأرحام كلها لا بالوالدين فقط . كما ذهب إليه البعض،والمعنى تعرفوا أقاربكم من ذوي الأرحام ليمكنكم صلة الرحم، وهي التقرب لديهم، والشفقة عليهم، والإحسان إليهم، فتعلم النسب مندوب، فإن صلة الرحم محبة" .[68]

2) من جانب العدم :

الشريعة الإسلامية أمرت بحفظ النسب حفظاً تاماً، وفي المقابل حذرت من كل الأسباب التي تؤدي إلى الاختلال، والفوضى في الأنساب، وكذلك الأمور التي تؤول إلى ضياع النسب، وفقدانه،وذلك حفاظاً على البشرية قاطبة، فرتَّبت العقوبة لمن يتلاعب بالأنساب، أو يخالف ذلك، فاللهُ –جلا شأنه– أمرنا بالابتعاد، وعدم القُرب من المواطن، والمسالك السيئة، والمشبوهة، فقال –تعالى– : (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) . قال في تفسير القرآن العظيم : "يقول –تعالى– ناهياً عباده عن الزنا، وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه، ودواعيه : (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً) أي: ذنباً عظيماً . (وَسَاءَ سَبِيلًا) أي: وبئس طريقاً ومسلكاً" .[69]

وسائل حفظ النَّسب من جانب العدم :

أ) تطبيق حدّ الزنا، والقذف :

تطبيق حدِّ الزنا في الأوساط البشرية له الأثر العظيم في حفظ النَّسب من جانب العدم، وهو رادع قوي، وعلاج ناجع لمن تسوَّل له نفسه فعل الفواحش . فكيف لا، وقد شرعه ربُّ العزة، وأمر به . قال –تعالى– : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .[70]وذلك لحفظ البشرية من أسباب الرَّدى، والبلاء، فبه تحفظ الأنساب، وتصان. وكذلك من الوسائل لحفظ النَّسب من جانب العدم تطبيق حدِّ القذف لما فيه من المنافع العظيمة، والفوائد الجمة، وذلك لحفظ النّسب، وسدّ الأبواب المفضية إلى التشكيك في الأنساب، والكلام في الأعراض بغير شهود،

ولا إقرار . قال الله –سبحانه وتعالى– : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .[71]

ب) تشديد الرقابة على دور الولادة :

تشديد، وتكثيف الرقابة على المراكز والمؤسسات المختص بالولادة أمر في غاية الأهمية، والمسؤولية، لأنه هناك من يتعمد لسرقة الأطفال المواليد أو يقوم باستبدالهم بآخرين بقصد، أو بغير قصد،وهو سبب رئيس في انتشار الفوضى، واختلال الأنساب، وضياعها، فيجب على الجهات ذات العلاقة وضع النظم، والضوابط، والقيود، والإجراءات لضبط الأمور، ووضعها في نصابها الصحيح فهذا ما أوجبه اللهُ على المسؤولين من حفظ للأمانة كي تحفظ الأنساب، وتغلق أبواب الشر، والفوضى في أوساط المسلمين، ومجتمعاتهم .

ج) منع الوسائل المفضية إلى الزنا :

وهو منع الوسائل التي تفضي إلى الفساد العريض، والمنكرات، والفواحش، سواء كانت هذه الوسائل مباشرة ، كدور الزنا، أو غير مباشرة،كالوسائل المفضية إلى الزنا، كالاختلاط بين الرجال، والنساء، والخلوة بالأجنبية، وسفر المرأة بغير محرم، وذلك عملاً بقاعدة (سدّ الذرائع)، فهذا الأمر من مسؤوليات ولاة الأمور اتجاه دينهم، وبلدانهم، وكذلك مسؤولية الآباء اتجاه أبنائهم، وبناتهم، ومن في ولايتهم، فالنبيّ صلى الله عليه وسلم– حذَّر أمته من هذه الوسائل التي تؤدي في الغالب إلى ما لا يحمد عقباه، وذلك درأ للمفاسد، وحفظ الأنساب، وصيانة المجتمعات الإسلامية من أسباب الفوضى، والاختلال . قال النَّبيُّ –عليه الصلاة والسلام– : ((«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ)) .[72]وقال –صلى الله عليه وسلم– : ((لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ. وَلَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ"....)) الحديث .[73]

المبحث الخامس : مقصد حفظ العقل :

تعريف العقل :

في اللغة :هو التمييز الذي به يتميّز الإنسان من سائر الحيوان، فيقال: لفلان قلب عقول، ولسان سؤول، وقلب عقول فهم؛ وعقل الشيء يعقله عقلاً أي فهمه .[74]

والعقلُ في الاصطلاح : ما يُعقل به حقائق الأشياء، وقيل : نورٌ في القلب يُعرف به الحقُ، والباطل .[75]

أدلة مقصد حفظ العقل :

دلت نصوص الشريعة المطهرة على هذا المقصد الشرعي العظيم، قال الله –سبحانه وتعالى– في محكم التنزيل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .[76] نهى اللهُ المؤمنين عن شرب الخمر في هذه الآية الكريمة لمصلحة، وهي حفظ العقل مما يغيبه، أو يذهبه بالكلية، وهو مقصد الشرع في ذلك .

مكانة العقل في الإسلام :

العقل في الإسلام له مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، حيث تميّز به بنو آدم عن غيرهم من سائر المخلوقات، وهو وسيلة للفهم، والإدراك، دلت على أهميته، ومكانته نصوص القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ودلت عليه أيضاً نصوص السنة النبوية، قال الله –تعالى– مبيّناً أهمية العقل في معرفة الآيات الكونية، : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .[77] وقال –تعالى– في بيان مكانة العقل في معرفة الآيات الشرعية : (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .[78] وفي السنة النبوية ما جاء في صحيح مسلم : أن صحابياً أتى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَرَدَّهُ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ. فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ. فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إلى قَوْمِهِ فَقَالَ : ((أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟)) . فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِيَّ الْعَقْلِ .[79] دلّ هذا الحديث على أن للعقل مكانة، وهو مناط التكليف . فالأدلة، والشواهد من القرآن الكريم، والسنة النبوية في بيان مكانة العقل، وأهميته كثير .

مقصد حفظ العقل من جانب الوجود، ومن جانب العدم :

1) من جانب الوجود :

اهتم الإسلامُ بجانب العقل اهتماماً بالغاً، وحثّ على تنميته في الخير حتى تعود ثمرات ذلك على الفرد، والمجتمع بالأمن، والسلامة في الأبدان، والأوطان، فالله –سبحانه وتعالى– خاطب الأمم السابقة بالآيات الكونية، ثم بالعقل، مما يدل على عظيم مكانة العقل، وأهميته . قال الله–تعالى– : (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .[80]قال في تيسير الكريم الرحمن : "فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله" .[81] وهذا هو المقصد الشرعي الذي قررته شريعتنا السمحة في تشريعاتها، وفي أحكامها، وأمرت المكلفين من هذه الأمة بمراعاة هذا المقصد، ورتَّبت الأجر العظيم على ذلك في الدنيا، والآخرة لمن سلك هذا السبيل، وذلك لما تضمنته من منافع شرعية، ومصالح مرعية .

وسائل حفظ العقل من جانب الوجود :

أ) حفظ القرآن الكريم، وتلاوته، ومعرفة أحكامه :

العقول السوية من أصحاب الفطر السليمة تحيى بكلام الله –جل شأنه–، وتدرك معانيه لتعمل بأوامره، وتنتهي بنواهيه، وتقف عند حدوده،لأنه سبب في حفظها، وصيانتها، ونمائها، فالقرآن الكريم حياة القلوب، وشفائها، وسعادتها في الدنيا، والآخرة . قال –تعالى– : (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

.[82]وهو أيضاً سبب في استقامتها على جادة الطريق، وكذلك سبب في ازديادها من الخير، والصلاح، وهو ما يعود على العبد المستقيم في دينه، ودنياه بالعاقبة الحسنة–إن شاء الله– .قال في تيسير الكريم الرحمن في تفسير قوله الله –جل وعلا– : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .[83]أي: تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية، على أذهانكم،. فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها، وأكمل .[84]

ب) تعلم العلوم الشرعية :

من أعظم الوسائل لحفظ العقل تعلم العلوم الشرعية، وتطبيقها تطبيقاً عملياً في حياة المسلم فبها تحفظ العقول، وتصان، وتحيى القلوب، ويعلمُ العبدُ الحلالَ من الحرامِ، والهدى من الضلال، والخير من الشر، وتحصل له الرفعة، والسلامة في الدنيا، والنجاة في الآخرة . قال اللهُ –تعالى– : (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .[85]وفي الصحيحين أن النَّبيَّ –صلى الله عليه وسلم– قال : ((مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)) .[86] ومن الفقه في الدين العمل بهذا العلم، وترك ما يخالف ذلك من المحرمات، ومن ذلكم المحرمات المسكرات بكافة أنواعها، وأصنافها .

2) من جانب العدم :

الشريعة الإسلامية قامت على تحقيق المصالح، ودفع المفاسد التي من شأنها أن تفسد العقل، وتعطله عن التعلم، والتعليم، والجد، والاجتهاد، والتفكير، فقد حرص الإسلام على حماية العقل من الشهوات، ومن الشبهات، لأن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة، تخطف العقول، وتسلبها، وتجعل أصحابها رهائن، وأسرى لشهواتهم، ورغباتهم، فالقلب سمي قلباً وذلك لسرعة تقلبه، وتغيره، ولكن في المقابل الإسلام شرع أموراً تكفل بقاء العقل، وتحميه من كل ما يضره، ويعطله، ويُغيّبه عن الحياة العامة، سواء أكان غياباً نسبيّاً، أو كليّاً. وهذا مقصد حفظ العقل في الإسلام .

وسائل حفظ العقل من جانب العدم:

أ) تطبيق حدّ الخمر :

تطبيق حدِّ الخمر أمر شرعي جاءت به نصوص الشريعة الإسلامية، وذلك لتحقيق مصلحة شرعية محضة، وهي حفظ العقل، وصيانته من الأضرار، والآفات المهلكة حتى يقوم الإنسان بما أوجب الله عليه من العبادات، والطاعات، واجتناب المنكرات . فالخمر مضرة تفقد العقل، وتفسده . قال في زاد المعاد : "إنما حرم على هذه الأمة ما حرم لخبثه، وتحريمه له حمية لهم، وصيانة عن تناوله" .[87]والحدّ الشرعي أعظم زاجر، وناهي لمن لم ينتهي بالآيات الشرعية . فلقد جَلَدَ النَّبيُّ –صلى الله عليه وسلم– شاربَ الخمر أربعين جلدة . وجلد عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– شارب الخمر ثمانين جلد، واستقر الصحابة –رضي الله عنهم–على ذلك، ففي صحيح مسلم : أَنّ النَّبِيَّ –صلى الله عليه وسلم– أُتِيَ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ الخمر. فجلدته بِجَرِيدَتَيْنِ، نَحْوَ أَرْبَعِينَ.[88]وَفَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ. فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ اسْتَشَارَ النَّاسَ. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَخَفَّ الْحُدُودِ ثَمَانِينَ. فَأَمَرَ بِهِ عُمَرُ .[89] لأن الخمر أم الخبائث، ومنشأ الفساد، والشر .

ب) مكافحة المخدرات، والمسكرات :

من الوسائل المعينة على حفظ العقل من جانب العدم مكافحة مصادر المخدرات، والمسكرات، وتجفيف منابعهما بكافة الطرق المشروعة، والتشديد في ذلك، وعدم التساهل، أو التسامح مع تجار المخدرات، ومروجيها، ومتعاطيها حتى تسلم المجتمعات من هذه الآفة الخطيرة التي تستهدف الجميع دون استثناء لا سيما فئة الشباب، والناشئة مما يعد مؤشراً خطيراً، وكارثة حقيقية، ونذير سوء . فإن انتشار هذه الظاهرة السيئة في أوساط المجتمعات الإسلامية جريمة، تمس المسلمين، وأمنهم، واستقرارهم، فالجهات المختصة عليها مسؤولية عظيمة في الحفاظ على الأفراد، والمجتمعات من خطر المسكرات، فيجب أن تتظافر الجهود بعد الاستعانة بالله لاجتثاث هذا الداء القاتل، حتى تعم الفائدة على الجميع بسلامة العقول، وصيانتها، وهذا هو مقصد حفظ العقل الذي حرص الإسلام على تحقيقه .

ج) العناية بالشباب، ونشر التوعية، ومعالجة المدمنين:

لقد اعتنى الإسلامُ بالشبابِ أعظم عناية، واهتم بهم أعظم اهتمام، فذكر القرآن الكريم أحوالهم، وأخبارهم مدحاً لهم . قال الله –تعالى– : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) .[90] واعتنى بهم النَّبي – عليه الصلاة والسلام– فحرص على تعليمهم العلم والخير، فعن جندب بن عبد الله، قال : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، «فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا» .[91] وعن أنس بن مالك،[92] قال : "كَانَ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ سَبْعِينَ رَجُلًا يُسَمَّوْنَ الْقُرَّاءَ" قَالَ: " كَانُوا يَكُونُونَ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا أَمْسَوْا انْتَحَوْا نَاحِيَةً مِنَ الْمَدِينَةِ، فَيَتَدَارَسُونَ، وَيُصَلُّونَ يَحْسِبُ أَهْلُوهُمْ أَنَّهُمْ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَحْسِبُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ أَنَّهُمْ عِنْدَ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى إِذَا كَانُوا فِي وَجْهِ الصُّبْحِ اسْتَعْذَبُوا مِنَ الْمَاءِ، وَاحْتَطَبُوا مِنَ الْحَطَبِ، فَجَاءُوا بِهِ فَأَسْنَدُوهُ إِلَى حُجْرَةِ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– جَمِيعًا، فَأُصِيبُوا يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ، فَدَعَا النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى قَتَلَتِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا فِي صَلَاةِ الْغَدَاةِ " .[93] فهذه الأدلة تدل دلالة واضحة على عناية الإسلام بالشباب، وتنشئتهم تنشئة صالحة، لأنهم هم عماد هذه الأمة، وقاداتها –إن شاء الله– .كما يجب تكثيف البرامج التوعوية بكل الوسائل في أوساط الشباب كي يعوا حقيقة هذه المواد المخدرة، والمسكرة التي تستهدف عقولهم على وجه الخصوص لا سيما طلاب المدارس، والجامعات، والأجهزة الأمنية، والعسكرية . كما ينبغي أيضا استحداث مراكز علاجية متخصصة، ومتطورة لمعالجة مدمنين الخمور، والمواد المخدرة، وتأهيلهم تأهيلاً جيداً، وتعليمهم حتى يعودوا إلى عقولهم معافين، ويكونوا بدرة خير في مجتمعاتهم . فإهمالهم يزيد الأمر سوء، ويعيق الاستقرار، وينمي الفوضى، ويعزز مظاهر الجريمة، والفساد في الأوطان .

المبحث السادس :مقصد حفظ المال :

تعريف المال :

في اللغة : المال في الأصل ما يملك من الذهب، والفضة ثم أطلق على كل ما يقتنى، ويملك من الأعيان .[94]

وفي الاصطلاح : هو ما يقع عليه الملك، ويستبد به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه .[95]

أدلة مقصد حفظ المال :

لقد دلت أدلة الشرع المطهر على هذا المقصد الشرعي العظيم، فدين الإسلام حرَّم أكل مال الغير بالباطل، ولذلك لحفظ الأموال، وصيانتها، قال الله –سبحانه وتعالى– : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) .[96]فهذه الآية نكرة في سياق النهي فتعم . وقال –تعالى– : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) . [97]فأكل مال اليتيم كبيرة من كبائر الذنوب، وعظيمة من عظائم الآثام، ولكن يستثنى من ذلك التصرف في مال اليتيم فيما هو في مصلحة اليتيم، كتنمية ماله، كما في قوله –تعالى– : (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) .[98]وهذا هو مقصد حفظ المال .

مقصد حفظ المال من جانب الوجود، ومن جانب العدم :

1) من جانب الوجود :

لقد اعتنت الشريعة الإسلامية بجانب المال عناية عظيمة، ورتَّبت على ذلك أحكاماً، وشروطاً، وضوابطاً سواء في تصرفات العبد في ماله، أو في مال غيره،أو في ادخار هذا المال، أو في إنفاقه، وذلك لتحقيق المصلحة الشرعية، والمقصد الأسمى، وهو حفظ المال من جانب الوجود، فقد كفلت هذه الشريعة الغراء ذلك للمسلمين، وضمنت لهم بقاء هذا المال محفوظاً مصوناً متى ما تمسك المسلمون بالتوجيهات، والتعليمات الشرعية،فالعبد محاسباً على هذا المال في الحياة الآخرة، وسيسأل عن مصادر هذا المال، وعن أوجه صرفه، ففي الحديث أن النَّبِيَّ –صلى الله عليه وسلم– قال : ((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ)) .[99] قال في التحفة : "(وعن ماله من أين اكتسبه) أي أمن حرام، أو حلال (وفيما أنفقه) أي طاعة، أو معصية" .[100]

وسائل حفظ المال من جانب الوجود:

أ) إخراج الزكاة :

من الوسائل الشرعية لحفظ المال من جانب الوجود إخراج الزكاة في وقتها،وعند بلوغها النصاب، وعلى مستحقيها، لقول الله –سبحانه وتعالى– : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ) .[101]فإخراج الزكاة المفروضة وسيلة عظيمة من وسائل حفظ المال، وسبب في نمائه، وزيادته . قال الله –تعالى– : (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) .[102]قال في تيسير الكريم الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة : "ويربي صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق، أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيده، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره" .[103]

ب) الانفاق في سبيل الله :

الإنفاق في سبيل الله وسيلة من وسائل حفظ المال من جانب الوجود متى ما احتسب المُنفق الأجر عند الله، وأخلص عمله في ذلك لله –جل شأنه– دون رياء، ولا سمعة، فالله قد ضمن له ماله، وحفظ له هذا المال، ورجوع هذا المال إليه، وهذا من عظيم فضله، وإحسانه لخلقه . يقول الله في محكم التنزيل: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .[104]وقال النبيُّ–صلى الله عليه وسلم– : ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ)) .[105] قال في شرح صحيح مسلم : "فيه وجهين أحدهما معناه : أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية، وهذا مدرك بالحس، والعادة . والثاني : أنه، وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه، وزيادة إلى أضعاف كثيرة" .[106] فيتبين جلياً أن من أسباب حفظ المال الإنفاق فيما أجازه الشارع، ورتّب الأجر العظيم لفاعله .

ج) تنمية الأموال في الوجوه المشروعة :

تنمية الأموال في الوجوه المشروعة، والمباحة، كالتجارة والصناعة، والزراعة، وغير ذلك وسيلة من الوسائل الراجحة لحفظ المال من جانب الوجود، وسبب في نمائه، وهي أدعى لحصول الخير، والبركة، يقول الله –سبحانه وتعالى– : (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) .[107]ويقول النَّبيُّ –صلى الله عليه وسلم–: ((الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا)) .[108]فتنمية المال في البيع، والشراء من الأمور التي أحلها الشرع، وحث عليها، ورغَّب فيها لما فيها من المنافع التي تعود على المسلمين عموماً بالخير، وحصول الرزق –بإذن الله–، وكذلك تحقيق المصلحة الشرعية المرجوة من ذلك، وهي حفظ المال، وصيانته، ووضعه في موضعه الصحيح، والمشروع . لا سيما في هذه الأوقات التي اشتبهت فيها الأمور على كثير من الناس في جانب المعاملات، وانتشرت فيها البيوع المحرمة في كثير من البلاد الإسلامية للأسف . الأمر الذي يستدعي تكوين مؤسسات تنموية تقوم على الشريعة الإسلامية دون تحيال، ولا غموض، ولا فساد في المعاملات حتى تقوم على أسس شرعية .

2) من جانب العدم :

الإسلام أمر بحفظ المال، وصيانته، ووضعه في مواضعه المشروعة، وفي المقابل حذَّر من إضاعة المال، أو أخذه بغير حقه، أو أكله بالباطل، أو أي وسيلة أخرى تفضي إلى تلفه، أو وضعه في الموضع غير المناسب، وقد جاءت النصوص الشرعية مبيّنة ذلك الأمر . قال الله –تعالى– : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) .[109]قال في أحكام القرآن : " يعني: بما لا يحل شرعاً ولا يفيد مقصوداً؛ لأن الشرع نهى عنه، ومنع منه، وحرم تعاطيه، كالربا والغرر، ونحوهما، والباطل ما لا فائدة فيه" .[110] وفي الحديث أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال : ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ. وَكَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ)) .[111]فحفظ المال من جانب العدم مقصد شرعي عظيم لما اشتمل من مصالح محضة لعموم المسلمين،وهذا ما تضمنته الأدلة الشرعية .

وسائل حفظ المال من جانب العدم :

أ) تطبيق حدّ السرقة، والحرابة :

شرع اللهُ –سبحانه وتعالى– حدّ السرقة، والحرابة لردع السّرّاق، وقُطَّاع الطرق، وتأديبهم حتى يُحفظَ المال، ويُصان بالكلية من التلف، والضياع، سواء أكان هذا المال عاماً، أو خاصّاً، وهذا من عدل الإسلام، وحرصه على حفظ المال من جانب العدم في كل الظروف، والأحوال . قال الله –تعالى– : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .[112] قال بعض المفسرون في تفسير هذه الآية : "لا ترثوا لهم أن تقيموا فيهم الحدود، فإنه، والله ما أمر الله بأمرٍ قَطُّ إلا وهو صلاحٌ، ولا نهى عن أمرٍ قَطُّ إلا وهو فساد" .[113]ويقول – تعالى– في بيان حدِّ الحرابة : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) .[114]قال في تفسير القرآن العظيم : "المحاربة : هي المضادة، والمخالفة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق، وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر" .[115] فعلى ولاة الأمور مسؤولية شرعية في محاربة السّرقة، والحرابةَ، وتطبيق الحدود على يفعل ذلك .

ب) حرمة أكل مال اليتيم :

الإسلام كفل لليتيم ماله، وضمن له حقه في الإرث من مال مورثه دون ظلم، ولا هضم، فأمر بحفظ مال اليتيم من جانب العدم ، وشدَّد العقوبة على آكله لما في ذلك من الظلم، والجور، والضرر المحض . قال الله –تعالى– : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) . [116]وفي الصحيحين أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال : ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ . قَالَ : الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ .....)) الحديث .[117] فهذه النصوص تأمرنا بحفظ مال اليتيم من جانب العدم، وتنهانا من قرب هذا المال إلا بالحسنة . الأمر الذي يعود على اليتيم بالنفع، والمصلحة من قبل الحاضن . كما في قوله –تعالى– : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ) .[118] وقوله : (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) .[119]قال في أحكام القرآن : "لما أذن الله تعالى للناس في مخالطة الأيتام مع قصد الإصلاح بالنظر لهم وفيهم كان ذلك دليلاً على جواز التصرف للأيتام كما يتصرف للأبناء، ..... ولأجل ذلك قال بعض علمائنا: إنه يجوز للحاضن أن يتصرف في مال اليتيم تصرف الوصي في البيع، والقسمة، وغير ذلك، وقد بيناه في مسائل الفروع، وبه أقول، وأحكم، فينفذ بنفوذ فعله له في القليل، والكثير على الإطلاق لهذه الآية" .[120]

ث) حرمة أكل المال العام، والخاص :

إن للمال العام حرمة في الإسلام لما له من الأهمية العظمى في شؤون الرعية، وفي حياتهم اليومية على كافة الأصعدة، فالشريعة الإسلامية أمرت بالمحافظة على المال العام قليله، وكثيره، وشدَّدت العقوبة على آكليه بغير حق، وذلك لحفظه من جانب العدم، فجاءت نصوص القرآن، والسنة بالوعيد لمن وقع في ذلك، قال الله –سبحانه

وتعالى– : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) .[121]وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قَالَ:قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ. فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ. ثُمَّ قَالَ :((لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ. يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا. قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ. فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا. قَدْ أَبْلَغْتُكَ.....)) الحديث .[122] قال في الكبائر : "الغلول من الغنيمة، وهي من بيت المال ومن الزكاة" .[123]فالشريعة الإسلامية حريصة كل الحرص على المحافظة على المال العام حتى في أدق الأمور . وقد أكدّ هذا الشرع المطهر على حرمة المال الخاص في مواضع كثير من النصوص الشرعية . قال –تعالى– : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) .[124]وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ، وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: ((إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)) .[125] فالشاهد من هذا الحديث (وأكل مال هذا) . أي حرمة أكل المال الخاص، وهذا مقصد حفظ المال .

النتائج :

[1] إن مقاصد العقوبات الشرعية في الشريعة الإسلامية شرعها الله –جل شأنه – لمصالح، ومنافع عظيمة، وحكم جليلة .

[2] إن فقه مقاصد العقوبات الشرعية مبني على حفظ الضروريات الخمس، وهي حفظ الدّين والنفس، والنَّسب، والعقل، والمال، رحمة للخلق، ورفقاً بهم .

[3] إن الشريعة الإسلامية حرصت على تحقيق المقاصد الضرورية، وأمرت المكلفين بوجب ذلك، ورتَّبت العقوبة العاجلة، والآجلة لمن خالف ذلك .

[4] أن شريعة الإسلام راعت مصالح العباد وفق طاقاتهم، وقدراتهم، فهي مستوعبة للأحكام التي تتماشى مع كل الصور، والحالات، وجاءت منضبطة تماماً في تشريعاتها، وذلك لرفع الحرج، والمشقة على الأمة .

[5] أن الإسلام حريص كل الحرص على وحدة الصف وجمع الكلمة، واجتماع المسلمين على كلمة سواء، ونبذ التفرق، والتحزب، وسدِّ الأبواب المفضية للفتن والاختلاف.

[6] تطبيق الحدود في المجتمع المسلم من قبل الدولة المتمثل في القضاء طريق إلى تحقيق الأمن، والاستقرار على كافة الأصعدة، وسبب لاجتماع الكلمة، ونبذ الفرقة .

التوصيات :

[1] ضرورة إنشاء محاكم شرعية في الدول الإسلامية، وتعزيز دور القضاة الشرعيين.

[2] تقوية السلطة التنفيذية في الدولة والمتمثلة في الأجهزة الأمنية لتقوم بدورها في تطبيق العقوبات، وردع المجرمين .

[3] العمل على بيان أهمية مقاصد العقوبات الشرعية من قبل العلماء، وطلبة العلم الشرعي، والوعاظ، والخطباء .

[4] توجيه كافة وسائل الإعلام لنشر التوعية بمقاصد العقوبات الشرعية في أوساط المجتمعات، وبيان أهميتها

المصادر والمراجع

[1] القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم .

[2] الأصبحي : مالك بن أنس : الموطأ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبوظبي، الإمارات، ط (1)، 1425هـ، 2004م .

[3] الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد الطوسي : المستصفى في علم الأصول، تحقيق محمد بن سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط (1)، 1417هـ، 1997م .

[4] الشاطبي : إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي : الموافقات، تحقيق مشهور بن حسن، دار ابن عفان، القاهرة، مصر، ط (1)، 1417هـ، 1997م .

[5] ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي الإفريقي : لسان العرب، بيروت، لبنان، ط (3)، 1414هـ .

[6] ابن عاشور : محمد الطاهر : مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، وزارة الأوقاف، والشؤون الإسلامية، قطر، 1425هـ، 2004م .

[7] الجويني : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد : البرهان في أصول الفقه، تحقيق صلاح عويضة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط (1)، 1418هـ، 1997م .

[8] مخلوف : محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (1)، 1424هـ، 2003م .

[9] البخاري : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي : صحيح البخاري، تحقيق جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، ط (1)، 1311هـ .

[10] النيسابوري : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري : صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (بدون طبعة)، 1374هـ، 1955م .

[11] ابن حجر : أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي : فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1379هـ، ج 12، ص 269 .

[12] ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم النمري : الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، تحقيق محمد محمد أحيد، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، السعودية، ط (2)، 1400هـ، 1980م .

[13] القاضي عياض : عياض بن موسى اليحصبي : ترتيب المدارك، وتقريب المسالك، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط (1)، 1981م .

[14] الجرجاني : علي بن محمد بن علي : التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط (1)، 1405هـ .

[15] أبو داود : سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط (1)، 1433هـ، 2009م .

[16] ابن عبد السلام : عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن : قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، 1414هـ، 1991م .

[17] ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي : تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي محمد، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط (2)، 1420هـ، 1999م .

[18] ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي : الحسبة في الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (1) .

[19] الترمذي : محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى الضحاك : سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط (2)، 1395 هـ، 1975م .

[20] الجوهري : أو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي : الصحاح تاج اللغة، وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط (4)، 1407هـ، 1987م .

[21] ابن فارس : أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، بيروت، لبنان، 1399هـ، 1979م .

[22] ابن العربي : محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الاشبيلي المالكي : أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط (3)، 1424هـ، 2003م .

[23] النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب : سنن النسائي، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط (1)، 1421هـ، 2001م.

[24] المباركفوري : محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .

[25] البركتي : محمد عميم الإحسان المجددي : التعريفات الفقهية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (1)، 1424هـ، 2003م .

[26] السعدي : عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط (1)، 1420هـ، 2000م .

[27] ابن القيم الجوزية : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد : زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط (27)، 1415هـ، 1994م .

[28] ابن ماجه : محمد بن يزيد القزويني : سنن ابن ماجه، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الرسالة العالمية، بيروت، لبنان، ط (1)، 1430هـ، 2009م.

[29] ابن حنبل : أحمد بن حنبل الشيباني : مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط (1)، 1421هـ، 2001م .

[30] ابن حجر : أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد، وعلي أحمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (1)، 1415هـ .

[31] النووي : محي الدِّين يحيى بن شرف بن زكريا : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط (2)، 1392هـ.

[32] الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق د عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، مصر، ط (1)، 1422هـ، 2001م .

[33] الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان : الكبائر، دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان .

الهوامش

[1]- انظر ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي الإفريقي : لسان العرب، بيروت، لبنان، ط (3)، 1414هـ، ج3، ص353 .
[2] - سورة النحل، الآية : (9) .
[3]- انظر ابن عاشور : محمد الطاهر : مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، وزارة الأوقاف، والشؤون الإسلامية، قطر، 1425هـ، 2004م، ج3، ص165 .
[4]- انظر ابن عبد السلام : عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن : قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، 1414هـ، 1991م، ج2، ص189 .
[5]- انظر الغزالي : أبوحامد محمد بن محمد الطوسي: المستصفى في علم الأصول، تحقيق محمد بن سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط (1)، 1417هـ، 1997م، ج1، ص416.

[6]- انظر الشاطبي : إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي : الموافقات، تحقيق مشهور بن حسن، دار ابن عفان، القاهرة، مصر، ط (1)، 1417هـ، 1997م، ج2، ص33 .
[7]- انظر الجويني : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد : البرهان في أصول الفقه، تحقيق صلاح عويضة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط (1)، 1418هـ، 1997م، ج2، ص79 .
[8]- انظر الشاطبي : الموافقات، ج2، ص21 . م س .
[9]- المصدر نفسه، ج2، ص22، 23 .
[10]- انظر الشاطبي : الموافقات، ج4، ص17 . م س .
[11]- سورة الممتحنة، الآية : (12) .
[12]- انظر الشاطبي : الموافقات، ج4، ص14 . م س . بتصريف .
[13]- سورة الحجر، الآية : (9) .
[14]- سورة الروم، الآية : (30) .
[15]- سورة الروم، الآية : (43) .
[16]- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي، المحقق أحد العلماء الأثبات، وأكابر الأئمة الثقات، أخذ عن أئمة منهم ابن الفخار لازمه وأبو عبد الله البلنسي وأبو القاسم الشريف السبتي وأبو عبد الله الشريف التلمساني والإمام المقرئ، وغيرهم، من أشهر مؤلفاته الموافقات، والاعتصام، وغير ذلك، توفي في شعبان سنة 790 هـ . انظر مخلوف : محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (1)، 1424هـ، 2003م، ج1، ص332، 333 .

[17]- انظر الشاطبي : الموافقات، ج2، ص18 . م س .
[18]- البخاري : صحيح البخاري، ج7 ، ص 27، حديث رقم : 5188 . ومسلم : صحيح مسلم، ج3، ص1459، حديث رقم : 1829 .

[19]- سورة فصلت، الآية : (33) .
[20]- سورة العصر .
[21]- البخاري : صحيح البخاري، ج9، ص 15، حديث رقم : 6922 .
[22]-انظر ابن حجر :أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي : فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1379هـ، ج 12، ص 269 .

[23]- **هو** : يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الحافظ شيخ علماء الأندلس، وكبير محدّثيها، صاحب كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني، والأسانيد، وكتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي، والآثار، وكتاب التقصي لحديث الموطأ، وكتاب الاستيعاب لأسماء الصحابة، وكتاب جامع بيان العلم، ....وغير ذلك من المؤلفات، والمصنفات، توفي سنة ثلاث، وستين، وأربعمائة . انظر القاضي عياض : عياض بن موسى اليحصبي : ترتيب المدارك، وتقريب المسالك، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط (1)، 1981م، ج8، ص127، 128 .

[24]- انظر ابن عبدالبر : يوسف بن عبدالله بن محمد بن عاصم النمري :الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، تحقيق محمد محمد أحيد، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض،السعودية، ط (2)، 1400هـ، 1980م، ج1، ص485 .

[25]انظر بن عاشور : مقاصد الشريعة الإسلامية، ج3، ص549 . م س .
[26]- سورة النساء، الآية : (65) .
[27]- سورة المائدة، الآية : (50) .
[28]- سورة الأنعام، الآية : (57) .
[29]- انظر ابن المنظور : لسان العرب، ج6، ص233، 234 .
[30]- انظر الجرجاني : علي بن محمد بن علي : التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط (1)، 1405هـ، ج1، ص312 .
[31]- انظر الشاطبي : الموافقات، ج4، ص348 .
[32]- سورة النساء، الآية : (29) .
[33]- سورة الأنعام، الآية : (151) .
[34]- مسلم : صحيح مسلم، ج4، ص1986، حديث رقم : 2564 .
[35]سورة هود، الآية : (61) .

- سورة المائدة، الآية : (32) .
- سورة المؤمنون، الآية : (51) .
- سورة البقرة، الآية : (172) .
- مسلم : صحيح مسلم، ج2، ص703، حديث رقم : 1015 .
- سورة الملك، الآية : (14) .
- البخاري : صحيح البخاري، ج7، ص3، حديث رقم : 5065 . ومسلم : صحيح مسلم، ج2، ص1018، حديث رقم : 1400 .
- البخاري : صحيح البخاري، ج7، ص7، 8، حديث رقم : 5090 .
- أبو داود : سنن ابي داود، ج3، ص395، حديث رقم : 2050
- سورة البقرة، الآية : (233) .
- البخاري : صحيح البخاري، ج8، ص80، حديث رقم : 6373 .
- مسلم : صحيح مسلم، ج2، ص692، حديث رقم : 995 .
- البخاري : صحيح البخاري، ج3، ص79، حديث رقم : 2211 . ومسلم : صحيح مسلم، ج3، ص1338، حديث رقم : 1714 .
- سورة النساء، الآية : (93) .
- سورة البقرة، الآية : (179) .
- ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي : تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي محمد، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط (2)، 1420هـ، 1999م،ج1، ص492 .
- ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي : الحسبة في الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (1)، ص45 .
- سورة إبراهيم، الآية : (35) .
- الترمذي : سنن الترمذي، ج4، ص574، حديث رقم : 2346 .
- انظر ابن المنظور : لسان العرب، ج1، ص755 . م س .
- انظر الجوهري : أو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي : الصحاح تاج اللغة، وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط (4)، 1407هـ، 1987م، ج1، 224 .

- انظر ابن فارس : أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، بيروت، لبنان، 1399هـ، 1979م، ج5، ص423 .
- سورة النساء، الآية : (23) .
- انظر ابن العربي : محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الاشبيلي المالكي : أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط (3)، 1424هـ، 2003م، ج3، ص447 .
- سورة الحجرات، الآية : (13) .
- سورة الإسراء، الآية : (32) .
- سورة النساء، الآية : (3) .
- سورة النور، الآية : (32) .
- البخاري : صحيح البخاري، ج7، ص12، حديث رقم : 5115 . ومسلم : صحيح مسلم، ج2، ص1027، حديث رقم : 1407 .
- البخاري : صحيح البخاري، ج7، ص12، حديث رقم : 5112 . ومسلم : صحيح مسلم، ج2، ص1034، حديث رقم : 1415 .
- سورة النساء، الآية : (34) .
- النسائي : سنن النسائي، ج5، ص161، حديث رقم : 5324 .
- الترمذي : سنن الترمذي، ج4، ص351، حديث رقم : 1979 .
- انظر المباركفوري : محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج6، ص96 .
- انظر ابن كثير : تفسر القرآن العظيم، ج5، ص72 . م س .
- سورة النورة، الآية : (2) .
- سورة النورة، الآية : (4) .
- البخاري : صحيح البخاري، ج7، ص8، حديث رقم : 5096 . ومسلم : صحيح مسلم، ج4، ص2097، حديث : 2740 . واللفظ للبخاري .
- البخاري : صحيح البخاري، ج4، ص59، حديث رقم : 3006 . ومسلم : صحيح مسلم، ج2، ص978، حديث رقم : 1341 .
- انظر ابن المنظور : لسان العرب، ج11، ص459 . م س .
- انظر البركتي : محمد عميم الإحسان المجددي : التعريفات الفقهية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (1)، 1424هـ، 2003م، ص149 .
- سورة المائدة، الآية : (90) .
- سورة البقرة، الآية : (164) .
- سورة الأنبياء، الآية : (10) .
- مسلم : صحيح مسلم، ج3، ص1323، حديث رقم : 1695 .
- سورة الحديد، الآية : (17) .
- انظر السعدي : عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط (1)، 1420هـ، 2000م، ص840 .
- سورة الرعد، الآية : (28) .
- سورة يوسف، الآية : (2) .
- انظر السعدي : تيسير الكريم الرحمن، ص 393 .
- سورة المجادلة، الآية : (11) .
- البخاري : صحيح البخاري، ج1، ص25، حديث رقم : 71 . ومسلم : صحيح مسلم، ج2، ص719، حديث رقم : 1037 .
- انظر ابن القيم الجوزية : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد : زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط (27)، 1415هـ، 1994م، ج4، ص143

- مسلم : صحيح مسلم، ج3، ص1330، حديث رقم : 1706 .
- المصدر نفسه .
- سورة الكهف، الآية : (13) .
- ابن ماجه : سنن ابن ماجه، ج1، ص42، حديث رقم : 61 .
- هو الصحابي الجليل : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار أبو حمزة الأنصاري الخزرجي، ادم رسول الله -ﷺ- واحد المكثرين من الرواية عنه، غزا مع النبي -ﷺ- ثماني غزوات، مات سنة تسعين، وقيل إحدى، وتسعين . انظر ابن حجر : أحمد بن علي ، محمد بن أحمد العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد، وعلي أحمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (1)، 1415هـ، ج1، ص275 .
- ابن حنبل : أحمد بن حنبل الشيباني : مسند أحمد بن حنبل، ج21، ص126، حديث رقم : 13462 .
- انظر ابن المنظور : لسان العرب، ج11، ص636 . م س .
- انظر الشاطبي : الموافقات، ج2، ص32 . م س .
- سورة البقرة، الآية : (188) .
- سورة النساء، الآية : (10) .
- سورة الأنعام، الآية : (152) .
- الترمذي : سنن الترمذي، ج4، ص612، حديث رقم : 2417 .
[1]- انظر المباركفوري: تحفة الأحوذي، ج7، ص85 . م س .
[1]- سورة التوبة، الآية : (60) .
[1]- سورة البقرة، الآية : (276) .
[1]- انظر السعدي : تيسير الكريم الرحمن، ص959 . م س .
[1]- سورة سبأ، الآية : (39) .
[1]- مسلم : صحيح مسلم، ج4، ص2001، حديث رقم : 2588 .
[1]- انظر النووي : محي الدّين يحيى بن شرف بن زكريا : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط (2)، 1392هـ، ج16، ص141 .
[1]- سورة البقرة، الآية : (275) .
[1]- البخاري : صحيح البخاري، ج3، ص58، حديث رقم : 2079 .
[1]- سورة البقرة، الآية : (188) .
[1]- انظر ابن العربي : أحكام القرآن، ج1، ص138 . م س .
[1]- البخاري : صحيح البخاري، ج3، ص120، حديث رقم : 2408 . ومسلم : صحيح مسلم، ج3، ص1341، حديث رقم : 593 .
[1]- سورة المائدة، الآية : (38) .
[1]- انظر الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق د عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، مصر، ط (1)، 1422هـ، 2001م، ج8، ص410 .
[1]- سورة المائدة، الآية : (33) .
[1]- انظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ج3، ص94 . م س .
[1]- سورة النساء، الآية : (10) .
[1]- البخاري : صحيح البخاري، ج4، ص10، حديث رقم : 2766 . ومسلم : صحيح مسلم، ج1، ص92، حديث رقم : 89 .
[1] - سورة البقرة، الآية : (220) .
[1]- سورة الأنعام، الآية : (152) .
[1]- انظر ابن العربي : أحكام القرآن، ج1، ص215 . م س .
[1]- سورة آل عمران، الآية : (161) .
[1]- مسلم : صحيح مسلم، ج3، ص1461، حديث رقم : 1831 .
[1]- انظر الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان : الكبائر، دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، ص94 .
[1]- سورة البقرة، الآية : (188) .
[1]- مسلم : صحيح مسلم، ج4، ص1997، حديث رقم : 2581 .

" التنظيم القانوني لعقد السلم وتطبيقه العملي"

إعـــداد

الدكتور/ ياســر غالـــم

باحث بسلك الدكتوراه شعبة القانون الخاص بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب.

yassir.rhalem@usmba.ac.ma

العدد الثالث عشر – يوليو – 2023 م

الملخــص:

يعد السلم إمكانية رائعة ليكون واحدا من أهم وأكثر صيغ التمويل والاستثمار في البنوك التشاركية أو حتى على مستوى الدولة خاصة أنه يتمتع بقابلية التطبيق في مختلف القطاعات الزراعية والصناعية والتجارية، ومما يحد من انتشار استخدام هذه الصيغة التمويلية في البنوك التشاركية المغربية كثرة المخاطر المرتبطة بهذا العقد، الأمر الذي دفعنا إلى البحث عن أساليب وتقنيات وقائية لإدارة تلك المخاطر والحد منها خاصة ما يتعلق بتنزيل واسع لمؤسسة التأمين التكافلي لتغطية مخاطر التمويل بالسلم.

الكلمات المفتاحية: مفهوم السلم، إجراءاته، تطبيقه في البنوك التشاركية المغربية، أليات إدارة مخاطرة.

Abstract :

Contract Assalam is considered possibility to be one of the most important and the most important forms of financing and investment in participatory banks or even at the state level, especially as it enjoys applicability in the various agricultural, industrial and commercial sectors. The widespread use of this funding formula in Moroccan participatory banks is limited by the high risks associated with this contract, which prompted us to search for preventive methods and techniques to manage and reduce these risks, especially with regard to a large download by the Takaful Insurance Institution to cover the risks of financing by Salam.

تقديــم.

لقد احتل عقد البيع ماضيا وحاضرا مركز الصدارة ضمن قائمة العقود المسماة، لذلك خصته معظم التشريعات المدنية المعاصرة بأحكام وقواعد مستقلة تتناسب مع حجم الأهمية التي يمتاز بها هذا العقد عن غيره من العقود الأخرى، وهذه الأولوية في الترتيب هي التي نلمسها في إطار الدراسات الفقهية الإسلامية التي عرضت للعقود المسماة، فغالبا ما يستهل هؤلاء الفقهاء كتاب المعاملات بباب البيوع، [1]

فلم يكن معروفا البيع لدى المجتمعات القديمة لأنها لم تكن تتعامل بالنقود حيث كانت وسيلة التبادل هي المقايضة التي تعتمد في أصلها على مبادلة سلعة بأخرى.[2]

ويعد السلم أصلا من أصول عقود البيع الذي يعتبر من الصيغ الشرعية للتمويل والاستثمار، وهو لا يعدو أن يكون صورة من صور البيع التي يعجل فيها الثمن ويؤخر فيه المبيع إلى أجل معلوم، ودائرته واسعة تشمل كثيرا من الأمور، وبمقتضاه يتمكن أصحاب المشروعات الزراعية والصناعية من تمويل مشاريعهم عن طريق بيع ما ستنتجه مشروعاتهم مقدما فيحصل لهم تمويل تلك المشروعات بعيدا عن القروض الربوية التي تتعامل بها البنوك التقليدية، كما أن تداول عقود السلم يؤدي إلى نوع من الضمان والتشجيع على الإنتاج المستقبلي.[3]

ويعتبر التمويل السلم من المعاملات التي كان الناس يتعاملون بها قبل ظهور الإسلام، فلما جاء الدين الإسلامي الحنيف أقر هذا النوع من البيوع، وقد اهتم به المسلمون قديما اهتماما كبيرا فنظموه طبقا للأحكام الشرعية التي تضبط التعامل به بشيء من الاستقصاء والتفصيل،[4] ولم يقل اهتمام المستفتين والاقتصاديين بهذا العقد في العصر الحاضر، بل أولوه أهمية وعناية فتصدرت فتواهم ومؤلفاته مسائل متعددة تعلقت بعقد السلم لأنه أهم الصيغ الشرعية للتمويل والاستثمار مما دفع البنوك الإسلامية للتعامل به مع عملائها من خلال تمكين المزارعين والفلاحين والصناعيين في تمويل مشاريعهم وتوسيعها.

إن عقد السلم كصيغة من صيغ التمويل في البنوك التشاركية له من الأهمية ما يكفي سواء في المجال القانوني، أو الاقتصادي أو في المجال الاجتماعي:

- **فأما من الناحية القانونية:** فقد نظمه المشرع المغربي في المادة 58 من القانون رقم 12.103 المتعلق بمؤسسات الائتمان والهيئات المعتبرة في حكمها،[5] ثم أفرد له نصا خاصا بمقتضى منشور والي بنك المغرب رقم 1/و/17 المتعلق بالمواصفات التقنية لمنتجات المرابحة والإجارة والمشاركة والمضاربة والسلم، وكذا كيفيات تقديمها إلى العملاء.[6]
- ويتجلى **من الناحية الاقتصادية:** دور عقد السلم في تمويل التجار والصناع والفلاحين من قبل البنوك التشاركية بتطوير مشاريعهم القائمة أو إنشاء مشاريع جديدة من جهة وحصول البنك على الربح نتيجة هذه العميلة من جهة أخرى ولذلك يتحقق الهدف من أجل تحقيق التنمية الاقتصادية.
- كما تتجلى أهميته من **الجانب الاجتماعي** في التيسير على الناس ورفع المشقة والحرج عليهم خاصة تلك الطبقة المتحفظة من المعاملات البنكية التقليدية، وبذلك تتحقق مصالح المجتمع عامة ومنافع المتعاقدين في بيع السلم على وجه الخصوص.

ورغم أهمية صيغة السلم في التمويل التي تطرحها البنوك التشاركية إلا أنه لا يخلو من مخاطر وتعترضه عدة عوائق ومصاعب أبرزها تلك المخاطر التي تعترض تسليم المسلم فيه، فضلا عن صعوبة تسويق المنتج المسلم فيه، ومن ثم فإن الموضوع يثير إشكالية أساسية تتمثل في الصعوبات التي تحول

دون اعتماده في البنوك التشاركية المغربية، وكيف يمكن إيجاد آليات وأساليب لإدارة تلك المخاطر التي تعترض التطبيق العملي لصيغة السلم؟

للإجابة على هذه الإشكالية سنقسم هذا البحث إلى مطلبين:

المطلب الأول : الإطار العام لعقد السلم التشاركي

المطلب الثاني: آليات الحماية من مخاطر عقد السلم في البنوك التشاركية

المطلب الأول : الإطار العام لعقد السلم التشاركي

لإن كان عقد السلم من الصيغ التمويلية التي شرعها الإسلام في التعاملات المالية لأهميته الاقتصادية والاجتماعية، بما يقتضيه العصر وتدعو إليه الحاجة من تعجيل للثمن وتأجيل للمبيع، مما يوفر التمويل اللازم للمنتجين ورجال الأعمال على أساس شرعي بدلا من الاقتراض بفائدة ربوية،[7] فإننا سنحاول في هذا المطلب تحديد مفهوم عقد السلم من خلال الوقوف عند تعريفه ومشروعيته **(الفقرة الأولى)**، ثم ننتقل إلى بيان إجراءات وتنزيل عقد السلم في البنوك التشاركية **(الفقرة الثانية)**.

الفقرة الأولى: مفهوم عقد السلم [8]

بعد تعرضنا لتعريف عقد السلم (أولا)، سنتطرق إلى مشروعيته وأهميته (ثانيا).

أولا: تعريف عقد السلم

المقصود بالسلم في اللغة: هو السلف، إذ يقال أسلم في الشيء، وسلم وأسلف بمعنى واحد، وهو أن تعطي ذهبا وفضة في سلعة معلومة إلى أمد معلوم، فكأنك قد أسلمت الثمن إلى صاحب السلعة وسلمته إليه، ويُلاحظ أن السلم والسلف بمعنى واحد في لغة العرب، والسلم لغة أهل الحجاز والسلف لغة أهل العراق.[9]

أما **في الاصطلاح** فقد اختلف الفقهاء في تعريف عقد السلم تبعا لاختلافهم في الشروط المعتبرة فيه، ومن ضمن التعريفات الكثيرة له في اصطلاح الفقهاء نذكر تعريف ابن عرفة على أنه "عقد معاوضة يوجب عمارة ذمة بغير عين ولا منفعة غير متماثل العوضين".[10] وفي حاشية الدسوقي "هو بيع يتقدم فيه رأس المال ويتأخر المثمن إلى أجل"،[11] وفي نهاية المطلب في دراية المذهب يعرف السلم أنه " عقد موصوف في الذمة ببدل يعطى عاجلا".[12]

أما في التعريف القانوني فعقد السلم هو "عقد بمقتضاه يعجل أحد المتعاقدين مبلغا محددا للمتعاقد الآخر الذي يلتزم من جانبه بتسليم مقدار معين من الأطعمة أو غيرها من الأشياء المنقولة في أجل متفق عليه.[13]

وحسب المادة 58 من القانون رقم 12.103 المتعلق بمؤسسات الائتمان والهيئات المعتبرة في حكمها فالسلم هو "كل عقد يعجل بمقتضاه أحد المتعاقدين، البنك التشاركي أو العميل، مبلغا محددا للمتعاقد الآخر الذي يلتزم من جانبه بتسليم مقدار معين من بضاعة مضبوطة بصفات محددة لأجل".

وقد عرّفت المادة 54 من منشور والي بنك المغرب رقم 1/و/17 المتعلق بالمواصفات التقنية لمنتجات المرابحة والإجارة والمشاركة والمضاربة والسلم، وكذا كيفيات تقديمها إلى العملاء عقد السلم بأنه" كل عقد يعجل بمقتضاه أحد المتعاقدين المؤسسة أو العميل بصفته مشتريا (رب السلم) مبلغا محددا يسمى الثمن (رأس مال السلم) للمتعاقد الآخر الذي يلتزم بصفته بائعا (مسلما إليه) بتسليم مبيع يثبت في الذمة (مسلم فيه) مضبوط بخصائص محددة في أجل محدد متفق عليه."

وعليه فإن السلم في البنوك التشاركية هو " عقد شراء بين البنك والزبون، بمقتضاه يقوم البنك بتسديد ثمن الشراء فورا للزبون مقابل تسليم الزبون للبنك آجلا بضاعة متفق عليها بخصائص معينة في تاريخ محدد ".

ثانيا: مشروعية عقد السلم وأهميته

سنتطرق إلى مشروعية البيع بواسطة عقد السلم (أ)، وبعدها سنتعرض إلى تبيان أهميته (ب).

أ)– مشروعية البيع بالسلم [14]

يعد السلم من العقود المستثناة من أصول البيوع الفاسدة والمنهي عنها، فهو استثناء من عدم جواز بيع غير المملوك وغير الحاضر، فالأصل أن لا يباع إلا ما توافرت ملكيته حقيقة أو حكما، وذلك لكون البيع ناقلا للملكية بعوض على وجه جائز فإذا انتقلت الملكية بغير وجه جائز شرعا وقانونا، فلا يصح أن يكون بيعا ولو كان بعوض كالغصب والسرقة وغيرها، ومن هنا فإن السلم جائز شرعا وثابت بالكتاب والسنة والإجماع:

- فأما دليله من الكتاب فقد جاء في قول الله عز وجل "**يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه**". [15]
- وأما السنة فقد روى الإمام ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قدم المدينة وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث، فقال "**من أسلف في شيء ففي كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم**". [16]
- وأما الإجماع، فقد قال ابن المنذر: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم أن السلم جائز.[17]

ومن المعقول أن عقد السلم مما تدعو إليه الحاجة وإباحته فيه رفع للحرج عن الناس، فالمشتري مثلا يحتاج إلى الاسترباح لنفقة أهله وهو بالسلم أسهل، إذ لا بد من كون البيع نازلا عن القيمة فيربحه المشتري، أما البائع فقد تكون له حاجة إلى السلم، فأرباب الزرع والثمار والتجارة يحتاجون إلى النفقة على

أنفسهم، أو على الزرع ونحوها حتى تنضج، فيجوز لهم السلم دفعا للحاجة وللرفق ولاشك أن من مقاصد الأحكام مصالح الأنام.[18]

ب)- أهمية التمويل بالسلم

تتمثل أهمية التمويل بالسلم في الدفع بعجلة التنمية الزراعية والصناعية والخدماتية وتظهر هذه الأهمية عند شح السيولة النقدية في الأوقات التي تسبق مرحلة الإنتاج، حيث تعد إحدى أكبر التحديات التي تواجه المشاريع الزراعية والصناعية المتوسطة والصغيرة، ولذلك تعتبر صيغة التمويل بالسلم إحدى أهم الصيغ التمويلية التي طرحتها البنوك التشاركية مساهمة في حل هذه المشكلة، فهذه الصيغة ذات جودة عالية لكافة الأطراف، فأصحاب المشاريع الزراعية والصناعية تتوفر لهم بهذه الصيغة ميزتان:

الأولى تتجلى في السيولة النقدية التي تساهم في تسيير مشاريعهم في فترة ما قبل الإنتاج، وأما الثانية فتنضوي على ضمان التسويق لمنتجاتهم، حيث يعد التسويق أحد أبرز الصعوبات التي تواجه تلك المشاريع، كما أن هذه الصيغة بهذه الجدوى ستؤدي إلى تنشيط الاقتصاد ودفع عجلة التنمية بمشاريع إنتاجية حقيقية محققة دورة مالية إيجابية.

الفقرة الثانية : إجراءات عقد السلم وتنزيله في البنوك التشاركية

سنتطرق خلال هذه النقطة إلى إجراءات عقد السلم والسلم الموازي **(أولا)**، على أن ننتقل إلى دراسة تطبيقات عقد السلم في البنوك التشاركية **(ثانيا)**.

أولا) : إجراءات عقد السلم [19] والسلم الموازي[20]

يعتبر التمويل بالسلم بديلا عن التعامل بالفائدة، حيث يمكن للمسلم إليه متى كانت عنده سلعة ينتجها أن يبيع كمية منها مستقبلا مقابل ثمن معجل، لذلك يكون عقد السلم إحدى الوسائل التي يعتمدها البنك التشاركي حيث تحقق له ربحا من جهة وترفع الحرج عن العميل الذي يكون في حاجة لمال عاجل، وتتبع البنوك التشاركية مجموعة من الإجراءات لتنفيذ عقد السلم وهي كالتالي:

أ)- تقديم طلب التمويل

يتلقى البنك التشاركي طلبا من الزبون يحرره هذا الأخير وفق نموذج معد سابقا من طرف البنك يتضمن بيانات عن الزبون ويحدد فيه رغبته في الحصول على تمويل سلعة معينة بمواصفات محددة ومعروفة مقابل ثمن يدفعه البنك معجلا .

ب)- دراسة طلب التمويل

خلال هذه المرحلة يتلقى البنك طلب الزبون ويقوم بدراسته دراسة قانونية ومالية واجتماعية سواء المتعلقة بالزبون أو تلك الدراسة المتعلقة بالسلعة المراد تمويلها من حيث درجة المخاطر والضمنات المطلوبة، كل ذلك من أجل تكوين وجهة نظر ائتمانية من طرف البنك ، فإذا تبين للبنك على أن الطلب

يتظمن بيانات مقبولة وواضحة فإنه يعمد إلى مراسلة الزبون أو الإتصال به بكل الوسائل الممكنة من أجل تحديد ميعاد دراسة الملف من حيث تحديد السلعة التي هي محل طلب التمويل نوعا وكما، والمدة اللازمة لكي تكون جاهزة عند تاريخ تسليمها.

ج)- إبرام عقد السلم الأول

في حالة موافقة البنك على طلب التمويل يعمد إلى الاتصال بالزبون في مرحلة أخرى بغرض إخباره بقرار الموافقة على تنفيذ العقد، فيتم تحرير العقد بين البنك التشاركي بصفته مشتريا والزبون بصفته بائعا فيحصل المسلم إليه على ثمن السلعة عاجلا وفي مجلس العقد من أجل مباشرة تمويل منتوجه والاستفادة من أرباحه.

غير أنه تجدر الإشارة في الواقع العملي لا يتم التسليم الفوري للثمن من طرف البنك وفي مجلس العقد حيث يتلقى المسلم إليه أي البائع طالب التمويل ثمن السلعة عبر حسابه البنكي الذي قام بفتحه لدى نفس البنك ولنفس الغاية .

د)- إبرام عقد السلم الموازي

في هذه المرحلة يقوم البنك بإبرام عقد سلم أخر مع شخص أخر وهو ما يطلق عليه بالسلم الموازي أي العقد المقابل فيتحول البنك من مشتري لسلعة موصوفة في الذمة في العقد الأول إلى بائع لها في العقد الثاني بشروط ومواصفات العقد الأول، فإذا وقع البيع قام البنك إما بتسليم السلة إلى المشتري أو أن بتوكيل هذا الأخير بقبض المبيع من البائع الأول وهذه هي الصورة المعمول بها لدى الأبناك .

ثانيا: تنزيل عقد السلم من طرف البنوك التشاركية المغربية (بنك اليسر نموذجا)

لقد حاول المغرب أن يفتح المجال للمعاملات الإسلامية من خلال السماح بتطبيق تجارب محدودة من أجل مواكبة الاهتمام بالمالية الإسلامية إلى أن بدأ الخوض بشكل رسمي في تجربة البنوك التشاركية بإصدار القانون البنكي رقم 12.103 المتعلق بمؤسسات الائتمان والهيئات المعتبرة في حكمها، الذي خصص قسمه الثالث كاملا للبنوك التشاركية، والتي تعد استراتيجية من الدولة المغربية لتكثيف الاستثمارات من جانب دول الخليج ودعم المقاولات الصغرى والمتوسطة وكذا إعطاء فرصة للمجتمع المغربي المتحفظ من العمليات البنكية التقليدية بالتعامل مع هذه البنوك التشاركية.

وبالفعل فقد خرجت إلى أرض الواقع هذه البنوك التشاركية منذ سنة 2016 تحت مسميات عديدة (أمنية بنك، بنك اليسر، الأخضر بنك، دار الأمان ...)، وقد طرحت عقد المرابحة كأول صيغة للتمويل تأتي بعدها عقد الوديعة الاستثمارية حيث كان الغرض من هذا العقد سد العجز المالي وتحقيق السيولة الكافية للبنوك التشاركية وقد سجلت الودائع الاستثمارية لدى البنوك التشاركية 894 مليون درهم إلى حدود سنة 2020 في تطور سنوي بلغ 15% كما تجاوزت التمويلات المقدمة من طرف البنوك التشاركية 13 مليار درهم في تطور سنوي بلغ 48.1%، حسب الإحصائيات النقدية لبنك المغرب دجنبر 2020.

وأما فيما يتعلق بصيغة التمويل بالسلم لدى هذه البنوك فلم تقم بتسويق هذا المنتوج على الرغم من أن المجلس العلمي الأعلى صادق عليه منذ السابع من شهر مارس 2020، اللهم بعض المحاولة من طرف بنك اليسر في تقديمه للسلم كعملية للتمويل التشاركي.

إن عقد السلم حسب خطة بنك اليسر التشاركي سيُمكّن المقاولات المغربية من الحصول على النقد الكافي والفوري لتحريك عجلة الإنتاج، وتقديم التمويل لتلك المقاولات الصغيرة والمتأثرة سلبا من تبعات جائحة كوفيد 19.

وقد حاول بنك اليسر طرح منتوج عقد السلم في السوق لفائدة المقاولات بهدف خدمة هذه المقاولات باعتبارها محرك عجلة الاقتصاد المغربي، والاستجابة لحاجياتها من تمويل وخدمات بنكية، كما أنه يُمكّن هذه المقاولات من الدعم الفوري لتسييره واستعماله حسب متطلبات الإنتاج واقتناء المواد الأولية وأداء أجور العمال والنفقات الأخرى.[21]

المطلب الثاني : آليات الحماية من مخاطر عقد السلم في البنوك التشاركية

لا يخفى أن السلم عقد موصوف في الذمة بثمن عاجل وفق الشروط التي يتضمنها العقد بين عاقديه، فإن التمويل بهذه الصيغة تتضمن مجموعة من المخاطر تحيط بالعمل المصرفي بصفة عامة، والتمويل بعقد السلم على وجه الخصوص حيث تنتج عنه عدة مخاطر تعصف بالعمل التشاركي من جهة والعملاء من جهة أخرى أكان الأمر يتعلق بالمخاطر الإئتمانية أو بالمخاطر التشغيلية أو بمخاطر السوق علاوة على ذلك المخاطر الأخلاقية **(الفقرة الأولى)**، ولتجاوز هذه المشاكل والمخاطر التي تحيط بعقد السلم حرص الشرع الإسلامي والتشريع القانوني إلى وضع مجموعة من الأليات و الأساليب للحد من خطورة التمويل بالسلم وإدارتها من طرف البنوك التشاركية بطريقة شرعية وسليمة **(الفقرة الثانية)**.

الفقرة الأولى: مخاطر التمويل بالسلم

تتعدد المخاطر التي تحيط بالعمل البنكي الإسلامي في حال تطبيق التمويل بالسلم، حيث يتعلق الأمر بالمخاطر الإتمانية أو التشغيلية أو مخاطر السوق إلى جانب المخاطر الأخلاقية تبعا لخصوصية البنوك الإسلامية.

أولا : المخاطر الإئتمانية

باعتبار عقد السلم ينصب على ثمن معجل في مقابل بيع موصوف في الذمة ومضبوط بخصائص محددة وفي أجل محدد متفق عليه تتولد عنه مخاطر ائتمانية تتمثل في تخلف أو مماطلة رب السلم في الوفاء بالتزاماته من قبل عدم التزامه بتسليم المبيع موضوع السلم أو عدم التزامه بالمواصفات والأجل والخصائص والكميات المتفق عليها، بمعنى أن المسلم قد يتماطل أو يتخلف عن تسليم المبيع بالخصائص المتفق عليها وفي الأجل المتفق عليه حسب مقتضيات المادة 67 من قرار لوزير الاقتصاد

والمالية رقم 339.17 الصادر في 19 جمادى الأولى 1438 (17 فبراير 2017) بالمصادقة على منشور والي بنك المغرب رقم 1/و/17 الصادر في 27 يناير 2017 يتعلق بالمواصفات التقنية لمنتجات المرابحة والإجارة والمشاركة والمضاربة والسلم وكذا كيفيات تقديمها إلى العملاء [22] مما تنشأ معه مخاطر سداد الدين.

وبالنظر إلى عنصر الزمن في عقد السلم حيث يتفق المسلم والمسلم إليه على أجل ومكان معين لتسليم البضاعة موضوع العقد حسب المادة 61 من المنشور السابق ذكره [23] حيث إن أجل التسليم قد يكون محل خطر ائتماني، ذلك أن عقد السلم هو عقد مؤجل، إذ يلزم فيه البائع تسديد ما عليه عند حلول الأجل، غير أن طبيعة النشاط الممول بصيغة السلم خاصة في المجال الزراعي إلى جانب المجالات المعاصرة التي يشملها عقد السلم، قد تتأثر بمجموعة من الظروف والعوامل المناخية مما قد يُوسّع من دائرة احتمال وقوع الخطر بهلاك المبيع قبل حلول أجل حصاده وتسليمه كتعرضه للحريق أو التلف أو الفيضانات ... الأمر الذي يترتب عنه عدم الوفاء بالالتزام من قبل المسلم تجاه المسلم إليه (البنك التشاركي) .

كذلك من المخاطر الائتمانية المرتبطة بالعملاء حسب مقتضيات المادة 67 من منشور والي بنك المغرب رقم 1/و/17 المذكور استرداد الثمن المشتري للثمن الذي عجله في حالة تخلف البائع عن تسليم المبيع موضوع العقد، بمفهوم المخالفة قد يترتب عن عدم التزام المشتري برد الثمن عند فسخ العقد أو المماطلة وبالتالي استحقاق التعويض عن الضرر الفعلي الذي قد يلحق بالمشتري .

ثانيا : المخاطر التشغيلية

قد تحدث المخاطر التشغيلية بسبب عدم تحري الدقة من موظفي المؤسسة البنكية في إعداد عقد السلم والتي قد يؤدي إلى إهدار حقوق المؤسسة في حالة عدم قدرة العميل على سداد التزاماته مثل عدم إدراج الضمانات بشكل سليم، أو عدم تحديد آجال استلام المسلم فيه، وما قد يترتب عن ذلك من مخاطر تؤدي إلى إلحاق خسارة بالبنك التشاركي سواء في العاقد أو في رأس المال.

ثالثا: المخاطر المتعلقة بالسوق

يعد استحقاق المصارف الإسلامية في عقد السلم عبارة عن مبيع تشتريه وتدفع ثمنه مقدما، وبالتالي فإن المصرف يتعرض عند استحقاق تسلم السلعة لتغيرات غير مواتية في سعرها، مما قد يؤثر على ثمن بيعها في السوق فيترتب عن ذلك خسارة في الدخل أو حتى في الرأس المال، وبالتالي الوقوع في المخاطر السوقية التي تنشأ عن احتمال انخفاض أسعار السلع التي يستحقها البائع مما يعرض للخسائر في العائد،[24] ومن بين مخاطر السوق كذلك التي تعتري التمويل بصيغة السلم هو تعذر تسليم سلعة السلم عند حلول الأجل، وذلك من خلال مقتضيات المادة 64 من منشور والي بنك المغرب رقم

1/و/17 السالف الذكر،[25] حيث إن التعذر قد يكون سببه الإعسار أو الإفلاس أو لعذر طارئ أو بسبب المماطلة وبالتالي تفوت بمقتضاه فرصة تسويقية على المصرف كانت ستعود عليه غالبا بالربح.

إضافة إلى أنه من بين مخاطر إصدار صكوك السلم باعتبارها أوراقا متساوية القيمة تمثل أعيانا ومنافع، أو خدمات معا أو إحداهما، قائما فعلا أو سيتم إنشائها من حصيلة الاكتتاب وتصدر وفق عقد شرعي وتأخذ أحكامه،[26] فقد ورد في البند 7 من كتاب المعايير الشرعية عدم جواز إصدار صكوك سلم قابلة للتداول استنادا إلى أن تداولها من قبيل بيع الدين ممنوع شرعا.

الفقرة الثانية : طرق وأساليب إدارة مخاطر التمويل بصيغة السلم في البنوك التشاركية

من المعلوم أن المخاطر جزء من العملية الاستثمارية فلا يوجد استثمار من دون مخاطرة، فالتعامل والتمويل بصيغة السلم تحيط به مجموعة من المخاطر كما سبقت دراستها، ولمواجهة تلك المخاطر فإن البنوك التشاركية تلجأ إلى تحديد العديد من الضمانات التي لا تتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية كالرهن والكفالة وحق الخيار الممنوح للمشتري في حالة تخلف البائع عن تسليم المبيع ضمن الأجل المتفق عليه (أولا)، فضلا عن التأمين التكافلي والسلم الموازي التي تعتبر ضمانات تتناسب وخصوصيات عقد السلم (ثانيا).

أولا: الرهن والكفالة

انطلاقا من مقتضيات المادة 62 من منشور والي بنك المغرب رقم 1/و/17 السالف الذكر يُمكن أن يقترن عقد السلم بضمانات لفائدة المشتري كالرهن والكفالة وغيرها من الضمانات المنصوص عليها في النصوص التشريعية الجاري بها العمل، بعد الرأي بالمطابقة الصادر عن اللجنة الشرعية للمالية التشاركية، طبقا لأحكام الظهير الشريف رقم 1.03.300 الصادر في ربيع الأول 1425 (22 أبريل 2004) بإعادة تنظيم المجالس العلمية كما تم تتميمه بالظهير الشريف رقم 1.15.02 بتاريخ 28 ربيع الأول 1436 (20 يناير 2015)،[27] وذلك لضمان تسليم المبيع موضوع عقد السلم، وهو جائز عند جمهور الفقهاء مستندين في ذلك على قوله تعالى: **(وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة)**.[28]

ثانيا : حق الخيار

يعتبر حق الخيار من أهم الضمانات الممنوحة للمشتري في حال عدم تمكنه من المبيع داخل الأجل المتفق عليه لأي سبب من الأسباب، فعند عدم توافر البضاعة جزئيا أو كليا في الآجال المتفق عليها يكون للمشتري الحق في الخيار بين منح البائع أجلا معقولا باتفاقهما وبين فسخ العقد واسترداد

الثمن الذي دفعه حسب مقتضيات المادة 66 من منشور والي بنك المغرب رقم 1/و/17 السالف الذكر،[29] وطبقا للمقتضيات العامة المعمول بها في النصوص التشريعية.[30]

ثالثا : التأمين التكافلي[31]

يُعتبر التأمين التكافلي من بين الوسائل التي يُمكن للبنوك الممولة لعقود السلم اللجوء إليه، أي اشتراط في عقد السلم أن يكون المشروع الممول سلما مغطى بتأمين تكافلي ضد مخاطر السنن الإلهية الطبيعية من فيضانات وحريق أو تلف المحصول الزراعي نتيجة غارات الجراد، أو حصول أي نوع من المخاطر التي تهدد المبيع كالسرقة وغيرها، وبالتالي فعملية التأمين تساعد في نقل المخاطر من البنوك إلى شركات التأمين التكافلي.[32]

رابعا: توكيل المسلم إليه بتسويق البضاعة بأجر أو بدون أجر

لقد نصت المادة 69 من منشور والي بنك المغرب رقم 1/و/17 المذكور على هذه الآلية بقولها: "يجوز للمؤسسة بصفتها مشتريا أن توكل البائع مقابل أجر أو بدون مقابل،[33] من أجل إعادة بيع المبيع موضوع عقد السلم لفائدتها عند حلول أجل التسليم، لطرف ثالث غير البائع في عقد السلم، ويجوز للمؤسسة بيع المسلم فيه قبل قبضه ما لم يكن طعاما."

وتعتبر هذه الوسيلة من بين الأساليب التي تحقق للبنوك التشاركية الحماية من مخاطر السوق حيث إن البيع سيتم من قبل جهات متخصصة ولها معرفة مسبقة بالسوق كما تحقق الحماية من المخاطر التشغيلية المتمثلة في تتبع عملية التخزين والسوق.

خاتمـــة

من خلال ما سبق دراسته في هذا البحث يُمكن أن نخلص إلى أن موضوع التمويل بالسلم له أهمية ودور في تحريك دورة الاقتصاد، سواء بالنسبة للمتعاقدين تحت شروطه أو للمجتمع بصفة عامة، من خلال توفير السيولة النقدية للصناعيين والمزارعين وتوفير فرص الشغل، إلا أن هذه الأهمية لا تخلو من

صعوبات، أولاها أن صيغة التمويل بالسلم لم يتم اعتمادها من طرف البنوك التشاركية المغربية رغم أن تاريخ إحداث هذه البنوك يزيد عن 5 سنوات مضت، ويبدو أن ذلك راجع بالأساس إلى خطورة التمويل بهذا العقد من جهة، وعدم وجود تأمين تكافلي يغطي تلك المخاطر عند وقوعها من جهة ثانية.

وعموما فإن عقد السلم يبقى تفعيله رهينا باستحضار شروطه الكاملة وتوفير مناخ ملائم لتنزيله على أرض الواقع من طرف البنوك التشاركية المغربية، وترتيبا على ما سبق وإغناء لهذا البحث نخرج بالاقتراحات التالية:

- إن عقد السلم من العقود الربحية التي يصح استثمارها في التمويل التشاركي.
- يتعين توفير المناخ الملائم للبنوك التشاركية لاعتماد صيغة التمويل بالسلم وأول ما يجب التركيز عليه هو التنزيل السليم لمؤسسة التأمين وإعادة التأمين التكافلي رغم أن بوادره الأولى بدأت تظهر من خلال إحداثه في بعض المؤسسات البنكية.
- في إطار التمويل بالسلم فإن البنوك التشاركية ستساهم في تمكين الزبناء من خدمات ربحية وتنافسية، وتعفيهم من اللجوء إلى القروض الربوية.
- يجب التوسيع من نطاق الفئة المستفيدة من خدمات البنوك التشاركية خاصة خدمة التمويل بالسلم لتشمل صغار الفلاحين والحرفيين الذين لديهم رغبة في تطوير مشاريعهم الإنتاجية.

ولا بد من التنبيه في الختام إلى أن هذا العقد يحتاج إلى جهود كبيرة من أجل توفير البيئة العملية له ليتمكن من أخذ حيزه المطلوب ضمن معاملات البنوك التشاركية في المغرب، وهذا ما يقتضي التعريف به والتثقيف الفقهي والقانوني بمضامينه ومسالك الاشتغال به من خلال وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة، الورقية منها والإلكترونية.

لائحـــة المراجـــع

المراجع باللغة العربية

❖ **الكتـــب:**

- أحمد الدردير، محمد عرفة الدسوقي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للشرح، إحياء الكتب العربية، دون ذكر الطبعة والتاريخ.

- محمد عبد الحليم عمر، الإطار الشرعي والاقتصادي والمحاسبي لبيع السلم في ضوء التطبيق المعاصر، دراسة تحليلية مقارنة، بحث تحليلي رقم 15، الطبعة 3، البنك الإسلامي للتنمية، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، سنة 2004.
- محمد الوردي، أساسيات الاقتصاد الإسلامي وتطبيقاته المعاصرة، مطبعة طوب بريس، الرباط، دون ذكر الطبعة، 2011.
- محمد بن محمد بن عبد الرحمان المالكي الحطاب أبو عبد الله، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، المجلد 5، دار الرضوان بأكادير، الطبعة 1، 2010.
- محمد عبد الحليم عمر، الإطار الشرعي والاقتصادي والمحاسبي لبيع السلم، دار الكتب بالقاهرة، سنة 2000. (دون ذكر الطبعة)
- عبد القادر العرعاري، الوجيز في النظرية العامة للعقود المسماة، الكتاب الأول، عقد البيع، الطبعة 2، مكتبة دار الأمان الرباط، 2009.
- عبد السلام فيغو، العقود التشاركية، منشورات مجلة الحقوق، سلسلة المعارف القانونية والقضائية، دار النشر للمعرفة، طبعة 38، 2016.
- عبد المالك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو لمعالي ركن الدين الملقب بإمام الحرمين، نهاية المطلب في دراية المذهب، المجلد 6، الطبعة 1، دار المنهاج جدة السعودية.
- زكرياء محمد القضاة، السلم والمضاربة من عوامل التسيير في الشريعة الإسلامية، الطبعة 1، دار الفكر،(دون ذكر تاريخ الطبعة).

❖ **الأطروحات والرسائل :**

- محمد خلوقي، خصوصيات التأمين التكافلي في ضوء التشريع المغربي والمقارن. أطروحة لنيل الدكتوراه في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية جامعة الحسن الأول– سطات السنة الجامعية 2017/2016.
- عبد الرحيم حيزوم، التأمين التعاوني الإسلامي وتطبيقاته المعاصرة: دراسة فقهية تقويمية؛ أطروحة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس السنة الجامعية 2013/2012.
- عادل معاش، التأمين التكافلي في المغرب، رسالة لنيل شهادة الماستر في القانون الخاص (تخصص: منازعات الأعمال)، الفوج 6، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، السنة الجامعية 2020 – 2021.
- سميحة عبد الوهاب الخطيب، بيع السلم في قانون الالتزامات والعقود المغربي والقانون المغربي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة محمد الخامس أكدال بالرباط، السنة الجامعية 1991م.

❖ **القوانين والقرارات القضائية:**

- قانون الالتزامات والعقود المغربي، ظهير 9 رمضان 1331 (12 أغسطس 1913).
- ظهير شريف 1.14.193 صادر في فاتح ربيع الأول 1436 (24 ديسمبر 2014) بتنفيذ القانون رقم 103.12 المتعلق بمؤسسات الائتمان والهيئات المعتبرة في حكمها، منشور بالجريدة الرسمية عدد 6328 بتاريخ فاتح ربيع الآخر 1436 (22 يناير 2015) .

- منشور والي بنك المغرب رقم 1/و/17 صادر في 27 يناير 2017 يتعلق بالمواصفات التقنية لمنتجات المرابحة والإجارة والمشاركة والمضاربة والسلم، وكذا كيفيات تقديمها إلى العملاء.
- قرار محكمة النقض صادر بتاريخ 1982/11/3، المنشور في مجلة القضاء الأعلى عدد 32.

❖ **المراجع باللغة الأجنبية:**

- Ghestin et desché, « Traité des contrats – la vente » (L.G.D.J) Paris, n°.11

❖ **المواقع الإلكترونية:**

- https://www.aljazeera.net/encyclopedia/encyclopedia-economy/2009/12/27.
- https://www.aliqtisadalislami.net
- https://platform.almanhal.com/Files/2/112714
- https://www.aljazeera.net
- www.assabel.net
- http://www.univbejaia.dz/jspui/bitstream
- https://www.droitetentreprise.com/18356-2 /
- http://archives.univbiskra.dz/bitstream
- https://www.alyousr.ma/sites/default/files/2020-07/Depliant_salam.pdf
- https://iefpedia.com/arab/wpcontent/uploads

الهوامش

[11]– عبد القادر العرعاري، الوجيز في النظرية العامة للعقود المسماة، الكتاب الأول، عقد البيع، مكتبة دار الأمان الرباط، الطبعة 2، 2009، ص 9.

[2] – Ghestin et Desché, « Traité des contrats-la vente », L.G.D.J, Paris p :11 N 15

[3]– عبد السلام فيغو، العقود التشاركية، منشورات مجلة الحقوق، سلسلة المعارف القانونية والقضائية، دار النشر للمعرفة، طبعة 38، 2016، ص 73,

[4]– زكرياء محمد القضاة، السلم والمضاربة من عوامل التسيير في الشريعة الإسلامية، الطبعة 1، دار الفكر، دون ذكر تاريخ الطبعة، ص 146– 147.

[5] - ظهير شريف 1.14.193 صادر في فاتح ربيع الأول 1436 (24 ديسمبر 2014) بتنفيذ القانون رقم 103.12 المتعلق بمؤسسات الائتمان والهيئات المعتبرة في حكمها، منشور بالجريدة الرسمية عدد 6328 بتاريخ فاتح ربيع الآخر 1436 (22 يناير 2015)، ص: 462.

[6] - المواد 54 – 69 من قرار وزير الاقتصاد والمالية رقم 339.17 الصادر في 19 جمادى الأولى 1438 (17 فبراير 2017) بالمصادقة على منشور والي بنك المغرب رقم 2/و/17 الصادر في 27 يناير 2017 المتعلق بالمواصفات التقنية لمنتجات المرابحة والإجارة والمشاركة والمضاربة والسلم، وكذا كيفيات تقديمها إلى العملاء المنشور بالجريدة الرسمية العدد 6548 الصادر في 3 جمادى الآخرة 1438 (2 مارس 2017) ص 579.

[7] – محمد عبد الحليم عمر، الإطار الشرعي والاقتصادي والمحاسبتي لبيع السلم في ضوء التطبيق المعاصر، دراسة تحليلية مقارنة، بحث تحليلي رقم 15، الطبعة 3، البنك الإسلامي للتنمية، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، السنة 2004/1425، ص 13 منشور على الموقع الإلكتروني:

https://down.ketabpedia.com/files/bkb/bkb-fi15965-ketabpedia.com.pdf

(تاريخ الولوج يوم الخميس 6 يناير 2022 على الساعة التاسعة والنصف ليلا)

[8] - للمزيد من التوضيح تراجع:

- سميحة عبد الوهاب الخطيب، بيع السلم في قانون الالتزامات والعقود المغربي والقانون المغربي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة محمد الخامس أكدال بالرباط، السنة الجامعية 1991م ص 61 وما بعدها.

[9] - محمد الوردي، أساسيات الاقتصاد الإسلامي وتطبيقاته المعاصرة، مطبعة طوب بريس بالرباط، دون ذكر الطبعة، 2011،ص 305.

[10] - محمد بن محمد بن عبد الرحمان المالكي الحطاب أبو عبد الله، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، المجلد 5، الطبعة 1، دار الرضوان للنشر والتوزيع بأكادير 2010، ص 331.

[11] - أحمد الدرير، محمد عرفة الدسوقي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للشرح، إحياء الكتب العربية، دون ذكر الطبعة والتاريخ، ص 195.

[12] - عبد المالك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي ركن الدين الملقب بإمام الحرمين، نهاية المطلب في دراية المذهب، المجلد 6، الطبعة 1، دار المنهاج جدة السعودية، 2007، ص7.

[13] - الفصل 613 من قانون الالتزامات والعقود المغربي.

[14] - للمزيد من التوضيح تراجع:

سميحة عبد الوهاب الخطيب، بيع السلم في قانون الالتزامات والعقود المغربي والقانون المغربي، مرجع سابق ص 79 وما بعدها.

[15] - سورة البقرة، الأية الكريمة رقم 282 ، برواية ورش عن نافع.

[16] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب السلم (2) باب السلم في وزن معلوم، 59/3، رقم الحديث 2240 و2241, وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة (25) باب السلم 1226/3،1227، رقم الحديث 127/ 1604 و 128/ (1604).

[17] - محمد الوردي، أساسيات الاقتصاد الإسلامي وتطبيقاته المعاصرة، مرجع سابق، ص 306.

[18] - محمد الوردي، أساسيات الاقتصاد الإسلامي وتطبيقاته المعاصرة، المرجع نفسه.

[19] - للمزيد يراجع:

- عبد القادر حوة، الدور التمويلي لبيع السلم وتطبيقه في المصارف الإسلامية، مقال بمجلة دفاتر اقتصادية، المجلد الرابع، العدد الأول ص 124 وما بعدها، منشور على الموقع الإلكتروني:
https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/374/4/1/25448
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة الخامسة إلا ربعا بعد الزوال)

[20] - للمزيد تراجع:

- عائشة كداتسة، محاسبة عقد السلم والسلم الموازي في إطار التمويل الإسلامي لدى المصارف الإسلامية وفق ما تنص عليه (AAOIFI) – حالة بنك البركة الجزائري، مقال بمجلة رؤى اقتصادية، المجلد 10، العدد الأول ص 79 وما بعدها، منشور على الموقع الإلكتروني:
https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/126/10/1/129901
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة الخامسة إلا 5 دقائق بعد الزوال)
- محمد الفاتح محمود بشير المغربي، صيغة عقد السلم والسلم الموازي وتطبيقاتها في المصارف الإسلامية، مقال بمنتدى فقه الاقتصاد الإسلامي، السنة 2015 ص 13 وما بعدها منشور على الموقع الإلكتروني:
https://iefpedia.com/arab/wp-content/uploads/2017/05/%D8%B5%D9%8A%D8%BA%D8%A9-%D8%B9%D9%82%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%84%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%84%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%88%D8%A7%D8%B2%D9%8A.pdf
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة الخامسة بعد الزوال)

[21] – السلم، التمويل التشاركي الجديد للمقاولات، تقرير ملتقى رقمي انعقد يوم الخميس 4 فبراير 2021 على الساعة 6.00 مساء عبر التقنية الافتراضية Zoom، منشور على الموقع الإلكتروني الرسمي لبنك اليسر التالي:

https://alyousr.ma/ar/webinaire-salam

(تاريخ الدخول يوم الأربعاء 5 يناير 2022 على الساعة الرابعةبعد الزوال).

يراجع مطوية صادرة عن هذا البنك منشورة على الموقع الإلكتروني:

https://www.alyousr.ma/sites/default/files/2020-07/Depliant_salam.pdf

(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة الخامسة و20 دقيقة بعد الزوال)

[22] - المنشور بالجريدة الرسمية العدد 6548 الصادر في 3 جمادى الآخرة 1438 (2 مارس 2017) ص 579.

[23] - تنص المادة 61 من منشور والي بنك المغرب رقم 1/و/17 على أنه " يحدد عقد السلم ميعاد وكيفيات تسليم البضاعة موضوع العقد.
إذا لم يحدد العقد مكان التسليم، افترض في المتعاقدين أنهما ارتضيا الركون إلى مكان إبرام العقد."

[24] - موسوعة فتاوى المعاملات المالية والمصرفية والمؤسسات الإسلامية، المجلد 5، السلم، الطبعة 1، 2009، ص 21و22.

[25] - تنص المادة 64 من هذا المنشور على أنه " في حالة تعذر تسليم البضاعة في الأجل المحدد في العقد، يمكن للبائع تأجيل التسليم بعد قبول المشتري، دون مراجعة الثمن أو الزيادة في مقدار البضاعة موضوع العقد" .
حيث تثير هذه المادة إشكالية عدم مراجعة الثمن في حالة تأجيل التسليم الأمر الذي يترتب عنه انخفاض ثمن المبيع يوم التسليم جراء هذا التأجيل في الحالة التي لا يكون فيها الخيار بمراجعة الثمن وفي نظرنا يمكن أن يترتب عنه خطر وقوع البنك في خسارة محققة.

[26] - قرار مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد خلال دورته 19 في دولة الإمارات العربية المتحدة، من 1 إلى 5 جمادى الأولى 1430،الموافق 26 أبريل 2009،بشأن الصكوك وتطبيقاتها المعاصرة وتداولها.

[27] - المادة 2 من منشور والي بنك المغرب رقم 1/و/17 .

[28] - سورة البقرة الآية رقم 282.

[29] - تنص هذه المادة على أنه "في حالة عدم توفر البضاعة جزئيا أو كليا، يكون للمشتري الخيار بين إمهال البائع أجلا مغقولا يتفق عليه الطرفان، وبين فشخ العقد واسترداد الثمن الذي دفعه."

[30] - ينص الفصل 618 من قانون الالتزامات والعقود المغربي على أنه "إذا منع المدين، بسبب قوة قاهرة، من تسليم ما وعد به، بغير تقصير منه ولا مطل كان للدائن الخيار بين فسخ العقد واسترداد ما عجله من ثمن، وبين الانتظار إلى السنة التالية.وفي السنة التالية، إذا وجد الشيء المبيع، وجب على المشتري تسلمه ولا يبقى له الحق في فسخ العقد، ويسري نفس الحكم إذا كان قد سبق للمشتري تسلم جزء من المبيع،
وعلى العكس من ذلك إذا لم يوجد الشيء المبيع، طبق حكم الفقرة الأخيرة.".

[31] - جاء في ديباجة الظهير الشريف رقم 1.02.238 صادر في 25 رجب 1423 (3 أكتوبر2002)، بتنفيذ القانون رقم 17.99 المتعلق بمدونات التأمينات، والمنشور في الجريدة الرسمية عدد 5054 الصادرة بتاريخ 2 رمضان 1423 (7 نونبر 2002)، ص 3105 أن "التأمين التكافلي: عملية تأمين تتم وفق الآراء بالمطابقة الصادرة عن المجلس العلمي الأعلى المنصوص عليه في الظهير الشريف رقم 1.03.300 الصادر في 2 ربيع الأول 1425 (22 أبريل 2004) بإعادة تنظيم المجالس العلمية كما تم تتميمه، بهدف تغطية الأخطار المنصوص عليها في عقد التأمين التكافلي بواسطة حساب التأمين التكافلي يسير، مقابل أجرة التسيير،من طرف مقاولة للتأمين وإعادة التأمين معتمدة لمزاولة عمليات التأمين التكافلي، ولا يمكن في أي حال من الأحوال أن يترتب قبض أو أداء أي فائدة على عمليات التأمين التكافلي من لدن مقاولة التأمين وإعادة التأمين."
للمزيد يراجع:

- عادل معاش، التأمين التكافلي في المغرب، رسالة لنيل شهادة الماستر في القانون الخاص (تخصص: منازعات الأعمال)، الفوج 6، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، السنة الجامعية 2020 – 2021 ص 15 وما بعدها.

هناك دراسات في المغرب - وان قلت- من اهتمت بتحليل نظام التأمين التكافلي ومن خلال اطلاعنا على هذه الدراسات التي لها علاقة مباشرة بموضوع التأمين التكافلي منها ما يلي:
- محمد خلوقي: خصوصيات التأمين التكافلي في ضوء التشريع المغربي والمقارن. أطروحة لنيل الدكتوراه في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية جامعة الحسن الأول- سطات السنة الجامعية 2017/2016؛
- حليمة السباعي: التأمين التكافلي في القانون المغربي. رسالة لنيل ديبلوم الماستر في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية أكدال جامعة محمد الخامس- الرباط السنة الجامعية 2019/2018؛ .
- عبد الرحيم حيزوم: التأمين التعاوني الإسلامي وتطبيقاته المعاصرة: دراسة فقهية تقويمية؛ أطروحة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس السنة الجامعية 2013/2012.

32 - للمزيد يراجع:

- حرزون كاتية وحديد أمينة، التأمين التكافلي، مذكرة لنيل شهادة الماستر في الحقوق (تخصص: قانون خاص شامل)، كلية الحقوق والعلوم السياسية (قسم القانون الخاص)، جامعة عبد الرحمن ميرة – بجاية، السنة الجامعية 2020 – 2021 ص 3 وما بعدها، منشورة على الموقع الإلكتروني:
http://www.univ-bejaia.dz/jspui/bitstream/123456789/13226/1/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A3%D9%85%D9%8A%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%83%D8%A7%D9%81%D9%84%D9%8A.pdf
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة السادسة و30 دقيقة بعد الزوال)
- بثينة بركاني، واقع وتحديات صناعة التأمين التكافلي في الجزائر، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة ماستر أكاديمي (تخصص: إدارة مالية)، كلية العلوم الاقتصادية والعلوم التجارية وعلوم التسيير (قسم: علوم التسيير)، جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي، السنة الجامعية 2019- 2020 ص 3 وما بعدها، منشورة على الموقع الإلكتروني:
http://bib.univ-oeb.dz:8080/jspui/bitstream/123456789/10658/1/memoire%20BOUTHAINA%20BERKANI.pdf
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة السادسة و40 دقيقة بعد الزوال)
- ميلودي نادية، دور مؤسسات التأمين التكافلي في دعم المصارف الإسلامية – دراسة استشرافية للجزائر، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر في العلوم الاقتصادية (تخصص: اقتصاد نقدي وبنكي)، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير (قسم العلوم الاقتصادية)، جامعة محمد خيضر – بسكرة، السنة الجامعية 2019 – 2020 ص 11 وما بعدها، منشورة على الموقع الإلكتروني:
http://archives.univ-biskra.dz/bitstream/123456789/17373/1/%D9%85%D9%8A%D9%84%D9%88%D8%AF%D9%8A_%D9%86%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%A9.pdf
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة السادسة و45 دقيقة بعد الزوال)
- غنام سمارة، دور التأمين التكافلي في دعم العمل المصرفي الإسلامي "دراسة علاقة شركة تأمين تكافل الراجحي بمصرف الراجحي الإسلامي السعودي"، مذكرة تخرج مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة الماستر في العلوم الاقتصاديو (تخصص: اقتصاد نقدي وبنكي)، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير (قسم العلوم الاقتصادية)، جامعة 8 ماي 1945، السنة الجامعية 2019 – 2020 ص 34 وما بعدها، منشور على الموقع الإلكتروني:
https://dspace.univ-guelma.dz/jspui/bitstream/123456789/10350/1/GHENNAM_SAMARA_Sciences%20%C3%A9conomiques._Economie%20mon%C3%A9taire%20et%20bancaire.pdf
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة السابعة ليلا)
- عبوب أسية، التأمين التكافلي، مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستر في الحقوق (تخصص: تأمينات ومسؤولية)، كلية الحقوق والعلوم السياسية (قسم القانون الخاص)، جامعة مستغانم، السنة الجامعية 2017 – 2018 ص 6 وما بعدها، منشور على الموقع الإلكتروني:

https://drive.google.com/file/d/1TMkdZIXTjv4Y7OJ7aMvSOfAl2L2tgLDu/view
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة السابعة و10 دقائق ليلا)

- التهامي المنصوري، التأمين التكافلي في المعاملات المالية للبنوك التشاركية بالمغرب، بين التنظير القانوني والتنزيل العملي، مقال بالمجلة الإلكترونية للأبحاث القانونية، العدد الرابع 2019 ص 143 وما بعدها، منشور على الموقع الإلكتروني:
https://revues.imist.ma/index.php/RERJ/article/view/17519/9668
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة السادسة و20 دقيقة بعد الزوال)
- رهان لطيفي، التأمين التكافلي، مقال بالمجلة الإلكترونية للأبحاث القانونية العدد السادس 2020 ص 158 وما بعدها، منشور على الموقع الإلكتروني:
http://www.abhatoo.net.ma/page-principale/%D9%85%D8%B9%D9%84%D9%85%D8%A9-%D9%86%D8%B5%D9%8A%D8%A9/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%86%D9%85%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%82%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9%D9%8A%D8%A9/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%86%D9%85%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%82%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%A9/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A9/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A3%D9%85%D9%8A%D9%86/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A3%D9%85%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%83%D8%A7%D9%81%D9%84%D9%8A-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة السادسة و50 دقيقة بعد الزوال)
- يونس الرياحي، التأمين التكافلي بالمغرب ... الإطار التشريعي والآفاق، مقال منشور على الموقع الإلكتروني:
https://www.droitetentreprise.com/18356-2/
(تاريخ الدخول يوم الجمعة 7 يناير 2022 على الساعة السادسة و25 دقيقة بعد الزوال)

وتحجر الإشارة إلى صدور قرار لوزير الاقتصاد والمالية وإصلاح الإدارة رقم 2403.21 في 29 محرم 1443 (7 شتنبر 2021) بالمصادقة على منشور رئيس هيئة مراقبة التأمينات والاحتياط الاجتماعي بالنيابة رقم AS/02/21 الصادر في 20 أبريل 2021 بتطبيق بعض أحكام القانون رقم 17.99 المتعلق بمدونة التأمينات، فيما يتعلق بالتأمين التكافلي، المنشور بالجريدة الرسمية عدد 7033 الصادر في 18 ربيع الأول 1443 (25 أكتوبر 2021) ص 7968.

وبناء على هذا القرار حصلت ثلاث شركات على رخص من طرف هيئة مراقبة التأمينات والاحتياطات الاجتماعي من أجل ممارسة عمليات التأمين التكافلي، ومن المرتقب أن تقدم هذه الشركات، بعد استكمال المساطر القانونية المطلوبة، خدمات التأمين لفائدة الحاصلين على تمويلات من البنوك التشاركية. ويتعلق الأمر بكل من «وفا تكافل»، و«تعاونية التأمين التكافلي»، و«التكافل للتأمينات»؛ وهي رخص خاصة بشركات جديدة تابعة لشركات التأمين التقليدية، وتمت المصادقة على منح هذه التراخيص الجديدة خلال انعقاد مجلس هيئة مراقبة التأمينات والاحتياطات الاجتماعي يوم الجمعة 10 دجنبر 2021، ويرتقب أن يساهم إخراج التأمين التكافلي في زيادة الإقبال على البنوك التشاركية، وضمان التأمين لزبائنها على كل المنتجات المتوفرة.

وتأخر إخراج التأمين التكافلي إلى الوجود لسنوات على الرغم من بدء البنوك التشاركية في تقديم خدماتها سنة 2017، وهو ما كان يشكل خطراً على البنوك والزبائن معاً، ويتوقع عدد من الخبراء أن ينجح التأمين التكافلي في حيازة حوالي 5 في المائة من سوق التأمينات بالمغرب، في غضون السنوات العشر المقبلة، ورغم غياب التأمين التكافلي فإن الإقبال على البنوك التشاركية شهد نمواً مستمراً لم يتوقف رغم تداعيات أزمة فيروس كورونا المستجد، حسب المعطيات الرسمية. وحسب آخر المعطيات الصادرة عن بنك المغرب فقد واصل التمويل التشاركي المخصص للإسكان، وخاصة على شكل «المرابحة العقارية»، ارتفاعه في متم أكتوبر الماضي، وذكر البنك المركزي أن هذه التمويلات ناهزت حوالي 15.3 مليار درهم، مقابل 10.2 مليارات درهم سنة قبل ذلك، ما يمثل زيادة بنسبة 49 في المائة.

- منشور على الموقع الإلكتروني:

https://www.alakhbar.press.ma/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B1%D8%AE%D9%8A%D8%B5-%D9%84%D8%AB%D9%84%D8%A7%D8%AB-%D8%B4%D8%B1%D9%83%D8%A7%D8%AA-%D9%84%D9%85%D9%85%D8%A7%D8%B1%D8%B3%D8%A9-%D8%B9%D9%85%D9%84%D9%8A%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84-154659.html

[33] - كما ينص الفصل 888 من قانون الالتزامات والعقود المغربي علي أن "الوكالة بلا أجر، ما لم يتفق على غير ذلك، غير أن مجانية الوكالة لا تفترض:
أولا: إذا كلف الوكيل بإجراء عمل داخل في حرفته أو مهنته،
ثانيا: بين التجار فيما يتعلق بالمعاملات التجارية،
ثالثا: إذا قضى العرف بإعطاء أجر عن القيام بالأعمال التي هي محل الوكالة."